علي الزين

العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان القاهرة ج م ع

علي الزين

العادات والتقاليد

في

العهود الاقطاعية

دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان القاهرة ج م ع

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتلبنان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

دار الكتاب المصري
برقياً : كتامصر - القاهرة
ص.ب : ١٥٦
القاهرة - ج.م.ع

الطبعة الاولى ١٩٧٧

تقديم واعتذار

كنت جمعت ما انطوى عليه هذا الكتاب من نصوص وملاحظات وصور لأتبسط في شرحها وتمحيصها وامعن في تنسيقهـــا فصولاً وصوراً وافكاراً ، أملاً بتحقيق ما يصبو اليه القراء المترفون من دقـــة علمية وطرافة أدبية ودرس مفيد .

أجل ولكن ما توالى على مسمعي وبصري وقواي الجسدية من طوارىء صحية وحوادث مزعجة انهكت قواي واضعفت نظري واقعدتني عن بلوغ الأمل المنشود ، فاضطررت – بعـــامل القنوط واليأس من المساعدة على القراءة والكتابة – الى الاكتفاء ممـــا تيسّر لي في هذه الأوراق المشوشة ، ثم الى تقديمها على علاّتها صوراً معبرة عن عاداتنا وتقاليدنا او مجسدة لجانب من اوضاع بلادنا وانظمة حكامنا في العهود الاقطاعية والعصور المظلمة راجياً ان يتاح لها من يتمم فصولها ونواقصها ويضفي عليها بردة قشيبة من البيان العذب والملاحظات الطريفة والمنطق السديد .

المؤلف علي الزين

في ١٩٧٦/١٠/٢١

العادة، والتقليد، والعرف

لا شك أن كل حركة او فعل او قول يبدر من أي شخص ثم يتكرر منه ويعاد في كل مناسبة يصبح بالنسبة لهذا الشخص عادة ثم يصبح تقليداً بالنسبة لمن يحاكيه في ذلك وخصوصاً حين يكون المقلد لهذه العادة مقلداً بالوراثة عن سلفه من الارحام والاصدقاء والاجيال المتعاقبة ، ثم حين يجمع على هذه العادة وهذا التقليد الجمهور من ابناء الجيل والقبيلة والاقليم تصبح هذه العادة او يصبح هذا التقليد عرفاً بنظر الجميع .

وعليه فلا فرق بين العادة والتقليد والعرف الا بالاعتبارات والنسب . على ان العرف لا يكون عرفاً الا بالأمور المعقولة والحسنة بينما تتغلغل العادات في الأمور الحسنة والامور السيئة والممقوتة ثم لا شك بأنه عندما تعترف الدولة بهذه العادات والتقاليد والاعراف وتلتزم بها تصبح قوانين محترمة وانظمة مرعية لدى الجميع .

مصادر العرف القبلي وبواعثه

وبما ان كل حاكم من الاقطاعيين كان يتراوح في حكمه بين الاعتماد على العرف القبلي والعادات الاقليمية وبين الاذعان لأوامر الباشوات والولاة وشروطهم المقررة المفروضة ، او الالتجاء الى رجال الدين فيما يخشى مغبة استفحاله من المشاكل او مغبة التحكم بحلّه قسراً وتعسفاً ، لهذا وأمثاله كان على الباحث ان يعرف مصادر هذه العادات والتقاليد والاعراف ومستوى بواعثها النفسية والاجتماعية .

الحاجة الى الحكومة

لم يكن في الجاهلية وجود لأي هيئة حاكمة ولا لأي طائفة من الناس تأخذ على عاتقها حماية المظلومين وتأمين الخائف الى غير ذلك من مفاهيم الحكومة عندنا ، وليس يعني هذا ان انعدام اشخاص الحكام يقتضي انعدام المبادىء التي يصونونها والأغراض التي يفترض وجودهم لحمايتها ؛ فان من طبائع البداوة الأولى الحفاظ على الشرف ، وقرى الضيف ، واكرام الوافد ؛ والمروءة ؛ والشجاعة ؛ غير ان هذه الصفات مجتمعة اذا ساعد على شيوعها في البيئة العربية طبع الأعراب انفسهم وجبلتهم النبيلة وحياتهم التي يسودها الكرم والعز ، والاصباح والامساء والغزو والاغتنام ؛ اقول اذا ساعد الطبع العربي

على شيوع هذه الصفات في المجتمع الجاهلي افرادياً – لو صح هذا التعبير – فانه لم يساعد على الرقي في تطبيق هذه المبادىء وجعلها قوانين لا يمكن النفاذ من طوقها ولا ينبغي تجاوزهـــا في حالتي الحرب والسلم والرفعة والهوان ، والمنعة والضعة .. وبمعنى أصح فإن العرب في جاهليتهم لم تكن لهم قوانين ملزمة وأحكام موضوعة نافذة ؛ فكيف كانت تدار أمورهم ؟ وكيف كانت تسوى خلافاتهم وهي شديدة وكثيرة ؟ وكيف كانت تحقن دماؤهم وما أكثر ما كانوا يهدرونها لأتفه الأسباب وأبسط الدواعي ؟ هذا مـــا سنلقي عليه النظر فيما يلي :

القبيـــلة

القبيلة عند العرب مظهر من مظاهر الائتلاف الاجتماعي وهي عبارة عن افراد عدة يجمعهم الانتساب الى جد واحد يتفرع منها عدّة فروع ، وقــد يحوي كل منها بضعة آلاف وهذه الفروع تسمى :

أ – البطون – ب – الافخاذ – ج – العشائر .

الحاكم

وكان حاكم القبيلة ، أو على الاصح المسؤول الاول فيها والذي يمثــل في ذاته الجهة ذات الصلاحية في سن القوانين وحمايتها وتطبيقهــا ؛ والذي كان يحمل على عاتقه مسؤوليات جساماً تتعدى سلطته التشريعية إلى السلطــات الاخرى كالسلطة التنفيذية والقضائية وغيرها ، هذا الحاكم هو «شيخ القبيلة» وهو في العادة من ذوي اليسار والشجاعة ورفعة المحتد ؛ ومنعة الجانب .

صفات الحاكم

وكان « شيخ القبيلة » عندهم لا يعدو أن يكون فرداً منهم ليس بينهم وبينه أي فرق في الخلق وإن كان المفروض فيه أن يكون أسمى من الافراد العاديين صفات وخلقاً . لذلك كانوا يراعون في اختياره ان يكون حائزاً على الصفات الآتية :

١ — السن :

فإنه في نظرهم ذو اثر فعّال في تطوير الشخصية والسمو بها ، والسنون وحدها هي التي تعطي الحكمة ، وتكسب الخبرة ؛ وعقل المسن عندهم أضبط من عقل الغرّ ، وابن الاربعين ، أرجح فكراً وأثقب نظراً وأبعد تقديراً من ابن العشرين .

٢ — الشجاعة :

وهذه الصفة في الواقع مكملة للصفة الاولى ومتممة لها ؛ إذ إن الرأي على ضرورته لا يجدي فتيلاً إذا فقدت الشجاعة ، وإن الشجاعة وحدها سلاح غير ماضٍ إذا لم يؤازرها الرأي ، ولعل المتنبي في قوله « الرأي قبل شجاعة الشجعان » يؤيدنا في ترتيب صفات شيخ القبيلة وتقدير الاهم فيها على المهم .

٣ — الجود :

فإن صفة « الرعاية » الملتصقة بشيخ القبيلة تجعله محط انظار المعدمين — وما اكثرهم — وتجعل داره محط رحال الاضياف والقادمين ، وما أكثرهم ايضاً في بلاد يندر فيها طول المكث في مكان واحد ، ويشيع فيها السفر

والترحال طلباً للرزق وطمعاً في الغنيمة . و « شيخ القبيلة » إذا كان بسنه يمثل عراقتها وحكمتها ، وبشجاعته يمثل تفوقها وإقدامها فإنـه بجوده يمثل مروءتها وشرفها .

٤ – البلاء في خدمة القبيلة :

وهذه الصفة الاخيرة هي في الحقيقة « المؤهـلات » او على الاصح « الكفاءات » الفعلية التي يقدمها المرشح للرئاسة ، ولا محيد له عن حيازتها حتى يتسنم عرش القبيلة وينتزع رياستها ، ويأخذ بيده مقاليدها .

القانون

أما القانون او اي لفظ آخر يقصد به تحديد العادات والتقاليد وأصول التعامل بين الافراد والجماعـات فلم يكن له وجود – كما ألمحنـا من قبل – حسب مفهومنا الحديث عن القانون المقرر والمكتوب والمتفق عليه والمتعارف على تنفيذه والارتباط بمواده وبنوده .. هذا القانون لم يكن موجوداً البتة ، غير ان الطريقة التي كانت تسن بها العقوبات وتتبع التقاليد كانت « العرف » وهو ما كان يقوم عندهم مقام القانون عندنا . ولسنا الآن في مجـال التحري عن سيئات هذه الحالة الاجتماعية .

نظام الشورى

ولا بد من الاشارة الى ان « الديكتاتورية » أو الرأي الواحد ، لم تكن النظرية السائدة في عرف القبيلة بالرغم من ان شيخها واحد ، وانـه محل ثقتها ومحور آمالها وان احكامه لا مجال لاستئنافها او تبديلهـا ، أجل لم تسيطر فكرة الرأي الفرد على عرف العرب ، بل إن شيخ القبيلة عندهم كان يجمع من حين لآخر رؤساء العشائر وهم الذين كان يتـألف منهم شبه

مجلس شيوخ القبيلة ، وكانوا يتدربون على الشؤون الكبرى ويتناقلون فيهـا الرأي ويتبادلون المشورة ، وكان لهم وحدهم الفصل في الامور المهمة كإعلان الحرب او اقرار السلم ، أو تقرير الشؤون التي تمس نظام القبيلة .

حرية الفرد

« كان العربي حراً حرية تحدهـا بعض القيود التي لهـا ارتباط بتقاليد الشرف ، وحفظ الذمار وغيرها .. أما فيما وراء ذلك فلم تكن القبيلة ولا شيخها يتدخلان في حرية الفرد ، اللهم إلاّ إذا وقع من أحدهم مـا يخشى منه على سلامتها فإنها حين ذلك تمنح لنفسها بعض الحقوق الاستثنائيـة التي تشبه « حالات الطوارىء اليوم » فتقتل وتصادر وتنفي وتطارد » لاحظ ص ٦ – ١١ من الاسلام نظام انساني .

القضاء

القضاء في الجاهلية :

« ولم يكن عند العرب في الجاهلية سلطة تشريعية تسن لهم القـوانين ، بل سادت عندهم العادات والتقاليد ، وكان شيخ القبيلة يحكم بين افرادها وفق هذه العادات والتقاليد .

● حكم العرافين : وكان احتكام العرب إلى الكهان والعرافين، والكاهن هو الرجل الذي يعتقد الناس ان له تابعاً من الجن يطلعـه على كل شيء ؛ والعراف هو الذي يعرف الامور عن طريق الفراسة والقرائن وذلك بملاحظة نبرات صوت الشخص وملامحه وحركاته عند التكلم ، كذلك كانوا يحكمون

بالقرعة التي اقرها الإسلام ، كما كانوا يعتمدون في إثبـــات الواقعة على شهادة الشهود » .

ثم لاحظ ص ١٤٤ — ١٤٥ من كتاب
الأسلام نظام انساني
للدكتور مصطفى الرافعي

سُلطان العادة والعُرف
في العهود الاقطاعيّة

.. أجل كان للأعراف القبلية والعـادات الاقليمية والتقاليد الاجتماعية شأنها واثرها لدى الحكام الاقطاعيين في العهود المتخلفة كعهد المماليك وعهد العثمانيين وخصوصاً في الأرياف النائية حيث كان الحاكم الإقطـاعي يرجع الى هذه الأعراف في العادات والتقـاليد كقانون محترم في الكثير من الأمور والمشاكل إلا فيما كان يسخط الولاة والنواب والسلاطين كالتهاون في تسديد أموال الميري والضرائب المفروضة ، او التعدي على موظفي الدولة او التهاون عما يخالف أوامر الولاة ونواهيهم .

ولو ان تلك الاعراف والعادات والتقاليد كانت منسقة ، ومدونـة او محددة حسب الظروف والبيئات لهان الأمر على الحكام في فصل المنـازعات وتصريف الأحكام على مجراها ومقتضاها بدون تردد او تعسف ؛ ولهان على الناس أن يعرفوا بعض واجباتهم منها وأن يتجنبوا مغبـة التحكم الفردي وتناقضاته وغرائبه بيد ان جل هذه العادات والتقاليد والاعراف ظل مهملاً متفاوتاً بتفاوت الأزمنة والامكنة والاعتبارات الا فيما ندر من ذلك كهذه الاصطلاحات والعادات والتقاليد المروية عن عهد المماليك في سورية ومصر .

الاقطاعات وشروطها وتقاليدها في دولة المماليك [٧]

كان الاقطاع او الاقطاعة ، عبارة عن أخاذة من الارض تهبها الدولة او السلطان للأمراء أو الفرسان بموجب مرسوم او قرار او « منشور » فتصبح ملكية خاصة بهم لا وراثية في الأصل يشترط غالباً ان تكون صالحة للزراعة وتساعد الامير او المقدم او الشيخ على ممارسة حياة يومية تتفق مع مركزه الاجتماعي . ومساحة الاقطاعية او الاخاذة تتعلق برتبته الموهوبة إليه سواء كانت عسكرية او نابعة من التحدر السلالي الارستقراطي . وقد تكون في بعض الأحيان مجزأة في عدة مناطق . وعلى المستفيد منها أن يدفع في كل عام ضريبة او رسماً معيناً . أما هدف دولة المماليك في أوائلها من منح هذه الأقطاعات اللاوراثية ، فهو محاربة التأثير الايوبي ولا سيما الصليبي الذي كان يجعل الأخاذات الاقطاعية ، وراثية ، ويشترط في الافراد الذين يمنحون الاقطاعات ، أن يكونوا من المقربين للسلطان او لنوابه في « الممالك » او النيابات ، يعني ان يكونوا من الذين يسيرون على سياسة السلطان ويدافعون عنه .

الاقطاعية العسكرية في عهد المماليك

تقسم الاقطاعية العسكرية في عهد المماليك إلى عدة أقسام :

اولا : مماليك السلطان : أو « المماليك الملكيون » [1] ، وهم ملك للسلطان ويشكلون حرسه الخاص الذي تطور إلى جيش يخصه شخصياً ويقبض عليه بكلتا يديه ، واذا ظهر فيه ضباط سموا بال « خاصكية » (الأمراء الكبار) . وكان يمنح كلا من جنود او فرسان هذا الجيش اقطاعة صغيرة ، ومرتباً شهرياً يسمى « جامكية » ، ومؤناً وكسوة لعيالهم وعلفاً لخيولهم ، وتدفع الجامكية من ايراد احدى اقطاعات السلطان الخاصة ، وعندما لا يكفي هذا الإيراد تكمله الضرائب المفروضة على المكلفين واقطاعات الحكام [2] .

ثانياً : جند الحلقة او اجناد الحلقة ، ويشكلون مع تطور هذه المؤسسة على مرور الايام ، النواة الاساسية للجيش و « يأتمرون بإرادة السلطان دون أن يكونوا ملكاً له » [3] . ويتمتع هؤلاء الفرسان أيضاً ، بإقطاعات صغيرة ويقسمون إلى فرق مؤلفة من ألف فارس ، وعلى رأس كل فرقة ، أمير ، وهو لقب عربي انما يحل محل الألقاب التركية العسكرية: بك أو آغا. ويعطى كذلك لقب أمير لمن كان تحت امرته كوكبة اعضاؤها خمسة فرسان وما فوق .. وقائد الألف يهبه السلطان اقطاعة كبيرة .

ثالثاً : مماليك الأمراء وهم ملك للأمراء وحرسهم الخاص ونواة عسكرية.

---

(١) ا. ن. بولياك – الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان صفحة ١٧ تعريب عاطف كرم . منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٩ .

(٢) ا. ن. برلياك – الاقطاعية في مصر وسورية ولبنان صفحة ٢٣ – ٢٤ .

(٣) ا. ن. بولياك – الاقطاعية في مصر وسوريا ولبنان صفحة ١٧ .

يحاول بواسطتها الأمير او الامراء ان يكتلوا حولها قوى تستطيع في ظرف مؤات حملهم إلى القيادة العليا وحتى إلى عرش السلطنة .

ومنذ السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ – ١٣٩٨) ، وهو اول سلاطين السلالة الشركسية ، بدأ الامراء والنواب (حكام الممالك او النيابات) يحتالون ويخادعون ويشترون هبات (إقطاعات) فرسان الحلقة او ينتزعونها بشكل او بآخر من يد السلطان لتسليمها إلى مماليكهم او خصيانهم ، حتى ان المملوك التابع للأمير ، استطاع أن يكون جندياً في الحلقة ، ومملوكاً للسلطان ، مع بقائه مملوكاً للأمير . وهكذا كان المملوك بفضل مخادعة الأمراء الكبار يقوم بوظائف ثلاث ولكن السلطان المؤيد شيخ (١٤١٣ – ١٤٢١) وضع حداً لهذا الواقع [١] .

على ان هذه الاقطاعات لم تكن وراثية كما كانت الحال في القرون الوسطى في اوروبا ولا سيما في فرنسا . وعندما يتوفى واضع اليد عليها ، يسترجعها السلطان ويهبها إلى أمير عسكري آخر . فيشطب « ديوان الجيش » اسم المتوفى ويستبدله باسم الموهوبة اليه مجدداً . وكذلك عندما يتوفى امير الخمسة او العشرة مماليك (وأهمية الاقطاعة توازي أهمية الرتب العسكرية)، يحق للسلطان ان ينقل اقطاعته إلى اولاده وإن أمير الاربعين والثمانين مملوكاً (جنوداً او فرساناً) وهو غالباً أمير طبلخانة (الطبول والزمور) وله الحق أن تصدح الموسيقى لشخصه ، يمكن أن يصبح كاشفاً بمعنى حاكم منطقة . أما أمراء المئة وما فوق ، فيمكن أن يصبحوا أكفاء للوظائف الرفيعة للدولة ، والذين يقودون الالف او الآلاف ، فيسمون مقدمي الألف او الآلاف ، ومن الممكن ان يقلدوا قيادة الفيالق Régiments . أما عدد

---

(١) غودفروا ديومبين – سوريا في عهد المماليك – بالفرنسية . المجلد الثالث – الصفحة ٣٢ – ٣٣ من التوطئة ، باريس ١٩٣٣ .

الأمراء في الفئة الدنيا ، فكان يتبدل حسب اهواء السلطان[1] . وعلاوة على الإقطاعات ، كان للأمراء ايضاً « نفقة يتقاضونها قبل ذهابهم الى ساحة الوغى » [2] .

وجه الشبه بين اقطاعية المماليك والاقطاعية الغربية

ثمة تشابه بين النظام المملوكي الإقطاعي وبين النظام الاقطاعي في الغرب ينحصر في أن كل امير ملزم بأن يكون تحت تصرفه جيش يعيش من مردود اقطاعه [3] .

وهذا الجيش الاميري الاقطاعي مرتبط بالتنظيم المركزي العسكري بواسطة ديوان الجيش ، واسماء جنوده مسجلة في ربائد الديوان يقرر عددها اهمية الرتبة التي تظهر من اللقب الذي يحمله الامير القائد . وليس من المستغرب ابداً أن تطرح قضية توريث الاقطاعات كما طرحت وحلت في الغرب . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول ان الامتيازات المهيئة للوراثة بدأت منذ زمن نور الدين محمود زنكي ، اذ عند وفاة احد الجنود ، كانت تترك احياناً لابنه الهبة الاقطاعية برضى السلطان ، ولكن تعطى باعتبارها « تحبباً او تصبباً لا اقطاعاً » [4] . أما من الناحية الرسمية فعندما يعطى الاقطاع إلى زمن معين ويتوفى صاحبه قبل انتهاء المدة ، يرجع الإقطاع الى بيت المال ويسجل التغيير الطارىء في ديوان الجيش .

---

(١) غودفروا ديومبين : مصدر مذكور صفحة ٣٧ من التوطئة .

(٢) بولياك : مصدر مذكور صفحة ٢

(٣) غودفروا ديومبين مصدر مذكور صفحة ٣٧ من التوطئة .

(٤) المصدر مصدر مذكور صفحة ٤٦ — من التوطئة .

ويقول المستشرق الالماني س. بروكلمن الاستاذ في جامعة هال : « ان الطبقة القائدة المملوكية تعيش على اقطاعات غالباً ما تكون شاسعة ، لا يمكن على كل حال تطويرها إلى ملكيات عائلية لأن المماليك لا يقرون بالوراثة في نظامهم . فعند وفاة واضع اليد على الاقطاعة ، يتوجب على خلفائه أن يؤدوا لبيت المال الذي يشرف على دوائر خاصة تتعلق بهذا الأمر ، المبالغ الواجب دفعها مقدماً والتي تعادل الزمن الذي قطعته الوفاة قبل انتهائه ، على أن مرسوماً او قراراً خاصاً ليبّن قساوة هذا التدبير . ومن الواضح ان الفلاحين العاملين على أراضي هذه الاقطاعات والذين لا يحق لهم هجرها ، كانوا يقعون بدون رحمة ضحية تعسف القائمين عليها . وفيما يتعلق بالاقتصاد العام يجب كذلك اضافة ضرائب قسرية لا عد لها [1] تقصم ظهور العاملين في الإقطاعات ، ولكن ، منذ القرن الرابع عشر ، كما يقول شهاب الدين بن فضل الله العمري (توفي سنة ١٣٤١) [2] في الصفحة ٣٥١ من مؤلفه « مسالك الابصار في ممالك الامصار » :

« عادة يرث الإبن عن والده ، والأخ عن أخيه ، وابن العم اللزم عن ابن عمه اللزم ، وينتج عن ذلك غالباً ، عند وفاة صاحب الهبة ، اذا رغبنا في أن نسحب من اضبارته صك الهبة لتمنح لشخص غريب عن العائلة ، أن يبرز احد اقرباء المتوفى ويقدم استدعاء يذكر فيه حقه بالهبة التي كانت تخص قريبه ، فترجع اليه [3] . وليس يعني ذلك ان الاقطاع اصبح وراثياً بصورة

(١) س. بروكلمن « تاريخ الشعوب والدول الاسلامية » الترجمة الفرنسية ، صفحة ٢٠٤ باريس ١٩٤٩ .

(٢) هذا الاسم والكنية وتاريخ الوفاة استعملها المستشرق ديومبين في الصفحة ٤ من توطئة كتابه المذكور . ولكن الدكتور فيليب حتي يسحبه فقط من « ابن فضل الله العمري » . ويقول انه توفي سنة ١٣٤٩ في موجة الطاعون في بلدة دمشق بعد أن عاد اليها من الديار المصرية ، وذلك في الصفحة ٢٩٥ من « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » الجزء الثاني .

(٣) غدوفروا ديومبين : مصدر مذكور صفحة ٤٦ — ٤٧ من التوطئة .

ميكانيكية وتلقائية ينتقل من الوالد إلى الإبن ، بل ان ما يقوله العمري ، يظهر لنا ان النزعة نحو الوراثة الإقطاعية شقت طريقاً من الصعب الرجوع عنه [1].

(١) مجلة الطريق — العدد الثامن — السنة ٢٨ — صفحة ٤٣ — ٤٥ .

الأنظمة والتقاليد المرعية
في العهد العثماني الأول

ولما كان النظام والتشريع في الدولة يصوّر عادات الأمة وتقاليدهـــا ومعتقداتها ، ويترجم مظاهر الحياة الاجتماعية الموروثة، ويصوغها في أحكام إلزامية أو شبه إلزامية يكون تطبيقها العملي دليلاً من الأدلة على مستوى المعيشة ودرجة الحضارة [1] .

وكان من التقاليد والأنظمة الاقطاعية المأخوذة بعين الاعتبار من ابتداء عهد العثمانيين الأول في سوريا ولبنان .. هذه الانظمة والتقـاليد التي يرويها الاستاذ ساطع الحصري في كتابه (البلاد العربية والدولة العثمانيـــة) .. أتقدم للقارىء الكريم بصورة موجزة منها :

تقسيم المقاطعات

كان العثمانيون عندمـــا يستولون على قطر من الأقطار يحصون القرى الموجودة فيه ثم يقسمونها الى مقاطعات بعضها صغيرة وبعضها كبيرة ويمنحون

(١) عن الاوضاع التشريعية للدكتور صبحي المحمصاني .

المقاطعات الصغيرة الى النابهين من الجنود المحـــاربين والكبيرة الى القواد والأمراء ، وذلك بعد ان يخصصوا طائفة من المقاطعات الكبيرة للسلطان .

انواع المقاطعات ودرجتها

كانت المقاطعات تقسم الى ثلاثة أنواع :

أ — المقاطعات الصغيرة وهي التي يقل واردها عن عشرين ألف آقجة : وتسمّى تيمار[1].

ب — المقاطعات المتوسطة وهي التي يتراوح واردها بين ٢٠٠٠٠ آقجة ، وبين ١٠٠٠٠٠ آقجة ، وتسمى (زعامت) .

ج — المقاطعات الكبيرة وهي التي يزيد واردهـــا على ١٠٠٠٠٠ آقجة وتسمى (خاصة) . وظل هذا التقسيم معتبراً الى آخر عهـد الامير بشير شهاب الثاني .

(كما يتضح من مراجعة تاريخ الغرر الحسان م ٣ ص ٥٤٤—٥٤٩) .

منح المقاطعة غير التمليك

إن منح مقاطعة من المقاطعات الى شخص من الأشخاص ، ما كان يعني

---

(١) لاحظ ص ٨٣ من خطط الشام ج ٥ لمؤلفه الاستاذ محمد كرد علي لتعرف : ان قيمة البارة الواحدة ثلاث اقجات ، وقيمة الغرش اربعين بارة ، والكيس خمسماية قرش صاغ ، او لتعرف انه في سنة ١٠٩١ هـ قر الرأي بأن يحسب كل اربعين بارة قرشاً ، وان البارة كانت تساوي ثلاث اقجات ، وان استعمال البـــارة لم يشتهر الا في سنة ١٠٦٦ هـ وان قيمة القرش العثماني في القرن الثامن عشر كانت تساوي خمسة فرنكات فرنساوية من فرنكات ذلك العصر .

ثم لاحظ ص ١٥١ من (الدراسات الادبيـة) السنة التاسعة العدد ١ — ٢ حيث يقـول المعلق على هامش الصفحة « ان الآقجة وحدة نقدية تزيد قليلا عن ثلث درهم من الفضة » .

تمليكه القرى والأراضي التي تؤلف تلك المقاطعة وإنما كان يعني تفويضه حق جباية الأعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها ، وكانت الاراضي والقرى والمزارع تبقى تحت تصرف مالكيها والعاملين بها على أن يدفعوا الضرائب التي تفرض عليها الى صاحب المقاطعة او من يوكله لتسلمها .

تقسيم البلاد ادارياً الى ايالات ثم الوية ثم مقاطعات

ثم كانت البلاد تقسم إدارياً وعسكرياً الى (إيالات) والايالات الى (ألوية) أي (سناجق) وكان كل لواء من الألوية يضم مقداراً من الـ « تيمار » ات، أو الـ « زعامت » ا ت .

وكان يعهد بشؤون الايالة الى (باشا) يسمى (بكلربكي) بمعنى (بك البكوات) ويعتبر برتبة (مير ميران) بمعنى « امير الأمراء » . ويعهد بشؤون اللواء الى (بك) يسمى (سنجق بكي) بمعنى (بك اللواء) ويعتبر برتبة (مير لواء) بمعنى (امير اللواء) .

وكان يخصص لمنصب كل ايالة من الإيالات وكل لواء من الألوية مقاطعة بدرجة (خاص) ويترك باقي المقاطعات بدرجة (زعامت) أو (تيمار) تلزّم وتضمن لزعماء البلاد (المقاطعجية) .

واجب المقاطعجي جباية الاموال واعداد المحاربين

ومقابل ذلك كان يفرض على اصحاب المقاطعات المذكورة ان يكونوا دوماً على استعداد للحرب وان يتولوا اعداد عدد من الخيالة والفرسان المحاربين ، وان يجهزوهم بكل ما يحتاجون اليه من أسلحة وخيول بنسبة فارس واحد عن كل خمسة آلاف آقجة من حاصل المقاطعة . فاذا كان

حاصل المقاطعة قد سجل بأربعمائة ألف آقجة — مثلا — كان على من تفوضها أن يعد ويجهز ثمانين فارساً محارباً .

واجب امير اللواء

وكان يعتبر (بك السنجق) آمراً ومرجعاً لجميع التيمارات والزعامات الداخلة في حدود اللواء ، فإذا طلبت الدولة تسفير الجيوش للحرب في جهة من الجهات جمع البك الخيالة المترتبة على (الخاص) المخصص لمنصبه مع الخيالة المترتبة على التيمارات والزعامتات التابعة للوائه ثم توجه بهم الى حيث يأمره الـ (بكلربكي) .

واجب الباشا

وكان البكلربكي (الباشا) يتصرف بالخاص المخصص له (سنجق الباشا) ويجهز ويعد الخيالة المترتبة على ذلك الخاص . فضلاً عن انه يأمر ويوجه الخيالة الذين يجهزهم أمراء الألوية وأصحاب التيمارات والزعامتات التابعة لجميع ألوية الايالة .

راتب الباشا وامير اللواء

يظهر مما تقدم ان أمراء الألوية والايالات وكذلك سائر الموظفين ما كانوا يتقاضون من خزينة الدولة رواتب مقننة ، إنما كانوا يتقاضون الضرائب والتكاليف المخصصة لوظيفة الايالة او اللواء . ولا حاجة الى القول بأنهم كانوا يعينون (متسلمين) يتولون جباية الضرائب باسمهم كما ان كل متسلم كان يستعين بخدمات طائفة من أهل البلاد واعيانها في أمر توزيع الضرائب وتثبيتها وجبايتها . وكان هؤلاء يكونون طبقة خاصة يخدمون الولاة والمتسلمين الذين يتوالون على كرسي الحكم في الايالات والالوية .

راتب بعض الولاة من الخزينة

غير ان بعض الألوية والايالات كانت تستثنى من هذا النظام العام فيخصص الرؤسائها رواتب مقننة يتقاضونها من خزينة الدولة مباشرة ، وكانت امثال هذه الرواتب المقننة تعرف باسم الـ (ساليانه) اي النقدي .

الجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية

يلاحظ مما تقدم ان الأمور الادارية ما كانت تفصل عن الامور الحربية وكان أمراء الايالات والألوية يجمعون بين ايديهم السلطتين المدنية والعسكرية فكانوا بمثابة : ولاة حكم ، وقواد جيش . وبتعبير آخر : رجال ادارة ، ورجال جيش في وقت واحد [1] .

الشؤون العدلية للقضاة الشرعيين

أما الشؤون العدلية فكان قضاة الشرع بوجه عام يشكلون المحاكم العادية في تاريخ الخلافة العثمانية حتى سنة ١٢٥٦ هـ وكان يرأس هذه المحاكم نواب الشرع الذين يعينهم شيخ الإسلام إذ كان يشرف على جميع المفتين وقضاة الشرع في جميع اقطار المملكة العثمانية وكان القضاء الشرعي يطبق الاحكام الشرعية وفقاً للمذهب الحنفي الرسمي مبدئياً ، راجع « الأوضاع الشرعية للمحمصاني ص ١٧٦ » .

تقسيم الالوية حسب تعدد القضاة

وكانت الالوية تقسم — من هذه الوجهة « الى أقضيـة » ينصّب لكل

(١) راجع ص ٢٩ — ٣٢ البلاد العربية والدولة العثمانية .

قضاء منها (قاض) أو (نائب قاض) ،

ولذلك كان في كل المدن تقريباً قاض او نائب قاض وفضلاً عـن ذلك كان في عاصمة الدولة مناصب دينية عليا يسمى أصحابهـا « قاضيعسكر » و « أمين فتوى » و « شيخ الاسلام » .

النظام العرفي للعشائر

أما العشائر فكانت تترك خارج الترتيبات الادارية التي ذكرناها آنفـاً وكانت شؤونها تدار من قبل شيوخها وامرائها وفقاً للعـــادات والتقاليـد والعنعنات المتعارفة بينهم وكانت الدولة تعترف بسلطة هؤلاء وتصدر الأوامر والمناشير اللازمة عند توليهم المشيخة او الامارة وفقاً لتقاليدها .

سلطة علماء الدين المعنوية

كان السلاطين يستشيرون رجال الدين في كثير من الامور ويحاولون أن يدعموا أعمالهم ويبرروا تصرفاتهم بفتاوى شرعيـــة يستحصلون عليها من هؤلاء .. ولهذا السبب كان علمـــاء الدين يتمتعون بسلطة معنوية كبيرة ويقومون بدور فعّال في شؤون الدولة .

علماء الدين آلة لاستبداد السلاطين

كان السلطان العثماني يتمتع بسلطات مطلقة لا يحدها حد والأمر الذي يصدر من بين شفتيه كان يكفي لإعدام الاشخاص ومصادرة اموالهم دون محاكمة وسؤال ..

بيد ان أعماله في الظاهر كانت تبدو مقيدة — بصورة نظرية — بأحكام الشريعة الإسلامية ، لأن رجال الدين قلما كانوا يتأخرون عن إيجاد الأحكام

وإصدار الفتاوى التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على أوامرهم وتصرفاتهم صفة (الشرعية) .

مثلا ، عندما قرر السلطان سليم الأول محاربة الشاه اسماعيــل الصفوي وأمر بقتل جميع الشيعة الموجودين في البلاد العثمانيــة استند على « فتوى » صادرة من رجال الدين تعتبر هؤلاء مرتدين عن الاسلام .

ولذلك نستطيـع أن نقول : إن سلطة السلطان كانت مطلقــة بصورة فعليــــة .

استبداد البشوات

ومن الغريب أن البشوات كانوا كذلك مطلقي التصرف إذ كانوا يتمتعون — بصورة فعلية — بسلطة إعدام الإشخاص ومصادرة الأموال ويصطنعون نفس الوسائل الدينية التي كان يصطنعها السلاطين .

دولة عسكرية ، دينية إقطاعية

هذه هي الخطوط الأساسية لنظام الحكم عندما بدأ العثمانيــون يستولون على البلاد العربية ؛ وإذا أردنا أن نلخص هذه الاوضاع استطعنا أن نقــول ان السلطنة العثمانية كانت دولة « عسكرية دينية اقطاعيــــة » من نوع خاص [1] .

ايالة الشام في اوائل القرن السابع عشر

يتبين مما جاء في رسالة (قوانين آل عثمان) لمؤلفها « عين علي افندي »

---

(١) راجع البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٩ — ٣٤ .

أمين الدفتر الخاقاني بتاريخ ١٠١٨ هـ ١٦٠٩ م : ان الدولة العثمانية كانت تقسم الى ٣٢ ايالة ١٤ منها عربية ، ومن الايالات العربية :

ايالة الشام

وكانت هذه الايالة تشتمل على ١١ لواء يتصرف امراء ثمانية سناجق منها كل واحد بمقاطعة من درجة (خاص) وامراء ثلاثة منها يتقاضون (ساليانه) أي راتباً نقدياً ، كما ان الايالة كانت تضم ١١٢ مقاطعة من درجة (زعامت) و ٨٦٨ مقاطعة من درجة (تيمار) .

يبلغ مجموع العساكر المفروضة على أصحاب هذه المقاطعات ٢٦٠٠ خيالاً وأما مجموع (حاصل المقاطعات) المذكورة يبلغ ٦،٥٥٨،٦٠٠ آقجه .

لواء دمشق

مخصصات سنجق الباشا — مقـــاطعة خاصة — ١،٠٠٠،٠٠٠ آقجه . عدد الخيالة المفروضة عليه ٢٠٠ وكان عدد المقاطعات التابعة لهذا اللواء ٨٧ مقاطعة زعامت و ٣٣٢ مقاطعة تيار .

لواء صفد

كان مرتباً لأمير لواء صفد مقاطعة (خاص) ٣٦٣،٨٠٠ آقجه ، وكان عدد الخيالة المفروضة على مير اللواء ٧٤ خيالاً ، وكان يتبع لهذا اللواء خمس مقاطعات من درجة (زعامت) و ١٢٣ مقاطعة من درجة (تيار) وكانت مقاطعات بلاد بشارة الجنوبية تابعة لهذا اللواء كما يتضح من تاريخ الصفدي .

العادات والصلاحيات
في بقية العهود الاقطاعية

قد يكون من التيسير لفهم تاريخنا في العهود الاقطاعية فهما صحيحاً أن ألخص واضيف الى ما تقدم في كتبي من ابحاث تاريخية ، بعض ما سجّله المؤرخون واصحاب الرحلات عن العادات والتقاليد والاوضاع الاجتماعية .. ليستكشف من خلال ذلك العادات والتقاليد والاخلاق التي كانت تسيطر على حياة العاميين واوضاعهم ثم لا يزال اثرها مستحكماً في نفوسهم .

وقد يقتضينا التمحيص الدقيق ان لا نفرق في ذلك بين عهد وعهد لان العهد الاقطاعي في ايام العثمانيين لم يكن عهد تطور وتجديد ؛ وانما كان عهد جمود واتباع وتقليد في جميع مظاهر الحكم وأساليبه ووسائله ، لهذا نستطيع ان نقول بأن الانظمة والتقاليد والعادات كانت في جميع ادواره ومناطقه السورية واحدة لا يختلف ما كان منها في عهد الأمراء المعنيين عما كان منها في عهد الامراء الشهابيين والشيخ ظاهر العمر[1] كما نستطيع ان نجزم بان ما كان يتبع في زمن الامير بشير الشهابي هو عين ما كان يتبع في عهد الامير

---

(١) لاحظ ص ٦٠٣ ؛ م (٣٠) من مجلة المشرق البيروتية .

فخر الدين المعني ؛ وقد لا نخطىء اذا روينا اخبار هذه العادات والانظمة والتقاليد التي تؤثر عن عهد الامير بشير شهاب الكبير وما قارب واعتبرناها صورة صحيحة مطابقة لكل ما تقدمه من عهود ، او روينا ما كان من اخبارها في عهد الامير فخر الدين المعني واعتبرناه صورة صحيحة مطابقة لكل ما جاء بعده من عهود الاقطاع حتى عصر ابراهيم باشا ، والامير بشير ولم يميز القديم منها والجديد لان الفارق بينهما لم يكن الا شكلياً يزول لدى التطبيق وأساليبه المتحدة في عنفها وجورها واستبدادها .

الايالات في سورية

من الواضح المشهور انه كان من قواعد الدولة العثمانية اذا فتحت البلاد أن تولي امورها الكبرى لولاتها وقضاتها، والصغرى لابناء البلاد وتلقي حبلها على غاربه لا تهتم لتنظيمها اهتمامها لفتح جديد [١] .

وكانت بلاد الشام في العهد العثماني تنقسم الى ثلاث ايالات حلب في الشمال، ودمشق في الجنوب ، وتشمل بعض الساحل ، وطرابلس وتمتد على ما بقي من الساحل ؛ وتقسم الايالة الى الوية ، وعلى رأس كل لواء سنجق دار ، أي أمير السنجق وصاحبه :

وفي نهاية القرن الثامن عشر أصبحت بلاد الشام خمس باشوبات دمشق الشام (١) صيدا (٢) فلسطين (٣) طرابلس (٤) حلب (٥) عدا ايالة تدمر، وأيالة عجلون (في شرق الاردن) ؛ وكان يعهد اليهما في حفظ التخوم من عدوان البدو [٢].

---

(١) لاحظ ص ٢٥٣ من خطط الشام ج ٢

(٢) لاحظ ص ١٣٩ من كتاب مع التاريخ العاملي .

الرتب العالية في العهد العثماني

يقول المعلم ابراهيم العورة « كانت الرتب العالية في السلطنة العثمانية قديماً قبل سنة ١٢٤٨ هـ على اربع درجات : الاولى الوزراة العظمى (اي رئيس الوزارة) وصاحبها له ثلاثة اطواخ[1] او سناجق ؛ والثانية : المير ميرانية ، (أي أمير الأمراء) وصاحبها له ثلاثة اطواخ او سناجق ولقبه (باشا) وقد يكون له لقب (بيك) وطوخان فقط ؛ والثالثة ؛ قبوجي باشي (رئيس البوابين) ومنهم السفراء والرجال الذين يعتمد عليهم بقضاء بعض المصالح : والخدم السلطانية ؛ والرابعة : رتبة الخواجا للفقهاء ورجال العلم ، وأصحاب القلم ؛ ورتبة المير ميرانية الخاصة ببيك الروملي هي من الدرجة الثانية كانت خاصة بالحكام الذين يتولون من قبل السلطان بلاد الترك في في اوروبا ، التي كانوا يطلقون عليها اسم بلاد الروملي (بلاد الروم) ولذلك دفع سليمان باشا (والي عكا بعد ذلك) المال الذي يدفعه عليها للسلطان سلفاً دفعة واحدة خمسماية كيس وكل كيس كان يعتبر خمس ماية قرش » .

---

(١) الطوخ ؛ علم او سنجق مؤلف من شعر الخيل ، وذلك بان تأخذ خصل من ذيول الخيل الزرقاء وتربط بتنسيق دقيق في رأس عود من الخيزران او غيره ، ثم يرفع امام موكب الوزير والباشا كما ترفع الخيل ذيولها وهي غائرة . والطوخ بمعناه الاصلي في اللغة التركية (ذيل الفرس) .

صلاحية الوالي وعادة الولاة

يقول فولني :

« الوالي هو نائب السلطان و « الملتزم » العام[1] للإيالة .

والوالي حاكم مطلق السلطة ، وملتزم عام ، فهو يدفع سنوياً إلى الباب العالي مبلغاً ثابتاً قدره سبعمائة وخمسون كيساً . وفضلاً عن ذلك ، عليه أن يموّن قفل الحجاج ، على غرار زميله والي طرابلس ، مقدماً للقفل من الأرز والقمح والشعير ما يساوي مائة وخمسين كيساً . والالتزام مدته سنة واحدة يمكن تجديدها ، وأمـــا دخله فهو : أولاً الميري او ضريبة الأرض — ثانياً : الأموال المفروضة على (مشايخ) الدروز والموارنة والمتاولة وبعض عشائر العرب — ثالثاً : المال الجزيل الذي يدخـــل عليه من التركمان ومن طريق الأتاوى والمغانم — رابعاً : المكوس الذي جعل بدل الزامها عن جميع الموانيء والخلجان الف كيس .

---

(١) الملتزم عند المولدين الشخص الذي يضمن البلد أو المقاطعة او الاعشار او غير ذلك بمال معين يدفعه للحاكم بدل ريعها . لاحظ ص ٢٢ ج ٢ من سوريا ولبنان في القرن الثامن عشر ». تعريب حبيب السيوفي .

ومما كان يأتيه ايضاً بالارباح الطائلة استغلاله الأراضي الواسعة ، وتسليفه التجار والفلاحين المال بالربا ، فما يجنيه من ذلك يربو على ثمانية ملايين قرش .

ولأولياء الامر في الاستانة خطة لا يحيدون عنها ، وهي جعـــل المال المفروض على الملتزم ثابتاً ، أي تركه بلا زيادة او نقصان مهما كثرت الارباح . ولأجل ذلك يدعونه يجمع المال بأمان واطمئنان ، حتى اذا جاءت الساعـة توصلوا ببعض الحجج الى الاتيان إما برأسه او بصندوق ماله ؟؟ (١)

عادة الولاة

يقول المؤرخون « وقبـــل تشكيل الولايات في تركيا باعلان الدستور والتنظيمات الجديدة كان يطلق اسم الوالي على كل من يلي امر الحكومـــة في البلد اجمالاً ولو كانت البلدة قرية ؛ او كما يقول جودت باشا كان (الوالي) بمقام مأمور الضابطة في البلد ، وكان صاحب الايالـــة يدعى وزيراً ونائب السلطان ، وبكلربكي (اي بيك البكوات) وكان بيده السلطة العسكرية ، والملكية ، والادارية ، والمالية ، والعدلية والجزائية لا شريك له فيهـا إلا من أحب ان يجعله تحت يده من الاتبـاع والحكام الصغـار ، ومن ثم كان أمر حياة الافراد وموتهم متعلقاً على رضاه او غضبه ، ويقـدر ان يسوق الجند لقتال من تمردوا عليه وخراب ديارهم ومحو آثارهم من الايالة(٢) .

.. وكانت العادة التي جرى عليها حكام ذلك العصر عندما يتولى أحدهم منصب الولاية ان اول عمل يأتيه اعدام بضعة من المحـابيس وتجريم البريء كي يوقع رهبته في الشعب ويريه قساوته ؛ وبدلاً من أن يطلق سراح المسجونين

---

(١) لاحظ ص ٢٢ ج ٢ : من كتـاب « سورية ولبنان في القرن الثـامن عشر » تعريب السيوفي .

(٢) لاحظ ص ٩ — ١٠ من تاريخ ظاهر العمر ، للمعلم ميخائيل الصباغ .

ويتظاهر بالدعة والحلم يفتش عن المجرم او المتهم بجرم خفيف ويصـدر امره باعدامـه .

وكان الشعب ينظر الى الحاكم نظرة العبد الى سيده ولا يتجاسر على رفع نظره اليه فكانت الاهالي تحتفـل بحاكمها وتتظاهر بعبوديتهـا له وتزيد من الاطناب به قبل ان تعلم عنه شيئاً وتحرق له بخوراً وتضيء له الشموع وتزين الشوارع كما هي العادة التي لم تزل تحترم نصوصها الى يومنا هذا [1] .

اركان الحكومة واتباع الوالي

وكان للوزير (الوالي) اتباع وحاشية كثيرة من الخدم والمماليك، واولهم وأعظمهم شأناً الكتخدا ويلفظونها كيخية وهو الوكيل والمعاون له والمساعد في امور الدولة ؛ وينوب عنه اذا غاب بل يأمر وينهى بحضوره ، وهو غير الكتخدا او الكيخيـة الذي يكون وكيله وعمدتـــه في اسلام بول وينم اليه بالأخبار التي تهمه منها ، وقد جعله هناك عيناً له وجاسوساً .

وكان من كبار اتباع الوزير الصراف فانه يحضره معه من اغنياء الارمن واليهود البارعين بالحسابات ويفوض اليه النظر بتحصيل وتوريـــد الاموال للخزينـــة .

ومن كبارهم كاتب الديوان التركي ويدعى رئيس الديوان ، يختاره الوزير غالباً من كتاب الأتراك البارعين بحسن الخط والانشاء بالتركي ويقلده تحرير الكتابات للباب العالي وغيره من وزراء الدولة .

---

(١) لاحظ ص ٧٥ من مشهد العيان وص ١٤١ من كتاب مع التاريخ العاملي .

ومن رجال الايالة (اليازجي) وهو كاتب العربي يختاره الوزير غالباً ممن يحسنون الخط والانشاء بالعربي لتحرير الاوامر والمراسلات باللغة العربية.

وكان من حكام الايالة المتسلم ، وهو الحاكم من قبل الوزير في المدينة ذات الشأن ، وأصغر منه الصوباشي ، ودون الشاويش الذين يتولون الحكم من قبل الوزير او المتسلم في القرية او البلدة الصغيرة ، ولكل من هؤلاء الحكام والاتباع عمال وكتاب واتباع تحت ايديهم . (لاحظ ص ١٤١ من كتاب مع التاريخ العاملي) .

عائدات ايالة صيدا حسب رواية المؤرخين

وكان دخل وزير ايالة صيدا من أصناف الضرائب ما لا يكاد يحصى إلا على هذا النحو :

١ — مال التزام جبل لبنان ، وجبل عامل ، وبلاد صفد من المشايخ والامراء .

٢ — مال التزام الكمرك في المدن البحرية ، صيدا ، وصور ، وعكا ، على الوارد ، والصادر ، اهم الصادرات يومئذ القطن والسمسم .

٣ — مال الأعناق ، وكان يسميه العرب في صدر الأسلام مال الجزية ، وهو ما يؤخذ من اهل الذمة من النصارى واليهود ، وذلك عوضاً عن الخدمة العسكرية او حماية اموالهم وحقوقهم .

٤ — مال الباج وهو رسم خفارة الطرق من الغرباء والتجار .

٥ — مال المغارم العمومية التي يتقاضاها من جميع أهل الايالة ؛ والخصوصية التي يفرضها او يأخذها من بعض الافراد على سبيل الجزاء او على سبيل الاعانة .

٦ – دخل بيت مال المسلمين وأهم مـا فيه مخلفات من لا وارث له من اهالي البلاد ، والجند ، والحاج ، وابناء السبيل .

٧ – مـــال العوائد ، او الهدايا من الاتباع المأمورين ، ومن الاغنياء والأمراء ، والمشايخ ، وقناصل الافرنج وتجارهم الذين كانوا في الايالة بصفة مستأمنين ، فانه كان يتقاضى ذلك منهم لحق واجب عليهم . ورفض دفعه او قطع هذه العوائد صعب ، ويعد اهانة او خطأ من كرامة الوزير .

(لاحظ ص ١٥٣ من كتاب مع التاريخ العاملي)

العسكر وأوضاعه في أيالة صيدا

يقول المعلم مخائيل الصباغ :

« كان عسكر الإيالة الذي يكون عادة تحت امر الوزير خمس مئة من الخيالة وخمس مئة من المشاة ويسوغ له أن يزيده لأجل زيادة هيبة الوزير ؛ إلا انه تخفيفاً لثقلة معاشهم عليه ، فانه كان يكتفي بنصف هذا العدد اي مئتين وخمسين من الفرسان ومئتين وخمسين من المشاة .

ولم تكن ايالة صيدا فيما نرى نظير ايالة الشام وباقي ايالات الدولة فيها وجاقات من أهل البلاد من أصحاب الزعامات ، والتيمار ، او اليركية ، والانكشارية ؛ والقباقولي ، وسواهم لقلة شأن هذه الايالة ، ولعدم ثقة الوزير بالأهالي ، ومن ثم كان عسكر الايالة اخلاطاً من البلاد وعناصر شتى يجتمعون إلى وجاق (مطبخ) خاص يتناولون فيه قوتهم واليه تنسب افرادهم وتوسم على زنودهم علامته او نيشانه ، وكان لكل وجاق رئيس من افراده يتكلم بلهجتهم وله الكلمة المطاعة فيهم وبيده زمام امرهم لدى الوزير ، وهو يوزع عليهم (الجامكية) التي هي اعطيات الوزير ، وهذا الرئيس يقال له آغا الوجاق وبلوكباشي وشاويش ؛ وإذ لم يكن هذا العسكر على شيء من النظام والتربية العسكرية كان تعديهم على الاهالي مستمراً ، وكانوا

يحسبون البلاء الأعظم على أصحاب القرى والمزارع الذين لم يكن لهم من القوة ما يدفع عنهم تعدي هؤلاء ؛ ولهذا كانوا بنظر الأهالي مكروهين محتقرين حتى كان يضرب المثل بسفالتهم مما لا يزال دارجاً الى اليوم مع قولهم « فلان مثل عسكر الدولة ملحو على زيتو » اي لا ذمة له ولا عهد ولا يذكر الخبز والملح بفيه [1].

اوضاع العسكر في ايالة صيدا

ويقول الرحالة فولني « ولكثرة ما عانى الحكام من المتاعب من جنود الانكشارية وضباطهم (الوطنيين) اتخذوا جنوداً من الغرباء الذين لا اقرباء لهم في المنطقة ، وهم صنفان ؛ مشاة وفرسان ، ويعدون الفرسان وحدهم رجال حرب ، ويدعونهم (دولة) أو (دلاتي) او (دلي باش) وسلاحهم السيف القصير ؛ والغدارات ؛ والبندقية ؛ والرمح ؛ ويتعصبون بقلنسوة من اللبّاد الأسود اسطوانية الشكل ليس لها كفاف طولها نحو خمسة وعشرين سنتيمتراً فلا تقي العينين من أشعة الشمس ، وتزلق بسهولة من على رؤوس هؤلاء الناس المحلوقة .

وأما كسوتهم فهي تشبه كسوة المماليك ، لكنها أقل اناقة ؛ فثيابهم البالية وأسلحتهم الصدئة وافراسهم المتباينة القد واللون تجعلهم يشبهون اللصوص والحقيقة ان بعضهم كانوا في الأصل لصوصاً ، وظلوا لصوصاً حتى بعدما صاروا جنوداً .

ان أغلب الجنود الفرسان في سورية أكراد ، وتركمان ، وترمان ، قتلوا

---

(١) لاحظ ص ١٠ – ١٤ من تاريخ ظاهر العمر . وص ١٤٣ من كتاب مع التاريخ العاملي .

ونهبوا ، وسلبوا في مواطنهم ، ثم لجأوا إلى الوالي فوجدوا في كنفه عملاً ومأوى ، وفي جميع انحاء المملكة يتألف الجيش من افراد على شاكلتهم ، وبما انهم لا يتقيدون بنظام فان أخلاقهم تظل على حالها فهم آفة المدن والقرى لأنهم يتعدون على الجميع ويسلبون وينهبون لدى كل سانحة وبارحة .

اوضاع الجنود المشاة

والجنود المشاة هم أسوأ حالاً وكانوا فيما مضى يجندون من البلد ذاته الذي يقيمون فيه ، وانما في العهد الأخير أخذ فلاحو تونس والجزائر ومراكش يتوافدون على سورية للتجنيد فيها طلباً لعيشة غير متيسرة لهم في موطنهم ؛ فمن المغاربة اذاً تتألف الجنود المشاة وليس في الجنود أخف منهم ؛ إذ ما يملكون من امتعة مقصور على بندقية صدئة وخنجر وحقيبة من جلد داخلها قميص وسروال وطاقية حمراء وخفان ؛ ورواتبهم خمسة غروش في الشهر ، وأما نفقات أكلهم فالوالي يقوم بها ، فحالتهم إذاً لا بأس بها ؛ وراتب الفرسان ضعف راتب المشاة ؛ ويجري تصنيفهم على حسب الاسلوب التتري القديم فيجعلون شراذم ، والشرذمة عشرة رجال وقلما تكون كاملة العدد إذ الآغا المعهود اليه في صرف رواتبهم يبذل جهده ليحتفظ لنفسه بجانب كبير منها (وذلك) بانقاص عددهم الى اقصى حد مستطاع ، وأما الرؤساء فانهم يغضون الطرف لان جانباً من المال المختلس على هذا المنوال يعود اليهم والوالي نفسه له ضلع في الأمر لانه الشريك الاكبر ، ولئلا يضطروا الى ان يدفعوا الرواتب بتمامها يتغاضون عما يرتكبه جنودهم من الاعتداءات او يقترفون من الذنوب والعيوب » .

(لاحظ ص ٨ ج ٢ من رحلة فولني تعريب السيوفي)

أما الدكتور اسد رستم فيقول « وكان لدى الوالي في غالب الاحيان عدد من الجنود غير النظاميين (باش بزق) يتناسب ومقدرته على الانفاق ، منهم

الكردي القريب والاناضولي والارناؤوطي البعيد والمغربي وابن البـلد : فينتظمون فرقاً بتفاهم شخصي من كل فرد منهم وبين قائد فرقته ، وهـذا القائد يتولى جميع امورهم على نفقة الوالي ؛ وكان الوالي يوزعهم داخل ايالته حيث تقضي الحاجة ، فسليمان باشا مثلاً ابقى قسماً كبيراً منهم في مرجعيون نظراً لغليان جبل عامل يومئذ واخلالهم بالأمن » .

لاحظ ص ١٩ من بشير بين السلطان والعزيز

ويقول الدكتور أسد رستم نفسه « كان يحيط بالوالي في عاصمـة الايالة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التي كانت تشكل حاميـة الايالة واكثر هؤلاء من الانكشارية ، وكان لكل فرقة ضابط يسمون الوجاقلية وكبيرهم الآغا ، اي رئيس الفرقة ، ومن اجتماعهم يتألف ديوان الوالي ؛ ولهذا الديوان سلطة واسعة إذ ليس بمقدور الوالي ان يبرم امراً هامـاً الا بموافقة الأعضـاء رؤساء العساكر ، اذا وقع خلاف بينه وبينهم رفع الى الآستانه للفصل فيـه وكان لهؤلاء ان يطلبوا عزل الوالي اذا شاءوا (١) .

ومن الشواهد على نفوذ مثل هؤلاء القادة العسكريين ومدى تأثيرهم على الولاة ما يرويه المؤرخ حيدر احمد شهاب بقوله « وفي شباط سنة ١٢٠٩ هـ رجع الامـير بشير بالعسكر من المتن الى حرش بيروت ، فشكاه ساري العسكر عبدالله آغا العبد واغوات العساكر ، انه لم يؤد لهم الجزية مع انه جمع اموالاً لا تحصى من البلاد ، فحضر امر لاغوات العسكر بالقبض عليه واخذوه الى عكا ، وفي ذلك النهار القي القبض على الامير بشير واخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف واخذوهم الى عكا ، ثم أمر الباشا بوضع الامير بشير واخيه في السجن الكبير مقيداً بالسلاسل ومنع الناس من مواجهتهما » (٢) .

---

(١) لاحظ ص ١٨ من بشير بين السلطان والعزيز .

(٢) لاحظ ص ٨٧٦ من نزهة الزمان في تاريخ لبنان طبعة مصر سنة ١٩٠٤ .

مجالس الشورى وصلاحياتها

كان لكل ايالة مجلس شورى يتألف من كبار العلماء والموظفين والاعيان ويرأسه نائب السلطنة (الوالي) وله الاشراف على الشؤون المالية والادارية — ولكن اعضاءه كانوا خشباً مسندة اما لجهلهم او لخوفهم من الحاكم ، بل كان بعضهم مطية للإضرار بمواطنيهم — واما القضاء فكان منوطاً بالقضاة الشرعيين ما عدا الدعاوى الجنائية والجزائية فكانت من اختصاص الموظف المسمى (قاضي باشي) وهو من قادة الجند ، ويليه في حق استماع هذه الدعاوى (التفكجي باشي) وهم كرئيس الضابطة [1] .

هؤلاء الجماعة كانوا رؤساء القراقولات في المدن وكانوا اقواماً أميين « لا يعرفون الكوع من البوع » يحكمون بحسب ما تقودهم اليه اهواؤهم وافكارهم وكمية الرشوة التي يدفعها اليهم المجرمون [2] .

مجالس الشورى في عهد ابراهيم باشا المصري

أما مجالس الشورى في عهد ابراهيم باشا المصري فكانت كما يقول البحاثة

(١) لاحظ ص ٣٧ — ٣٨ — ١٤٢ من الحلقة المفقودة في تاريخ العرب لمحمد جميل بيهم .

(٢) لاحظ ص ٢٤ من مشهد العيان للدكتور مخائيل مشاقة .

سليمان ابو عز الدين » والف (ابراهيم باشا) في كل مدينة عدد سكانها من عشرين الف نفس فما فوق ، مجلساً ، سمي ديوان المشورة عدد اعضائه يتراوح ما بين ١٢ و ٢١ عضواً ، مراعين في ذلك عدد السكان ، وكان هؤلاء الأعضاء ينتخبون من بين أعيان البلد وكبار تجارها ، ويمثلون جميع المذاهب ، ورئيس الديوان كان من أهل البلد ايضاً ، ولم يكن هذا المجلس خاضعاً لسلطة المتسلّم وحاكم البلد .

وترتيب هذا المجلس المذكور كما يقول مؤلف حروب ابراهيم باشا في سورية .

١ – تعيين وقت معلوم كل يوم الى حضور ارباب المجلس ، وعند حضورهم يحرر الكاتب اسماءهم بغاية برتبة حضورهم لا برتبة مقامهم .

٢ – يحرر الكاتب كل يوم الاشغال الموجودة عنده ، وحين يحضر ارباب المجلس يعرضها عليهم حتى يعملوها ولا تبقى من يوم ليوم .

٣ – إذا كانت هذه الأشغال لا تنتهي في ذلك اليوم فيصير الاجتماع ثاني يوم قبل الوقت المعين بزمان كاف لتنهيها .

٤ – الاشغال المذكورة المتبقية من اليوم السابق لا تتقيد « وتسجل » في أعمال اليوم الذي تنتهي فيه .

٥ – حين يقرأ الكاتب الدعوى يطلب الجواب ممن هو خبير بها من أرباب الديوان قبل الجميع ، وبعد يأخذ رأي الباقي بحيث لا يبقى أحد بدون تكلم واذا وجد واحد من أرباب المجلس تكلم مع آخر في حديث خارج عن الدعوى ينبه عليه الكاتب اولاً وثانياً فان ما أفاد فيحرر في مضبطة المجلس ان فلان مشغول بشغل أحاديث خارجة عن المصلحة ، والكاتب لازم يحرر كما يتقرر بالمجلس ولا يترك منه شيء وكل ما يتقرر يكون مكتوباً ، ولا يتحرر إلا الذي موافق الحق .

٦ — ثم بعد نهاية المجلس وتمام رؤية المصالح التي نظر فيها واستقر الحكم عليها باستحسان الجميع يحررها الكاتب بمسودة وثاني يوم يبيضها ويوجهها لمحلاتها ، وبعد ذلك تتقيد في سجل المجلس ، وهذه الخلاصات بعد تحريرها يأخذها الكاتب كل يوم المجلس لكي بعد نهايته يقرأها باعلى « صوته » بحضور الجميع ، فان استحسنوا رأياً اوفق من الذي تقدم فيغيروا الخلاصة ، وتتقدم الخلاصات لناظر المجلس فيختمها بختم مجلس المشورة وبعد القيد تصل الى صاحب الأمر لكي يشرح عليها الى اصحابها آمراً باجراء ما يتضمن من الحكم ، واذا « ما » كان سعادة الحاكم دار ، موجوداً فيشرح من طرف متسلم آغا .

٧ — الكاتب يمسك دفترين ، الواحد إلى صورة المجلس المتضمن التقرير والآخر الى الخلاصات من بعد ختمهم ، ويلزم حفظ المسودات اليومية ضمن كيس ايضاً .

وكانت قرارات مجلس المشورة في المدن الصغيرة تستأنف لدى الاقتضاء الى مجلس مشورة عكا او مجلس مشورة دمشق ، واذا اقتضت الحال تميّز قرارات هذين المجلسين الى القاهرة ، على انه لم يرو انه حدث أي تمييز »[1] .

اختصاصات مجلس الشورى يومئذ

يقول الكاتب نوفل في مخطوطته « ان القاعدة الأساسية في تلك المجالس هي مراعاة صوالح الميري وقلما تتداخل في غير ذلك من الدعاوى التي لا علاقة لها في الأموال الأميرية ، وليس لأحد غير الأعضاء حق

---

(١) لاحظ ص ٣٧ و ٣٨ من حروب ابراهيم باشا في سوريا . ثم ص ٢٣٥ — ٢٣٧ من ابراهيم باشا في سورية لسليمان ابو عز الدين .

الدخول اليها ليسمع المفاوضات والمذكرات التي تجري فيها [١] .

وفي هذه المجالس كانت تستمع دعاوى الأراضي ، وأموال الأطيان المرتبة على الفدن ، ويبحث فيها عن ضائعات الميري وعائدات القرى ، وتعطى المقاطعات والأقلام الالتزامية والرسوم الميرية بعد ان يقر مزاد بدلاتها على الراغبين ، ومنها ما كان من البدع المكروهة التي تشمئز نفوس الاكثرين منها ومن استماع دعاويها كقلم الخمارات وغيرها [١] .

وكانت المذكرات التي تحصل بين الأعضاء تكتب في جريدة بالضبط تحت اسم المتكلم وفي رأس كل شهر ترسل تلك الجريدة الى الشام « فيما يرجع لولاية دمشق » ليراجعها يوحنا بك البحري وينقحها ، واذا وجد فيها رأياً متقدماً من أحد الأعضاء مخلاً بفائدة الميري اعترض عليه وضمّن الخسارة لصاحب ذلك الرأي لكن لم يقع من ذلك إلا ما ندر للغاية ، إذ ان هذه القاعدة اوجبت الاعضاء بان يستوفوا للميري فوق حقوقها ولو اضر ذلك بالأهالي وأجحفت بحقوقهم» [٢] .

ويبدو من هذا وأمثاله كالجهل وعدم المراقبة ان وجود مجلس الشورى لم يَحلْ دون وقوع المظالم بل كان نفسه مصدر الكثير منها .

* * *

(١) لاحظ ص ٤٩٢ من مخطوطة لوفل .

(٢) لاحظ المخطوطة ص ٤٩٣ و ص ١٤٣ من ابراهيم باشا في سوريا لسليمان ابو عز الدين .

المحاكم والامتيازات الأجنبية في العهد العثماني

— يقول الدكتور صبحي المحمصاني :

« منذ تكوّنت الدولة العثمانية حتى انتهت كان شيخ الإسلام وجميع المفتين والقضاة — في جميع أقطار المملكة العثمانية يفتون ويحكمون وفقاً للمذهب الحنفي الرسمي والالزامي ، وإذا جاز أن يتعدى هذا المذهب متعمد فلا يجوز إلا لبقية المذاهب الاربعة وهي (الشافعي والمالكي والحنبلي) المقررة . أما المذهب الجعفري فلم يكن معترفاً به من قبل الدولة بل كان محظوراً »[1] .

١ — ثم يقول المؤلف « وكان قضاة الشرع بوجه عام يشكلون المحاكم العادية في تاريخ الخلافة العثمانية حتى سنة ١٢٥٦ هـ »[2] .

وكان يرأس هذه المحاكم نواب الشرع الذين يعينهم شيخ الاسلام ، فقد كان يشرف على جميع المفتين وقضاة الشرع في المملكة . وكان القضاء

---

(١) لاحظ ص ١٥٥ من أوضاع التشريع للدكتور محمصاني .
(٢) المحمصاني (نفس المصدر) ص ١٧٦

الشرعي يطبق الأحكام الشرعية وفقاً للمذهب الحنفي الرسمي مبدئياً »[1] .

٢ ـ ثم المحاكم الملية « الروحية » لغير المسلمين وهي المحاكم التي كانت تنظم للنظر في مسائل الاحوال الشخصية المتعلقة بأبناء الطائفة »[2] .

* * *

ويقول الدكتور أسد رستم : « وكان الموارنة منذ القدم يعتبرون بطاركتهم وأساقفتهم قضاة زمنيين يرجعون إليهم في أكثر دعاويهم الحقوقية والجزائية علاوة عن الأحوال الشخصية وكان لدى هؤلاء الرؤساء الروحيين قوانين مدنية بحتة مقتبسة من الشرائع الرومانية والشريعة الإسلامية يقضون بموجبها »[3] .

المحاكم المختلطة

٣ ـ ثم كانت المحاكم القنصلية والمختلطة لابناء الدول الاجنبية التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة[4].

امتيازات الاجانب

٤ ـ كان الاجانب يتمتعون بامتيازات خاصة منذ القدم وكانت تتجدد في بدء كل خلافة عثمانية وخليفة معاهدات متتابعة متشابهة .

---

(١) لاحظ ص ١٧٧ من نفس المصدر .

(٢) لاحظ ص ١٧٧ من نفس المصدر .

(٣) لاحظ ص ٥ من بشير بين السلطان والعزيز .

(٤) لاحظ ص ١٧٧ من الاوضاع التشريعية .

وكانت هذه المعاهدات بوجه عام تحوي الإعفاء من الضرائب . والحصانة من سلطة المحاكم القضائية . ومن التشريع المحلي ليس في مسائـــل الاحوال الشخصية فحسب بل في سائر القضايا التجارية والمختلطة . وكانت بعض هذه المعاهدات تعطي الدولة الأجنبية الحق بحماية رعايا دولة اخرى .

وهكذا بعد ان كانت الامتيازات تستند إلى أسباب تجـارية أصبحت وسيلة للتدخل الأجنبي في أمور الدولـة بزعم حماية الاقليات غير المسلمـة ؛ ثم تطورت إلى مشكلة سياسية بتدخل الاجانب وكذلك استغلتهـــا بعض المدارس التبشيرية [1] .

القضـــاء الشرعي

في عهد سليمان باشا سنة ١٨١١

يقول أسد رستم : « وقضت قوانين الدولة آنئذ أن يقترح قاضي عسكر الأناضول تعيين من تتوفر فيهم الشروط اللازمة لتولي القضـــاء في الايالات الشامية الاربــع ، فتصدر بذلك فرمانات « مراسيم » رسميـــة من عاصمة السلطنة وأن يجلس للقضاء كل سنـة وفي كل من حلب ودمشق وطرابلس والقدس « مولى خلافة » من علمـاء الاتراك ، ويقوم هو بدوره بتعيين من ينوب عنه في سائر مدن الايالة التي ولي القضاء فيها . وقل الامر نفسه عن الإفتاء . فإنه كان يتولى الإفتاء في كل من حلب ودمشق مفتون أربعة من المذاهب الاربعة يجيبون عما كان يلقى اليهم من المسائل المشكوك في احكامها. أما في طرابلس وعكا فإنه لم يكن فيها سوى مفتٍ واحد بموجب المذهب الشافعي في غالب الاحيان . ولم يكن للقاضي رسوم معلومـــة ولا مرتب محدود . بل كان يجب على كل قاض أن يتقاضى عن كل دعوى مـا يقدّره

---

(١) لاحظ ص (١٦) من الاوضاع التشريعية للدكتور صبحي المحمصاني .

هو من الاجر وإذا كان متورعاً فإنه لا يطلب أجراً معيناً بل يكتفي بما يعرضه أرباب القضايا . وكان يحق لغير المسلمين أن يترافعوا في القضايا الشخصية التي تقع فيما بينهم أمام رؤساء دينهم . وإذا اختلفوا في ذلك عادوا إلى قاضي الشرع » .

لاحظ ص ٢٠ من كتاب بشير
بين السلطان والعزيز ج «١»

المحاكم وطريقة القضاء

في العهد العثماني

«إن القوانين رغم صراحتها لا تخيف في البلاد العثمانية إلا السارقين الضعفاء أما الأقوياء منهم فإنهم يخرقون حرمتها دائماً ولا يعاقبون في أكثر الاحيان .

فإن القضاة هناك يحكمون بناء على ادعاء شفوي ، يحضر القاضي المتهم حالاً فيحاول هذا الاخير تبرئة نفسه جهده عندما يبلغ الجرم المنسوب اليه . وعلى الفريق الذي يريد إثبات مدّعاه أن يسمي عند ذاك شهوده ، وبعد استماع أقوال الشهود يلفظ القاضي الحكم فيكون مبرماً ، والذي يحكم عليه يدفع النفقات » .

وتنظم عادة الاحكام بسرعة كلية ، فلا يعوق اعدادها صعوبة فهم النزاع ، وهكذا فإذا كانت القضية تدرك بعض الشيء فمحاكم الأتراك أسرع إلى حلها من محاكم جميع الشعوب . بيد أن الطريقة التي تتبع في احقاق الحق عاجلا كثيراً ما تؤدي الى اخطاء مخيفة ؛ فهناك أشخاص في القسطنطينية على الأخص وفي مدن تركية الكبرى عموماً ، لا عمل لهم إلا الشهادة بالزور ، وقد جمعوا من جراء هذا العمل الدنيء السافل ثروة لا يستهان بها .

وإن طالبي حلف اليمين ليسوا أكثر وساوس منهم ، وهكذا فإن العدالة تسير مغمضة العينين ، ولا تنطق غالباً إلا بالباطل .

وإن للتفكير بالمثول أمام محكمة من هـــذا الطراز ولا سيما في بـلاد لا محامين فيهـا والقضاء يقول كلمته دونما تنظيم محضر ، أو تدوين كلمـة ، لمروع رهيب » .

لاحظ ص ١١٨ — ١١٩ ج أول من كتاب :
(بيروت ولبنان منذ قرن ونصف) تعريب مارون عبود ،
طبع سنة ١٩٤٩ م

صلاحيات الاقطاعيين في لبنان

وكان من مظاهر الحكم الاقطاعي في لبنان أن يتصرف الاقطاعيون في مقاطعاتهم نهياً وأمراً ويجبون الاموال المفروضة على الاعناق والعقارات والضرائب والمكوس ، فيرسلون منها إلى الحاكم ما فرضه هو عليهم ، أو ما تعاهدوا عليه ، والباقي يصرف في نفقاتهم ، وإذا رفع أحد الرعايا دعوى فإلى الاقطاعي وإذا لم ينصف المتخاصمين ترفع الدعوى إلى الحاكم الأعلى فيفاوض الاقطاعي لفصلها بما يريد ، فإذا لم تقضَ يسوغ أن ترفع إليه الشكوى اكثر من مرة، فيرسل سفيراً او مباشراً من قبله لفصلها ولا يكون للاقطاعي عتب عليه ، وإذا حدث خصام بين الاقطاعي والأهلين او بين سكان مقاطعتين يكتب الحاكم اليهم بإصلاح ذات بينهم فإذا لم يرعووا ، أرسل مباشراً من خاصته تكون نفقاته ونفقات جواده مدة ما يبقى لفصلها من المدعى عليه ولا ينصرف من عنده إلا بأمر مولاه بعد ان يفرض له على ذلك الرجل المدعى عليه مالاً يأخذه منه تغريماً : ما لم تكن الدعوى بدين فيفرض له شيئاً على المدعي أيضاً وهذا في غير الدين استحساناً وأما في الدين فخمسة من المائة المقبوضة [1] .

---

(١) لاحظ ص ٧ – ١٦ من رسالة الشيخ ناصيف اليازجي .

والاقطاعيون يؤذن لهم أن يحكموا بالسجن والضرب ، ولكن العقاب على الكبائر لا يؤذن به إلا للحاكم العام ، وأما اجراء المواد المهمة كالقتل وقطع اليد مثلاً فلا بد أن يكون بمعرفة العمال المنصوبين من قبل الحاكم وللعامل أن يولي في كل مقاطعة مديراً من سكانها [١] .

مظاهر الاستبداد واثره في البلاد

وفي تاريخ فلسطين ان حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية أي اقطاعات او حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم في حكم منطقته ، فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلان حكمه لا محالة ومن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم ، وكان الشيخ او الأمير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة او خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من امراء ومشايخ المنطقة فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة فأدى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً في الاموال والرجال . واصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون أموالهم ويدفنونها في الأرض لتنجو من المصادرات والسرقات ويتظاهرون بالفقر وربما مات أحدهم فجأة ولا يعلم اولاده بدفينته . أما في جهات لبنان فإن الوالي او المتسلم او المستبد من حكام المقاطعات إذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع اشجاره ولذلك كان من الدعاء على الرجل في لبنان (الله يقطع رزقه) أي أشجاره (أو يخرب زوقه) اي بيته والزوق البيت[٢].

---

(١) لبنان ص ١١٤ والدواني ص ٢٤٨ . ويراد بالعامل والي الايالة أو الفقهاء والمفتين . ثم لاحظ ص ٧ — ١٦ من رسالة ناصيف اليازجي .

(٢) الخطط م ٢ ص ٢٧٧ ؛

موقف الدولة من الفتن الداخلية

وقلما كانت تهتم الدولة للفتن إلا إذا التهب شرها وخيف منها على سلطانها وندر أن اعدت المستعدين ورفعت ظلامة المظلومين ، ولماذا تهتم وكل قطر نشز عليها تضربه بعسكر من أهل القطر الأقرب اليه ان لم تستطع ضربه بأبناء بلده انفسهم ، وإذا خافت من وال او صاحب اقطاع قوة ، تسلط عليه خصمه أو جاره فالناس أبداً متعادون متشاكسون والألفة مرتفعة من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف العناصر[1].

ومن مساوىء حكومة الاقطاع ان صغار حكامها من أهل البلاد كانوا يضطرون إلى المصانعة فتراهم أبداً مع القوي الذي تدوم سعادته فإذا ولت عنه لووا وجوههم نحو من يخلفه في القوة والجبروت . وفي هذا السبيل كانوا يقتتلون وتفنى رجالهم وتخرب بيوتهم . ثم من مساوىء هؤلاء أنهم كانوا يتزاحمون في زيادة اجرة المقاطعات وضمانها للاستيلاء عليها ونزعها من أيدي منافسيهم ولو أدى ذلك إلى إرهاق الأهالي وتجريد الفلاحين من قوت يومهم[2].

مصدر الفساد في الايالات

يقول صاحب الخطط : من أمثال الترك .. « السمكة تفسد من رأسها » وحقيقة ان فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة أيام كان يقبض فيها على زمام الأحكام غالباً جهلاء ظلام وصموا بسلب الناس بكل حيلة وكثيراً ما تولى رئاسة النظارة في السلطنة العثمانية الندماء والسخفاء بل الطباخون

---

(١) الخطط ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

(٢) دوالي القطوف صفحة ١٩٣ — ١٩٦

والطبالون والمزينون والبساتنة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي والزنوج الخصيان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون ويشاء ضيق عقولهم.

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها إذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو فلطالما ولي مشيخة الإسلام في الترك أغبياء أدنياء في منشئهم ومسلكهم ممن ليس لهم من العلم الديني إلا قشوره وشارة أهله من جبة وعمامة ، وعلى نسبة وسائط بعضهم وكثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء أحدهم إلى المناصب العليا فكان الوالي الذي يحكم الشام على الغالب أشبه بالقاضي ، وهذه الطبقة لا تقرب من أهل البلاد إلا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد [1].

(١) الخطط م ٢ ص ٢٣٦ ؛

الضرائب والفوضى ومظاهر الرحمة

لا ترى في جميع العادات والتقاليد والأنظمة الاقطاعية ما حاق ضرره بالبلاد كالفوضى والتعسف في انشاء الضرائب وتحصيلها فإن هـذه الفوضى — مع تنزه ذوي الانصاف والدين من اعيان البلاد عن التزام المقاطعات وضمان الأعشار وتركها لفئة من الناس لا ترعوي لحلال أو حرام ولا يردعها قانون او دين عن الاستبداد والجور واستباحة الأعراض والأموال والدماء في سبيل اغراضها ومطامعها الشخصية — كانت سبباً لخراب عدد من القرى والمزارع وتعطيل كمية كبيرة من الأراضي الزراعية في البلاد ثم سبباً للقضاء على الملاكين الصغار وشطر الأمة ، في اكثريتها الساحقة إلى شطرين :

قلة يزهون بأملاكهم الواسعة ، ويستكبرون عن العمل ويستهترون بالفلاحة وجميع المهن الحرة ويتلهون باستعباد الناس ويستثمرون جهودهم بقسوة واستعلاء وجبروت ولا يهمهم من المصلحة العامة شيء ما داموا يعتقدون بأن مصالحهم الخاصة تختلف عن مصالح العموم .

وكثرة من المسيّر للخدمة والفلاحة ينحطون بنفوسهم إلى مستوى نفسية العبيد إذ يضمحل فيهم الإحساس بالعزة والأنفة والطموح لما تعودوه من

الخضوع والتذلل والانقياد لمشيئة أسيادهم وسياط حكامهم ولما يشعرون به من القلق النفسي وعدم الاطمئنان لمستقبلهم ما داموا تحت رحمة أولئك الأسياد عرضة للاضطهاد والطرد والتشرد والجوع[1] فلاحين مستعبدين لا تجيز المنعمات والتقاليد الارستقراطية لمن استغنى منهم بمعجزة تجارية أو مهنة حرة أن يتطاولوا إلى مجاراة أسيادهم فيما امتازوا به عن الفلاحين من المظاهر : فلا يقبل منهم أن يلبسوا ثياباً كثيابهم ولا أن يسكنوا دوراً كدورهم ولا أن يقتنوا من الأثاث وعدد الخيل ما يشبه اثاثهم وعددهم جودة وعظمة ، بل لا يرتضى لهم أن يفكروا في شراء شيء من أرضهم ومزارعهم حين يضطرهم الإسراف في البذخ واللهو إلى بيعها أو بيع شيء منها فإن من يفكر أو يحاول أن يتظاهر بشيء من هذا كله أو بعضه كان يعرض نفسه لأشأم الإهانات والعقوبات والنتائج الخطرة أو يصيبه ما أصاب آكل الكنافة بدبس على ما يرويه الاستاذ عبد الحسيب الشيخ سعيد ص ١٥٥ من مجلة الكلية البيروتية م ١٣ إذ يقول :

الكنافة بدبس

« حدثني أحد الوجهاء في معرض تأسفه على أيام الجهل التي كانت لهم أعياداً فقال : كيف لا نأسف على أيام الجهل الذي به وحده كان المرء يستطيع الوصول إلى الغنى والثروات الطائلة ؟ ؟ إن أحد أجدادي المدعو... كان متسلماً ... وكان مطلق الارادة حتى انه سمع بأن « فلان جد فلان » أكل وعائلته في أحد الأيام كنافة بدبس : فطلبه اليه وما كاد المسكين يدخل باب الديوان حتى نهض له جدي على قدميه واستقبله الى الباب .. فحار المسكين بأمره لأنه وجد شارات السخرية والتهكم بادية على وجه المتسلم وارتبك فوقع إلى الأرض مستجيراً ومعتذراً بأنه لم يقترف اثماً . .

---

(١) ص ٤٢ — ٥٢ من كتاب تراثنا الاجتماعي وأثره لحليم نجار .

فقال له المتسلم : ان من يأكل كنافة جدير به الجلوس في مكان المتسلم الذلك فإني تنازلت لك عن مكاني فتفضل اليه .. فأدرك المسكين خطيئته (الكبرى) فجعل يتقدم إلى المتسلم مقبلاً قدميه ومعتذراً بكونه اضطر إلى أكل الكنافة لمرض طرأ على انجاله .. وبعد التي واللتيا استطاع الرجل انقاذ نفسه بثمانين ديناراً ترضية لجناب المتسلم لأنه صنع في بيته « كنافة بدبس » [1] .

وقد بقيت هذه العادة – عادة تحكم الوجهاء تحكما استبدادياً – إلى عهد قريب منا ، فقد حدثنا الثقاة بأن بعض الوجهاء كانوا يصنعون كالمتسلم ... اذا بلغهم أن واحداً من آحاد الناس اشترى عقاراً فكانوا يسلبونه منه ويعدونه بعد ذلك من « الحاسيب » وهي رحمة إلهية منهم الى المساكين .

وان نسوة الحكام والأكابر كن اذا شاهدن امرأة تلبس فروة من جلد السمور لا يهدأ لهن في بيوتهن مقام حتى يجلب ذلك السمور اليهن لأنه لا يجوز أن يكون في البلد من يلبس مثلهن [1] .

ومن هذا القبيل ما حدث سنة ١٩٢٢ لأحد وجهاء القرى العاملية عندما غيّر لباسه القديم بلباس افرنجي جديد يشبه لباس البكوات ، وذهب مع أعيان قريته لزيارة الزعيم الاقطاعي المسيطر في لواء الجنوب اللبناني ولما وصلوا الى مكان استراحته في البرغلية وقابلوا عطوفته تجهم لهم وأهان لابس البدلة الرسمية ومزق له بدلته على مرأى ومسمع من المحتشدين حوله ؟؟

الفوضى في انشاء الضرائب وتحصيلها

أما حديث هذه الفوضى فقد يتلخص فيما نرويه عن خطط الشام وكتاب لبنان ، وتاريخ ظاهر العمر ، ومشهد العيان ، ودواني القطوف ، ورسالة

---

(١) اطلب الكلية م ١٣ ص ١٥٦

ناصيف اليازجي ، إذ تجمع هذه المصادر على ان الضرائب في العهد الاقطاعي كانت تختلف حسب مشيئة الحكام ، وان الجباية كانت على غير قاعدة مطردة فقد تجبى جباية سنتين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ولا تراعى في الجبايات أعوام القحوط والجدب والمصائب ، فإن الأمير أحمد المعني فرّق على بلاده ضريبة المسعدة « المساعدة » سنة ١٦٩٦ م مع ان البلاد كانت في محل عام والأسعار في غلاء والناس في ضيق شديد .

والأنكى من هذا انه إذا ضاقت الحال بأحد العقلاء او ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى الى المراجع العليا عدوه خارجياً وقاتلوه وحرفوا دعوته على ولاة الامر ولبّسوا على العامة في أمره حتى يسكتوا نأمته ويزيفوا مدعاه .

فكان من الضرائب أن يقطعوا الناس شاشات للف العمائم ويأخذوا ثمن القطعة من ثلاثة الى اربعين غرشاً واكثر ويسمونها « الشاشية »[1] ويسمحون لهم بلبس البوابيج ويأخذون ثمن كل منها عشرين غرشاً ، ويضربون على بيض « بزر » الحرير « البزرية » وقيمتها خمسة غروش على كل من يربي من شجر التوت اوقية بزر قز ، وقد تكون هذه الضريبة نصف هذه القيمة : ومنها « الهميد » وهو المال المرتب من الديوان ، وضرائب المطاحن فإن الامير بشير الكبير عد بزمن الدولة المصرية طواحين البلاد ورتب على دخل كل الف غرش خمسة وأربعين غرشاً ، وكذلك أحدث بزمنها مال الاعانة من خمسة عشر غرش الى خمس مائة ، وكانت عشر طبقات على كل مكلف حسب طاقته وسعى بطرس كرامه الحمصي فأنزلها إلى خمسين غرشاً ، وفرضت الاعانات على سائر المقاطعات على هذه النسبة وأصاب كل مكلف في البقاع خمسة وثلاثين غرشاً وهو اقلها .

---

(١) وهذه الضريبة وضعها الامير يوسف شهاب تحدياً لعقال الدروز ، كما يروى ابو شقر ص ١٦٦ من تاريخ (الحركات في لبنان) بل وضعها قبله محمد باشا الارناؤط والي صيدا سنة ١٠٥٣ هـ لاحظ ص ٣٤١ من تاريخ الأزمنة للدويهي طبع بيروت سنة ١٩٥١ م .

وقد تكون الضرائب لتعجيز الحاكم وخراب البلاد كما فعل الجزار بزمن الامير حسين شهاب فإنه طلب منه ثلاث مائة غرارة قمح ، والف رأس بقر ، وثلاث مائة قنطار بارود والح بطلبها ، وقد تكون الضرائب للتغريم كما فعل الأمير بشير بسكان لبنان عند قيامهم عليه سنة ١٨٢١ فصادر أهل الجبة بدفع مائتين وخمسين الف قرش نفقة العسكر ، وأهل كسروان بمائتي الف غرش ، واهل القاطع بمائة الف غرش .

ومن هذا القبيل ما جرى سنة ١١٦٣ هـ حين زاد الامير ملحم شهاب في الضرائب وفرض على كل مكلف في منطقة حكمه غرشاً ، فاجتمع اللبنانيون وامتنعوا عن دفع هذه الفريضة .. فتراجع الامير لذلك عن طلبه ثم سعى بإلقاء فتنة بينهم أدت الى انقسام الاهالي وسفك الدماء : حتى استقوى عليهم وأذلهم واضطروا لأن يدفعوا ما فرضه من المال مضاعفاً [1].

وكان طالب الحكم في لبنان يقدم لوالي صيدا ستة من جياد الخيل بعددها الفضية وخمسين الف غرش خدمة أي — عادة — ودفع له الأمير سيد أحمد الشهابي سنة ١٧٨١ خمس مائة الف غرش زيادة عن ثلاث مائة دفعها أخوه الامير يوسف ، فتولى الحكم ثم زاد الامير يوسف المال فتعهد بدفع الف الف غرش ، فانعم عليه بخلعة الولاية ، وصحبه بعسكر لطرد أخيه فضايق السكان وزاد الضرائب عليهم لتحصيل تلك الزيادة، فعجز عن تحصيل ما ضربه عليهم وبقي مما تعهد به مائة وخمسين الف غرش .

وسنة ١٢٠٥ هـ دفع الامير يوسف شهاب للجزار مائة وخمسين كيساً عن كل شهر فولاه حكم لبنان وعزل الامير بشير ، فسار هذا الى عكا ودفع للجزار مائتين وخمسين كيساً عن كل شهر فأعيد إلى الحكم واكثر الضرائب

---

(١) راجع حوادث سنة ١١٦٣ من تاريخ الأمير حيدر طبعة مصر .

وصادر كل من مال عمه الأمير يوسف وكان مـــا كان من عسف واضطراب وثورة[1]. وعلى رواية المعلوف دفع كل من الأميرين للجزار خمسة آلاف كيس عن كل سنة [2] .

وسنة ١٧٨٣ كانت مرجعيون تابعة لايالة صيدا ، ووادي التيم تابعة لايالة دمشق فكان حاكم حاصبيا يؤدي كل سنة إلى والي صيدا عن مرجعيون ستة آلاف غرش وكان حاكم حاصبيا يحصل نفقاته ونفقات أبناء عمه وأعيـــان بلاده كلها من محاصيلها التي تبلغ خمسين الف غرش .

قال السائح الألماني المستر « زيتس » اثنـاء مروره بسورية سنة ١٨٠٥ « كانت الوظائف تباع بالمزاد ، ويرسو المبيع على الزائد الأعلى الذي يدفـع اكياساً اكثر من سواه ، وكلما قسا قلب المتسلم وفسدت أخلاقـه كانت زيادته أعظم ، ولكن البلاد كانت من سنة الى سنة تزداد فقراً وتعساً وتقفر من السكان[3].

مظاهر الرحمة

وكان من عادة البشوات والولاة في تحصيل الضرائب والامـوال الاميرية ان يفوضوا من قبلهم محصلين ومباشرين يرهقون الاهالي بتكاليفهم ومطاليبهم، وكان تغيير هذه العادة من قبل الباشا وتفويضه لوجهـــاء البلاد والفقهاء والاعتماد عليهم في جمع الاموال الاميرية وايرادها لخزينة الدولة ، كان مثل

---

(١) اطلب حوادث سنة١١٦٣ من تاريخ الشهابي طبع مصر او بيروت ص١٥٩ و١٦٠

(٢) دواني القطوف ص ٢٢٦

(٣) لاحظ مجلة الكلية البيروتية ص ١٢٩ م.١

هذا العمل من الباشا يعتبر رحمة منه لاهالي البلاد ورفقاً بهم[1].

وكان من العادة أن يدفع المسافرون خفارة للقائمين على حفظ الأمن في الطرق التي تخشى فيهـــا سطوة قطاع الطرق ؛ والخفارة مقدار معيّن من الدراهم يفرضهـــا الرجال المعينون لحراسة تلك الطرق على كل مسافر يمر بطريقهم ، وكان ابطال هذه العادة مع تأمين الطرق المسافرين يعـد رحمة للناس من قبل الحاكم[2].

---

(١) لاحظ ص ٩٧٥ . م ٢ من نزهة الزمان في تاريخ لبنان .

(٢) ثم لاحظ ص ٩١٩ من نفس المصدر حيث يقول المؤلف حيدر الشهابي « وفيهـــا (١٢٢٧ هـ) ابطل الامير بشير الخفارة من جميـع اطراف بلاده وكانت عادة قديمة مرسومة وأذن ان تسير القوافل والتجار على جميـع الطرق بالأمان والسلامة بدون أن يغرموا بشيء ؛ فكانت رحمة عظيمة .

المراتب الرسمية والامتيازات بين الاقطاعيين في لبنان

كانت الاسر اللبنانية — فيما مضى — تنقسم الى طبقات وعشائر تختلف معاملاتها باختلاف مراتبها ولهذا لا نرى بدأ من سرد تلك الطبقات بحسب نشأتها وترتيبها ، فكان اولها الامراء وهم أعلى مرتبة من غيرهم وكان الحكم بيدهم والاعتبار الاول لهم ، وثانيها المقدمون وهم بعد الامراء وبعدهم المشايخ وهي الطبقة الثالثة من الطبقات اللبنانية .

ذلك فضلاً عما هنالك من طبقات الاعيان ممن كان بعضهم يداني هذه الطبقات في الوجاهة والمنزلة ولكن الاعتبار كان بما رتب رسمياً عند الحكام والامراء والاقطاعيين ، فكانت كل اسرة حريصة على مبادئها وانسابها واصهارها وانسبائها حتى انهم كثيراً ما حصروا الزواج واحتكروه احتكار السلع وامتنعوا عن تزويج من ليس من طبقتهم — في اعتبارهم — وذلك مرعي عند جميع طوائف لبنان على السواء ، فالامراء منهم لا يتزوجون إلا من طبقتهم وهكذا من يليهم من المقدمين ، فالمشايخ[1] وكانوا يعدون من

---

(١) لبنان ص ١٤٣

أسباب السقوط أن يسف ابن اسرة من اسر الامراء او المقدمين او المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته[1] وكانت المراتب تحفظ حسب الاصول فلا تغيرها أيدي الفقر او الغنى او الرفعة او الانحطاط .

السمية والعهدة

وكان باقي أهالي لبنان يتميزون على اختلاف طبقاتهم بالسمية والعهدة ، وهي الانتماء إلى أمير او مقدم أو شيخ من أصحاب الإقطاع او من ذوي الكلمة النافذة ، فترى المنتمي يتفانى في ارضاء صاحب العهدة والسمية ، وذاك يحرص عليه فيحفظه ممن يعتدي عليه ويفرض عليه مالاً ، ويؤازره بغايته ويخلع عليه في الدواعي الخاصة ، واذا غضب صاحب العهدة والسمية على أحد من الاهالي لمخالفته له فلا يرى هذا سبيلا للتخلص منه الا بأن يلتجىء إلى زعيم آخر يتجاسر على مقاومته ، وإذا إستفز الأمير الشيخ واستفز هذا أهل عهدته ومحالفيه تراهم أطوع له من بنانه . وكانوا إذا وقع خلاف بين رئيسي مقاطعتين وجب على رجال كل فئة ان تتجند على نفقة نفسها .

طريقتهم في تعيين الحكام

كانت طريقة اللبنانيين في تعيين حكامهم ورؤسائهم ، بأن يجتمع اعيان البلاد من الأمراء والمقدمين والمشايخ والمناصب وينتخبون مكان الحاكم المتوفى — أو المعزول من قبل الولاة أو الممقوت من قبل الجمهور — حاكماً عاماً لهم من الأمراء ثم يقدمونه إلى والي الإيالة فيثبته او يرفضه ، فإذا ثبته خلع عليه الخلعة السلطانية « وهي غالباً من فرو السمور والجوخ الموشى»

---

(١) الخطط م ٦ ص ٣٠١

وإذا رفض انتخابه أعاده لهم لينتخبوا غيره اذا كان لهذا الغير اعتراض مشروع، أو كان عنده زيادة على المال المفروض على لبنان أو الشوف فحسب، أو كان للوالي غرض خاص من تعيينه ، كل هذا مما يشعرنا بأن انتخابهم للحاكم إنما كان شكلياً لا أثر له على إرادة والي الإيالة فيما يحققه من توليته أو عزله .. وإلا فلا يعقل أن ينتخب اللبنانيون حاكماً لهم بعد وفاة الأمير أحمد المعني سنة ١٦٩٣ م من غير المعنيين — كالأمير بشير الشهابي ، والامير حيدر — مع وجود الامير حسين المعني وأولاده على قيد الحياة يتمتعون بأفضل المميزات الشخصية والثقافية والبيتية لذلك العهد ، وهم خلف الأمير فخر الدين الكبير ، لا يعقل هذا لو لم تكن الكلمة الاولى — في مثل هذا الانتخاب — للدولة العثمانية وولاتها في الشام وصيدا او لضغط القناصل والمساعي الأجنبية .

ثم ان هذا الحاكم المنتخب من الاقطاعيين هو الذي كان ينتخب بدوره الإقطاعيين في لبنان ويعينهم حسب ما يراه مناسباً ، وهو الذي يوزع الضرائب والإعانات والأموال المفروضة على الاعناق والعقارات ، وهو الذي يجند الجنود ويجبي الاموال ويتصرف كما يشاء بزيادة الضرائب او تخفيضها أو توزيعها .

امتيازات الاقطاعيين

كان للأمراء والمقدمين والمشايخ امتيازات مختلفة منها ان لا يقتل أحدهم ولا يسجن ولا يضرب ولكن يصادر بالمال أو بإتلاف العقار أو النفي، وإذا دخل المذنب على الحاكم قابله على عادته بالتحية والسلام ولا يهينه ، وإذا كتب اليه كتاب الغضب لم يغير شيئاً من ألقابه وكراماته كما انه لا يثبت عبارات الولاء ويضع ختمه في أعلى وجه الصحيفة ، فاذا كان كتاب رضى وضع ختمه على ظاهرها وتلك عادته مع الرعية أيضاً .

عاداتهم وتقاليدهم في المكاتبات والمقابلات

وكانت لهم عادات راسخة في مخاطباتهم وكتاباتهم وأفراحهم وأحزانهم أمست عندهم بمثابة القواعد العامة ، فكان الحاكم يكتب إلى كل طبقة من أصحاب الرتب المار ذكرها « الاخ العزيز » وكل من كتب اليه هذه العبارة صار شيخاً ، والامراء يكتب اليهم حسب طبقاتهم وهي هكذا الشهابيون ، واللمعيون ، والارسلانيون والمقدمون ، أما المشايخ فمنهم من يكتب اليهم كالامراء وهم الحماديون فإنهم بمنزلة اللمعيين، ثم تأتي طبقاتهم على هذا الترتيب وهو الجنبلاطيون ، والعماديون ، والنكديون والتلحوقيون والملكيون وبني العيد الخ ..

والورق يكتب فيه على نصف طبق « طلحية » الى الامراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ الحماديين ، والباقون يكتب اليهم في ربع طبق فقط. ويوقع « يمضي » في كتب الامراء الشهابيين فوق اسمه كلمة « أخ » وفي كتب غيرهم عبارة « محب مخلص » ثم يكتبون إلى باقي العشائر بألقاب متفاوتة مثل « حضرة عزيزنا » أو « عزيزنا فقط او أعز المحبين » لكن حضرة عزيزنا لا تكون إلا في ربع طبق من الورق وأعز المحبين تكون في ثمن طبق « وعزيزنا » تكون فيهما جميعاً بحسب منزلة الشخص المكتوب اليه .

وما كان الامير بشير يكتب الى غير الشيخ بشير جنبلاط والشيخ ناصيف نكد والشيخ حمود نكد من المشايخ ، في نصف طبق إلا الى بني حمادة الجبليين لانهم كانوا قديماً يحكون تلك البلاد من يد وزراء السلطنة العلية ، ولم يذكر كنية شيخ ما من الاقطاعيين إلا للشيخ بشير جنبلاط لأنه كان على جانب عظيم في البلاد . وأما كتابتهم الى رؤساء الدين من كل طائفة ففيها تكريم زائد بكبر الورق واعطاء الألقاب والخضوع .

وأما الكتاب الى الحاكم الكبير فكان الجميع يدعونه (سيداً) ولكن الامير الشهابي يدعو نفسه ولداً له او ابن عمه حسب عمره ، واللمعي يدعو نفسه « محباً داعياً » والباقون يدعون أنفسهم « عبيداً » ولا يذكر له اسم ولا لقب ولا كنية بل يدعى بالأمير لا غير[1].

عاداتهم في المقـــابلة

ثم كانت لهم عادات في السلام والجلوس والخطاب نشأهم عليها حكامهم الكبار ، فكان إذا دخل على الحاكم أحد المناصب الشهابيين نهض إليه عند دخوله ونزل على بساطه واقفاً حتى يصل اليه فيسلم عليه مقبلاً كتفه ، وان كان من غير الشهابيين لم ينهض حتى يبدأ بالتحية فإن كان من اللمعيين قبل عضده أو من الارسلانيين فزنده ، وإن كان مقدماً او شيخاً فحرف راحته مما يلي الإبهام ، وأما من دونهم من الرعايا فمنهم من ينهض له ولكن عندما يهوي على يده ليقبلها فمنهم من يقبل رسغها ومنهم من يقبل الأصابع ، ومنهم من لا ينهض لـــه ولا يمكنه من تقبيل يده ومنهم من لا يأذن له بالدخول عليه ، وإذا أقام في داره أحد المناصب اياماً فإن كان من الشهابيين

---

(١) الدواني ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ؛ لبنان ص ١٤٤ – ١٤٦ ثم ص ٧ – ١٦ من رسالة الشيخ ناصيف اليازجي .

ينهض له عند دخوله في كل يوم ابتداء فإن خرج ثم عاد لا ينهض له ، وإن كان مقدماً أو شيخاً فلا ينهض له إلا عند الوداع ما لم يكن قد تولى القضاء فإن القاضي عنده في رتبة الأمير بخلاف رئيس الشرطة فإنه في رتبة العامة حتى إذا كان من المشايخ لم يعامله في المقابلة والكتابة على عادته قبل ذلك .

وكانوا يتنافسون في ارضاء الحاكم والوصول إلى مجلسه وتقبيل يده وثوبه وكان من يكتب له هذا الشرف يتناقل خبره اهـــل بيته خلفاً عن سلف ويعدونه في مفاخرهم وهنـــاك من كانوا يبتعدون — بتزلفهم إلى الحكام — عن مواطن العزة والكرامة والنبل وقد تأصل فيهم هذا الداء حتى العصر الأخير[1].

وأمـــا مقابلة الرؤساء الدينيين فكانت تجري بكل خضوع واحترام مع لثم انامله‌م وانجاز أوامرهم وطلباتهم برضىواطاعة للتبرك حيناً ولاستغلال مكانتهم الدينية والشعبية في أكثر الأحيان[2].

---

(١) الخطط م ٦ ص ٢٩٩ — ٣٠١ ولعل هذه الاصطلاحات في المكاتبة والمقـــابلة انما كانت محصورة ومعتبرة ضمن المقاطعات اللبنانية وفي عهد الأمير بشير شهاب الثاني وحسب .

(٢) لاحظ ص ٢٥١ من دراني القطوف و ص ١٤٦ من (لبنان) لجلة مؤلفين .

الأسر الإقطاعية وصلاحيات المشايخ
في جبل عامل

مما لا شك فيه ان وضع جبل عامل السياسي قديماً كان كوضعه في عهد النظام الإقطاعي الأخير .

مشيخات تابعة لحكومة مركزية مستبدة هي كل شيء في التاريخ ، والسياسة ، فلم يكن يحسب له المؤرخون حساباً ليكون له تاريخ مستقل منفصل ، ثم انه لم يكن معروفاً على انه عمل مستقل الا في القرون الأخيرة ، وان عمله المستقل كان على مثال الأعمال الاقطاعية التي قضت سياسة الغالب تجزئة بلاد الشام اليها ، وفي تلك السياسة تركتها ميداناً للتنازع بين حكام الأقطاعات المتجاورين وباباً للتفريق بين ملتمسي الامرة والحكم من كل مقاطعة [١].

إذ كانت الدولة تطرح المقاطعات الريفية التابعة للولاية للمزايدة بين الراغبين فيها من أعيان البلاد وأثريائها مقابل مبالغ محددة يدفعها الراغب في الالتزام ، والطامح للحكم .

---

(١) لاحظ اسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٢٦٢ من العرفان م (٨)

وفي مقابل ذلك كان الملتزم يحل محل الحكومة في السياسة والإمارة على ادارة الالتزام ، وكان « بمقتضى ذلك » حر التصرف في جبايته مـا يشاء جبايته من الأهالي بدلاً من قيمة الالتزام التي كان يدفعها كل عام للدولة .

وكان الاهالي الذين يزرعون أرض الالتزام أذل من العبيـد مع الملتزم، فربما استطاع العبـد ان يفر من مولاه اذا أرهقه ، ولكن الفلاح مـا كان يستطيـع ان يفر من الملتزم الى بلدة اخرى ويترك وطنه وعياله لأن الملتزم اذا علم بمكانه احضره قهراً وزاده اذلالاً ومقتاً.

وقد بلغ من هوان الفلاحين ان اصبح الإذلال دستوراً محترمـاً لديهم ، فكانوا إذا ما آنسوا من الملتزم او من الملاك تسامحـاً معهم ورحمة بهم .. تهاونوا في خدمته وازدروه وماطلوه في دفع ما عليهم له [1] .

وفي اطار هذه العادات والتقاليد كان يحكم جبل عـامل – في جـل العهود العثمانية الأخيرة – أسر اقطاعية نابهة ، كل منها يستقل بحكم مقاطعة او مقاطعات يلتزمها ويجبي ضرائبها ويدير امورها ويستثمر اراضيها كيفما يشاء ، على ان يدفع لقاء ذلك كل ما عليه من المال سنوياً الى خزينة الدولة العثمانية بواسطة والي الإيالة ، أو من يقوم مقامه ، وعلى ان يلتزم بتـأمين الطرق وحفظ الأمن داخل حدود مقاطعته ، وعلى أن يلبي برجاله وفرسان مقاطعته – دعوة والي الايالة لدى الحروب الاهلية والدولية ويشترك في كل معركة يوجه اليها .

وأشهر الاسر العاملية التي حكمت في جبل عامل – على عهد العثمانيين – هي أسرة آل منكر ، وآل علي الصغير ، وآل صعب ، وهناك أسر تولت

---

(١) لاحظ ص ٢١ من يوميات الجبرتي .

الحكم في بعض الفترات السياسية ، ولكن لم يستقم لها الحكم طويلاً على ما يبدو كما استقام لهذه الاسر الثلاث ومن تلك الاسر آل شكر في بلاد بشاره وساحل قانا ، ومقدمي جزين الخزرجيين في اقليم جزين ، وآل الزين في بلاد بشارة وساحل صور ، وآل برّو في جبل الريحان على ما يبدو من بعض النصوص ، وآل داغر في منطقة انصار وآل شامي في منطقة بنت جبيل[1].

صلاحية مشايخ جبل عامل في عهد الامير بشير

كانت صلاحية شيخ مشايخ جبل عامل على عهد الامير بشير وسليمان باشا والي عكا لسنة ١٢٢١ هـ أن يتعاطى أمورهم ومصالحهم وفصل الدعاوى فيما بينهم وأما إذا بدا من أحد منهم أو جرى بينهم مادة خلاف جسيمة تعرض له — أي للباشا نفسه — وهو يتوسط فصلها مع الحكم بها ، وإذا أحد بدا منه نقيصة ووجب عليه القصاص الحكمي فيطلب منه — أي من شيخ المشايخ — وإذا فرّ هارباً فيطلب جلبه منه ، ولا يقبل له عذر .

وكان من شروط الدولة على مشايخ جبل عامل — حين تفوض اليهم الحكم — انه متى لزم الامر الى طلبهم برجال العشائر المحاربة في أحد الحلات يجب عليهم أن يحضروا بدون تردد ولا عاقة ولا طلب علائف نظير باقي العساكر ، وذلك نظير الشرط الملتزم به أمير جبل لبنان[2].

---

(١) لاحظ ٧٧ — ٧٩ من العرفان م ٢٦ ؛ ثم ص ٣٤ — ٥٢ من تاريخ ولاية سليمان باشا .

(٢) لاحظ ص ٣٦١ من كتاب للبحث عن تاريخنا .

الاحوال في عهد آل الصغير

قال المعلم ميخائيل مشاقة حفيد ابراهيم مشاقة كاتب الشيخ ناصيف النصار ومتسلم أعماله في صور[1] ما نصه :

« أما المشايخ فدرجات متفاوتة فمنهم الحاكم الكبير والصغير ، وفي الطبقة الاولى بين مشايخ لبنان ممن حكموا في ناحية الجنوب : بيت علي الصغير فامتدت حكومتهم من النهر الليطاني ومن بلاد بشاره إلى حدود الكرمل ، ومن الكرمل وناحية صفد مع مدينة عكا كانت تحت سلطة مشايخ الزيادنة ، ومن نهر الليطاني من ناحية صيدا فاقليم الشوير « الشومر » — وبلاد الشقيف كانت بيد مشايخ الصعبية — الشيعيين أو المتاولة [2] : ومن خارج صيدا بميل يبتدىء إقليم التفاح — والاصح اقليم الخروب — وهو آخر حدود لبنان الجنوبية وتحكمه آل شهاب من صيدا لحدود ولاية طرابلس شمالا .

فالمشايخ الذين تقدم لنا الكلام عنهم كان يتولى أمرهم شيخ منهم توليه عليهم الدولة بعد ان تفرض عليه الجباية وتطلق له التصرف بأحوال الشعب وراحته وكانت شريعة شيخنا هذا ارادته :

وكان هذا الزعيم أو شيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء ويطلق عليهم

---

(١) تاريخ ظاهر العمر ص ١٤٢

(٢) ان مشايخ الصعبية لم يتعد حكمهم اقليم الشقيف الا في الفترة التي غزا بها الامير ملحم شهاب بلاد بشارة وانضم اليه الشيخ سليمان الصعبي واعتقل مشايخ آل الصغير او الشيخ نصار النصار ، وسلم البلاد للشيخ سليمان الصعبي ، وهي فترة قصيرة تعد بالاشهر بل الايام ، وأما اقليم الشومر فكان مع الجانب الأكبر من اقليم التفاح في يد مشايخ المناكرة ولم يزل بيدهم الى ان اصبح ملكا خاصا مشتركا بين آل الصغير وآل صعب وآل منكر سنة ١٢٢٠ هـ عل ما نشر من تاريخ المعلم ابراهيم العورا ص ٧٧ — ٧٩ من العرفان م ٢٦ .

اسم مشايخ تعزيزاً لهم وكان يفرض عليهم مالاً محدوداً ويعدهم ان لا يتعرض لاعمالهم فيمرحون ويطلقون لمطامعهم الاشعبية الاعنة في مص حياة الشعب من عروقه بلا شفقة ولا حنان وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات في كثير من أعمالهم الجائرة . وكانت الدولة علة وجود هذا الاعتساف في أعمال رجالها « الامناء » حيث كانت تطلق للوالي حقوق التصرف بولايته بعد أن تنال منه الرسم المعين وكان هـذا يولي شيخ المشايخ وهذا يولي مشايخ ومعاونين على سلب مال الرعية بما تتوصل اليه يدهم ويقدرون عليه .

وكان الشعب لا يرد لهم طلباً لجهله القانون ولذلك كان كفيلاً قوياً لاملاء بطون مشايخه وهوى زعيمها : وهذا مكلف بإشباع بطن الوالي ومن الوالي يرسل ما بقي إلى الخزينة الملتهبة . ومن سوء طالع الشعب لا الخزينة ولا بطون المشايخ والوالي تعرف الامتلاء فكانت البلصات متتابعة والنهب قائم على قدم وساق :

كان شيخ القرية ينظر إلى الشعب نظر السيد ويسلبه راحته فضلاً عن ماله أين شاء وكيف شاء كما تقدم وكأن الشعب تعود الطاعة وألف الجبانة فنام إلى الذل ، وحسب لشيخه مزية عليه ومقدرة له لا مناص ولا مهرب له من جور حاكمه فكان كالنعجة تساق إلى الذبح بلا معارضة أو أقل مدافعة عن حياتها ولم يكن ادراكه يخوله معرفة انه مـا خلق ليكون عبداً عتيقاً لحاكمه [1] .

وقال المعلم ميخائيل الصباغ « وكانت جميع البلاد في ظلم شديد من الولاة والحكام فإن والي صيدا – من آل العظم – لم يكن يقف عند مال الميري وعوائده بل عدا ظلمه إلى نهب الفلاحين حتى كل من سمع انه مستور الحال يرسل اليه ويحبسه ويطلب منه ما هو فوق طاقته .

---

(١) اطلب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ص ٣٠ – ٣١ طبع مصر .

وكان أحمد الحسين شاملا بظلمه بلاد صفد مثل أبو سنان وطرشيحا ، وصفد ، والقاسي ، ودير حنا ، وسحماتا ، وجدين ، وهي قلعته التي يسكن فيها .

وابن ماضي شيخ مشايخ جبل نابلس كان يوقد نار الظلم في نواحي الناصرة وقراها ، والمرج وحيفا ، والطنطورة ، وسانور ، وهي القلعة التي يقيم فيها .

والشيخ ناصيف النصار كبير مشايخ المتاولة مثقل بالجور والظلم على بلاد بشاره .

فالميري على جميع هذه البلاد عموماً معروف إن الحاكم يأخذ من الفلاح الربع من حاصلها ، غير ان هؤلاء الحكام لجورهم وعدم وجود من يمنعهم كانوا بعد ان يأخذوا من الفلاح الربع يرسلون ايضاً إلى البيادر وينهبون غلاتها ، ثم اذا وصل الحاكم الى بلد ما ونزل عليها يأخذ بقر اهلها ليذبحها ويطعمها لمن معه ، فكان الناس لذلك ومن عدم الامن في ضيق لا يطاق[1] وما زال لقطاع الطرق والحرامية في ذلك العهد صداه الخالد في هذه الاغنية القديمة التي يرددها اللبنانيون في بعض القرى :

ارقصي يا مليحة	ارقصي ولا تبالي
بِدَفّ الخشخش	بِنقلِ الجمالِ
زوجك يا مليحه	راح عالشام وحده !
زوجك يا مليحه	بو زيد الهلالي[2]

---

(١) تاريخ ظاهر العمر ص ٢٤ — ٢٥

(٢) مجلة الكلية م ١٠ ص ١٩

عائدات الاقطاعيين في جبل عامل

أما دخل مشايخ المقاطعات في جبل عامل فكان يتألف من موارد شتى:

١ — من جني الاملاك الخاصة .

٢ — مما يربحونه من التزام المقاطعات وجمع اموال الحكومة والضمان اضعافاً مضاعفة من الأهالي .

٣ — من ضمان الأسواق الاسبوعية والباج .

٤ — من المغارم العمومية التي يتقاضونها من جميع ابناء المقاطعة ، والخصوصية التي كانت تفرض على بعض الافراد أو تؤخذ منهم على سبيل الجزاء أو الإعانة أو ما أشبه ذلك من المطالب الكيفية .

الضرائب التقليدية

وهناك ضرائب تقليدية غير مباشرة كان الإقطاعيون يتقاضونها باسم حلاوة ، أو عادة أو شوفة خاطر ، أو عيدية ، أو هدية وتقدمة .

الضريبة باسم عادة

فقد كانت العادة في القرية التي يسيطر عليها الزعيم الاقطاعي تفرض على كل مواطن يتزوج لأول مرة أن يدفع للزعيم « باسم عادة » رسماً يتراوح مقداره بين ما يساوي ١٠ مجيديات و ١٥ مجيدياً أو أكثر من ذلك أو أقل حسب حالة المواطن ومحله بنظر الزعيم .

الضريبة باسم حلاوة

وكانت التقاليد ايضاً تفرض على كل من يتوسل بزعيم اقطاعي لاسترجاع

منهوباته ان يدفع « باسم حلاوة » ضريبة لرجال الزعيم أو للزعيم نفسه وهذه الضريبة تعلو قيمتها وتنخفض على حسب قيمة المنهوبات او على حسب غرض الزعيم من استرجاعها .

وموضع الغرابة في هذه الضريبة ان غالب هذه المنهوبات التي كانت تسترد بواسطة الزعيم الإقطاعي لم تكن تنهب بدون رأيه ومعرفته وسابق تصميمه وربما اتخذت وسيلة لتأديب من تحدثهم أنفسهم بمعارضة الزعيم أو بالطموح إلى التحرر والانعتاق من رق العادات والتقاليد التي تحدد واجبهم نحوه في كل مناسبة وتضغط على إرادتهم في كل آن .

أما الضريبة باسم « شوفة خاطر » فكانت دواعيها كثيرة ومناسباتها عديدة لا يمكن حصرها أو تحديدها بوجه خاص أو مثل معين .

الضريبة باسم عيدية

وكانت التقاليد ولم تزل توجب على أهل القرية او القرى التي يسيطر عليها الزعيم الاقطاعي أن تجمع له في فترة العيد ضريبة كبيرة من الحبوب والذبائح تختلف كمية وقيمة باختلاف حالة البلدة الاقتصادية ومكانتها بين القرى ثم تقدم في طليعة الموكب البلدي « باسم عيدية » .

الضريبة باسم هدية

وكانت العادة ولم تزل تفرض على كل من القرى التي يسيطر عليها نفوذ الزعيم — أن تجمع له — في الاحتفالات بداره للتهنئة أو للتعزية او لاستقبال من يدعوهم الى داره من الحكام الكبار ، أو ما الى ذلك من دواعي الاحتفالات الشعبية — ضريبة وافرة من الحبوب والذبائح وما الى ذلك حسب حالة البلدة ومكانتها ، ثم تقدمها في طليعة الموكب البلدي « باسم هدية وتقدمة » .

وهذه العادات المتبعة من قبل الاهالي يقضي الواقع بأن نعتبرها — كتسخير الاهالي في الاشغال العمومية والخصوصية — ضرائب غير مباشرة لان أهل القرى لا يتحفزون لها بباعث الحب والثقة او بباعث التبرك وطلب الدعاء ولا يقومون باعبائها امتثالاً لواجب انساني أو مقابلة لعادات مثلها سبقت اليهم من نحو الزعيم في مناسبات افراحهم وأحزانهم ذلك بانا لم نر في تاريخ الزعماء شيئاً من هذا بالنسبة لأهل القرى والمناطق الموالية لهم ولأبنائهم ، ولا رأيناهم يبادلونهم بواحدة من هذه العادات الخصبة الخيرة ، وما دامت هذه العادات الخصبة الخيرة لا تحترم الا من جانب واحد ولا يعمل بها الا من قبل الضعيف فهي بحكم الاتاوات والضرائب لا تعبر عن حب واحترام أو ثقة وانما تشف عن خوف وجزع من نقمة الاقوياء المتسلطين أو عن احتياط لدفع مضراتهم وغوائلهم[1].

واذا لاحظ القراء شيئاً من حوادث سنة ١٩٤٤ وسنة ١٩٥١ يوم كان عرب الحمدون ومغاربة ديشوم وأمثالهم من المرتزقة يخرجون مساء من دار الزعيم وهم سفر الاكف ثم يأوبون اليه صباحاً وهم يجر الحقائب وأمامهم قطيع من البقر والماعز ، أو الغنم المختلس من القرى التي كانت تشملها نقمة الزعيم يومئذ كقرية أفرون ، والزقية ، والجوهرية أو كفر رمان .

فان القراء إذا لاحظوا هذه الحوادث وخلفياتها وما كان يعقبها من خوف وقلق عام .. يعرفون بوضوح كيف ولماذا كانت الهدايا تتوارد بكثرة على دور الزعماء من الفلاحين وأصحاب المواشي والملاكين الصغار يوم كان جل هم الناس من الزعيم المرهوب الجانب أن يحميهم من جور موظفي الدولة ، ويحمي أرزاقهم من سطوة الحرامية واللصوص ، وأن يقويهم على أخصامهم حين يختلفون ويعتدي بعضهم على بعض .

---

(١) لاحظ ص ١٥٩ من كتاب مع التاريخ العاملي .

العادات والتقاليد المألوفة في العهود الاقطاعية

التفاخر في الانساب

.. وكان من عادة العامليين كأشخاص واسر عربية التفاخر في الانساب وحرص كل اسرة على الانتساب لألمع القبائل ذكراً في التاريخ العربي والإسلامي وكان يشجعهم على ذلك ما يروى من ان الجاهلين من العرب كانوا يحافظون على انسابهم للتناصر على الاعداء ، او للتفاخر بالآباء ، وفي الحديث النبوي « تعلموا من النسب ما تعرفون به احسابكم وتصلون به ارحامكم » .

وقد وصف ابن عبد ربه النسب بقوله « النسب هو سبب التعارف وسلّم الى التواصل ، به تتعاطف الارحام الواشجة ، وعليه تحافظ الاواصر القريبة [1]. »

واصطلح العرب في انسابهم، ان من كان منهم بني ام واحدة فهم القبيلة، واذا كانوا بني أب واحد وام واحدة فهم بنو الاعيان ، فاذا كان ابوهم واحداً

---

(١) لاحظ ص ٣٧ من من العقد الفريد (م ٢) .

وأمهاتهم شتى فهم بنو العلات، وكان العرب لا يحبون الا من كان مولوداً من ابوين عربيين ، واحتقروا المذرع الذي أبوه أعجمي ، والهجين الذي امه اعجمية ، أما الفصيلة فأهل بيت الرجل خاصة .

يقول ابن خلدون « وكانوا اذا اختلفت الانساب او اختلفت فيها المذاهب وتباينت الدعاوى استظهر كل ناسب منهم على صحة ما ادعاه بشواهد الاحوال ، والمتعارف من المقارنات في الزمان والمكان ، وما يرجع الى ذلك من خصائص القبائل وسمات الشعوب التي تكون مستقلة فيهم متعاقبة في بنيهم » .

(لاحظ الدواني ص ٣١٧)

تفاخرهم بالاسلحة والخيول الاصيلة

كانت الاسلحة في العهد الاقطاعي تنقسم إلى نوعين ، جارحة ، وقاذفة : فمن النوع الاول السيوف والرماح ومنها (البالات) وهي سيوف قصيرة عريضة قليلة الانحناء ، والخناجر ، والقامات ، والسكاكين ، والشاكريات ، وهي خناجر صغيرة ، والفؤوس والبلطات ، والمفاقيص (الكلنكات) وتبارى الامراء والاعيان باقتناء الفاخر منها المعروف بالجواهر .

وأما الاسلحة القاذفة - وهي حديثة العهد بالنسبة للأولى - فقد سمي أشهرها بالبندقية نسبة إلى البندق ، وهو الكرات المستديرة التي تحشى بها ومن أقدم أنواعها أبو فتيل ، لانها كانت تطلق باشعال فتيل غشي بالشمع العسلي وأدني من الحوض ثم اتصلوا إلى أن تكون زنادها من صواف وفولاذ، وكلا هذين النوعين لم يكن سريع الانطلاق ، فاخترعوا بعد ذلك في أواسط القرن التاسع عشر الكبسول ثم اللفائف « الخرطوش » وهكذا ترقت أنواعها وكثرت في لبنان حتى انه أحصي فيه سنة ١٨٤٥ م خمسون الف بندقية ،

ومن أنواعهـا الفرد ، والجفت ، وهو ذو طلقين ، والغدّارة وهي صغيرة تعلق على الجنب ، ومثلها الطبنجة ، والفرد ، أما القربينة ، فهي بندقيـة متينة واسعة الفوهة تحشى بالرصاص الغزلاني ، وتتخـذ هي والغدارات ، والطبنجـات للاحتفـالات فتحشى غالباً بالبارود فقط إذ ذاك ومن أنواع البنادق الزربطانات ، والشرخات وبنادق الخزنة وهذه الثلاث أشبه بالمدافع الصغيرة توضع على مرفع « سيبه » عند اطلاقهـا ولقد اشتهرت البنادق الجوهرة « الجهرية » ولا سيما الدمشقية ، والعجمية ، والجزائرية ، والارناؤوطية ، والمصرية او الابراهيمية وأشهر انواعها الجوهران العجمي والدمشقي ، وقد اشتهر من أنواع الجوهر ما سمي باسم زين الدين أبي حزين والفلنتـه ، وأبي ريشه ، وام عيون وكلها مشهورة باصابة الغرض[1] .

على ان هذه الاسلحة كلها لم تكن موجودة في عهد ظاهر العمر وناصيف النصار ، ولعله لم يكن منها في ذلك العهد سوى السيف والرمح ، والخنجر ، والدبوس ، ثم القربينة ، والغدارة ، والطبنجة ، مع بعض البنـادق العتيقة الطراز ، والمدافع الصغيرة المسماة بالزنبركات .

لاحظ ص ١٤٠ من تاريـخ علي بيك الكبير
حاكم مصر سنة ١٧٧٢ م لمؤلفه محمد رفعت

من تقاليدهم في الزواج

وكان من التقاليد المرعية في العهد الإقطاعي ان لا يتزوج كرائم الاسر النابهة ممن هم دونهم مكانة وقدراً ، فكرائم الامراء مثلاً لا يصح في عرفهم أن يتزوجن ممن هم برتبة المشائخ ، وكرائم المشائخ لا يصح ان يتزوجن ممن هم دونهم رتبـة وجاهاً وهكذا تطرد المقاييس والاعتبـارات ،

---

(١) لاحظ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ من دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف .

المرعية لدى أبناء الاسر النابهة ، ومن هنا كثرت العوانس في بيوت الاسر المحافظة لا لنقص في جمالهن وكالهن بل لشدة محافظة اهلهن على هـذه الاعتبارات والتقاليد .

وحسبك لتطمئن إلى أثر هذه التقاليد والعنعنات في نفوس القوم : أن تقرأ بجمل هـذا الحادث الفظيع الذي يرويه صاحب أخبـار الاعيان على النحو التالي :

« وسنة ١٦٦٠ ولى أحمد باشا الكبرلي الشيخ سرحان العماد على جبـل الشوف مكان الامير احمد المعني وأخيه الامير قرقماس حين اختبأ . وفي ذات يوم طلب أن يتزوج احدى بنات الامراء المعنيين فـلم يؤذن له ، وسنة ١٦٦٤ عندما رجعت الولاية إلى الأمير أحمد المعني وبلغه طلب الشيخ سرحان أمر بقتله وقتل أقاربـه معه فقتلوه وقتلوا ثمانية من أقاربه فلم يبـق من العمادية سوى ذكر فرّ حالاً إلى قرية كامد في البقـاع متنكراً وأخذ يرعى بقراً هناك وسمّى ذاته بعيزق[1] .

أو ان تقرأ ما جاء ص ١٣ من رسالة الشيخ ناصيف اليازجي عن تقاليد اللبنانيين حيث يقول ما نصه : وفي جبل البترون قوم كانوا امراء ذوي شوكة يدعون بنسب الى الأكراد الايوبيين ثم انحط امرهم حتى صاروا من أذل العامة يحرثون ويحطبون وبعضهم يستعطي الناس أيضاً ولكن قـد بقي عندهم اثر من شرف النفس ، فلا يتزوجون من عامة الناس ولا يزوجونهم .

أو تقرأ رسالة الأمير بشير ملحم شهـاب إلى الامراء اللمعيين في العـدد الثاني من أوراق لبنانية ص ٧٣ .

---

[1] لاحظ ص ٢٧١ من كتاب البحث عن تاريخنا و ص ١٧٦ من أخبار الأعيان .

كتاب الامير بشير الثالث الى الامراء اللمعيين

« انه في غرة نوار توجـــه التحرير الى الأمرا بيت ابيلمع .

« ننهي [لخوتكم] انه قبل الآن ارسلنا معتمد يخبر خوتكم ما توقع من الأمير عبدالله بن الامير سعـد الدين ، وان مراده يقترن بابنة جنـــاب الكولونل چرشل .

وبوقته أرسلنا انذرناه ونبهناه ، وعملنا له جميع الوسايط اللازمـة من التهديد والتوبيخ لكي يمتنع عن ذلك ، كون هذا أمر ما جرى في عايلتنـا قط من قديم الزمان . وان عايلتنا لا تقترن مع أحد وان كان صاحب شرف إلا مع خوتكم .

وبوقته كان يجاوب انه امتنع عـن ذلك . وحررنا حجة فيما بينـا انه لا يقترن احد منا ، سوا كانوا ذكوراً او اناث ، بأحد دون عائلتنا وعايلة خوتـكم ، فحواها : اذا اقترن مع احد اجنبي يكون بري منا ونحن بريين منه ونحسبه كأجنبي عنا .

وبوقته أمضى امضى (مكررة) الحجة واشهد عليه بها . هذا ما أخبرنا خوتكم به قبلا بلسان معتمدنا . والآن الأمير عبدالله المذكور قصد الخداع بمضيه الحجة المرقوم فحواها اعلاه ، وما التفت الى حفظ الشرف والطريقة العايدة لنا ولخوتكم بخرق هذه العادة القديمة ، وبقي مرتكب غيه واقترن بابنة الكولونل المشار اليه .

فاقتضى اننا جددنا حجة ثانية بالبراة منه ، ومن ذريته ، وان لا أحد منا يحضر فرحه ولا كرهه ، ولا يوانسه ولا يجالسه ، بـل نحسبه كأجنبي ومضاد لعايلتنا .

وليس انه خالف هذه « العادة » القديمة بيننا فقط ، بل خالف وصية الله الموصي بها شعبه بني اسرائيل : انهم لا يقترنوا بالنسا الغريبات عن جنسهم ، وأي من خالف هذه الوصية كان يقاصصه ، وهذه العادة بقيت محفوظة إلى الآن مع العيال أصحاب الشرف .

هذا فحوى الحجة التي جددناها فيما بيننا وأمضاها الجميع كباراً وصغاراً . وحيث اننا وخوتكم عايلة واحدة فاقتضى اشعار خوتكم بذلك لكي تبقى هذه العادة محفوظة ما بيننا .

مع اقصى المأثور عدم حجب اعلام خوتكم السارة للاطمئنـــان والله يحفظكم »[1] .

عـــادتهم
في العراضة ، والحداء ، والهوبرة

العراضة — حسب قول المؤرخ اللبناني — هي اطلاق البنادق جملة واحدة .

لاحظ ص ٩٦٦ من نزهة الزمان في تاريـخ لبنان.

***

والعراضة حسب ما عرفناه صغاراً في الاحتفـالات الشعبية ــ هي أن يجتمع جملة من الشباب ويمشوا صفوفاً متراصة وهم يحدون بالأناشيد الشعبية المناسبة لظروف الحماسة والفرح ، ثم يطلقون البنادق بين الحين والحين .

وعندما ينتهون بسيرهم الى ساحة كساحة البلدة أو ساحة الوجيـه او ساحة العريس يتوقفون ويختمون حداءهم « بترويدة » طويلة تنتهي بلفظة

---

(١) لاحظ ص ٧٣ ج ٢ من مجلة اوراق لبنانية السنة الاولى .

« ياهو » يشترك الجميع في تنغيمها مع اطلاق بنادقهم جملة واحدة لدى ترنيم « ياهو » ، ويقال لهذا الاشتراك العام في اطلاق البنادق وفي ترنيم ياهو ، « الهوبرة » بعرف بلادنا العاملية في جنوب لبنان .

* * *

وكان من عادة أهل القرى العاملية في الأعراس أن يوزع العريس او أهله قدراً من البارود على كل شاب يحمل جفتاً « بندقية بطلقين » او بارودة « بندقية ذات طلق واحد » ليجتمعوا في بيت أهل العروس او ليقفوا عند الباب وحوله لدى اجراء عقد النكاح وعندما يتم العقد أو تؤخذ الوكالة من العروس باجراء العقد يطلقون النار من بنادقهم المحشوة بالبارود دفعة واحدة ليسمع لها دوي كبير كدوي الألغام والمدافع ، ثم انهم بعد ذلك ينطلقون بعراضة من بيت أهل العروس الى بيت أهل العريس وهم ينشدون بنغم الحداء :

الله يتمم هلفرح بسعد وسرور وهنا

حتى إذا وصلوا لساحة بيت العريس أو للساحة العمومية في البلدة وقفوا ملتفين حول بعضهم ورؤوس بنادقهم مشرعة الى العلاء وختموا حداءهم بترويدة طويلة تنتهي بلفظة « ياهو » يشترك الجميع ايضاً بترديدها في صوت عال ثم يطلقون بنادقهم جملة واحدة لدى المناداة « يا هو » أي يا هؤلاء السامعين .

* * *

ثم انهم بعد ان ينتهوا من الهوبرة يأخذون بايدي بعضهم البعض ويؤلفون حلقة الدبكة المعلومة ، وفي اثنائها يقدم أهل العريس المتحلقين ماء السكر على النحو التالي ، رجل منهم يحمل حلة من الماء المحلّى بالسكر وآخر يحمل

كأسين من زجاج بيديه يغرف بهما من الحلة ويوزع على « الدبيكة » واحداً بعد واحد ، وتبقى الدبكة عامرة برهة من الزمن وحين تنتهي يمشي الجميع منشدين الحداء التالي :

يخلف عليكن يا شباب   ويعيدكن لأمثالهـــا

***

أما عندما يتداعى شباب البلدة لمعايدة زعيم أو للاحتفــال بعودته من مهمة خطيرة او لحضور عرس في بلدة ثانية ، فكانوا في الوقت المعيّن للسفر يخرجون البيرق الكبير الى الساحة العمومية وينصبونه في قلبهــا ليقف إلى جانبه دقاق الطبل ويدق دقاته العالية وينشد مع الحاضرين :

يا طبل اضرب ساعتك   واجمــع شباب الغـايبي

وعندها يتسابق الشباب المتخلفون إلى حيث يضرب الطبل ويرف البيرق واذا ما تباطأوا عن المجيء إلى الساحة يسير من حضر منهم بالطبل والبيرق الى خارج البلدة بالحداء البلدي المناسب لمثل هذه الساعة ويقفون هنيهة الى ان يتكامل اجتماعهم ثم يسيرون إلى حيث دعوا وهم يطلقون بنادقهم مــع أصوات الحداء المتفائل ، حتى إذا بلغوا المحل المقصود وقفوا جرياً على العادة المتبعة في مثل هذا المقام ــ وهتفوا بالترويدة المناسبة وختموهـــا بقولهم « والدار ما هو لنا يا هو ؟ الدار لابو « فلان » اللي بسيفو حماهـا يا هو ؟ » وعند ذلك يطلقون الرصاص والبـــارود ختاماً للترويدة، ثم انهم يتفرقون ليؤلفوا حلقة الدبكة المعلومة : واذا كان المدعوون إلى هذا الاحتفال أكثر من أهالي قرية تبارى الأقوياء من شباب كل قرية في نشل العمدة المرمية في ساحة البلدة ، وإذا صادف ان كانت مع المدعوين خيول كثيرة نصبوا الميـدان وتبارى الفرسان في لعب الجريد .

عادة الدبكة

وانما سميت هذه الرقصة الشعبية بالدبكة ، لانها تعتمد في جل حركاتها على رفع أرجل المشتركين فيها سوية وضربها بالأرض ضربة واحدة تتكرر وتتفاوت شدة ولينا وكيفا حسب الجو ، وحسب أوزان الاغاني والتواقيع الموسيقية .

والدبكة لا تسوغ لديهم إلا في أجواء السرور والفرح كجو الاعياد والأعراس والمفاجآت السارة .

وتبدأ بان يشرع دقاق القصب في دوزنة الشبابة أو الناي أو المجوز على لحن خاص من الحان الغناء كلحن دَلعونا ، أو اغزيل ، وعندها يتقاطر المجتمعون من الشباب أو من الصبايا أو من الجميع إلى الاخذ بأيدي بعضهم بحيث يشكلون من اصطفافهم يداً بيد شبه حلقة يتوسطها دقاق القصب .

ثم يأخذون في رقص الدبكة ، فيشرعون في رفع كل منهم سوية رجله الى الامام ثم يضربون بها جميعها الارض ضربة واحدة من حيث يرفعون الرجل الاخرى الى الوراء بهدوء وينتقلون بها من مكانها الى ما يليها من الأرض مع مراعاة التناسق والانسجام في الحركات .

ولا تمضي فترة ، على هذه الحال حتى تشتد الحماسة والمرح ، ويشتد قفز الراقصين بأرجلهم جميعاً إلى أعلى ، ثم يضربونها في الارض ضربتين أو ثلاث ضربات قوية متناسقة ، ثم يعودون سيرتهم الاولى . وهكذا تتنوع الحركات والحالات ضمن دوران الصف وتحركه بانتظام .

وكلما تعالت أصوات الغناء البلدي وتناسقت مع ألحان المجوز او الشبابة وكان محتواها منسجماً مع الجو العاطفي المسيطر .. تشتد وتسرع حركات

الارجل والخصور والاعناق وتنطلق الهتافات الحماسية وتتجاوب الزغاريد مع طلقات الرصاص ولعلعة البارود وتغمر النفوس موجة من المرح والنشوة لا حدود لها .

وكلما تنوّعت الاغاني وتنوع تلحينهـا على المجوز او الشبابة تتنوع حركات الدبكة وتتفاوت ضربات الارجل واهتزاز الخصور والاعناق رشاقة وخفة وزهواً .

* * *

وكان من محسنات الدبكة ومن مظاهر كمالها في عرفهم أن يكون الذي يقطر على الحاشية — أي على رأس الحلقة وطرفها الايمن — شاباً معتدل القامة ، أنيق المظهر ، رشيق الحركة ، سريع الخاطر ، فصيح اللهجة بارعاً في الرقص الشعبي وخصوصاً حين يكون بيده سيف أو بالة او منديل ، ويكون الشاب القاطر الى جانبه مناسباً له في الطول والرشاقة ، ومتجاوباً معه في الحركات الفنية والاشارات الرمزية ، ومن هنا أخذ المثل الشعبي القائل « خذ المقطع من حاشيتو ، والمنصب من كارخيتو » اذ المراد بالمقطع هنا مقطع الدبكة وحلقتها وبحاشيتو ، الشاب القاطر على حاشية الحلقة وبمستواه في حسن الطلعة وأناقة المظهر ، أو في رشاقة الحركات والإشارات ودقتها في الايحاء والانسجام مع الجو ، كما ان المراد بالمنصب الزعيم الاقطاعي وبكاخيتو ، مستشاره ومدبر شؤونه ، او نائبه ووكيله .

* * *

ومما يزيد الدبكة طرافة وأناقة وانسجاماً ، التحاق قصار القامة من الشباب بمؤخر الحلقة والصف ، أي ان يقطر على ما يسمونه « الجحشة » من مؤخر الحلقة ، فان قصير القامة حين يكون على شيء من خفة الروح وسرعة الخاطر في ملاحظاته ومفارقاته أو في أغانيه وهتافاته .. يتسنى له من هذا الموقع المتواضع أن يغمر جو الدبكة بفيض من البهجة والسرور

وان يلفت النظر اليه والى تقدير مكانه وهو على « الجحشة » أكثر مما لو
كان بغير هذا الموقع من الحلقة كالحاشية « مثلا » التي لا تليق بنظرهم الا
لطويل القامة وأنيق المظهر .

العمـــدة

والعمدة بفتح العين وسكون الميم حجر مربع الاطراف يختلف وزنـــه
– حسب سن الشباب المتنافسين ومستوى قدرتهم – بين الأربعين والسبعين
كيلوغرام ، يحفر في وسطه حفرة مربعة الجوانب بطول (٩) وعرض (٩)
وعمق (٩) سنتيم ليوضع في قلبهـــا وضعاً محكماً قطعة مصقولـة من عود
السنديان تملأ الكف ليسهل على المتنـــافسين من الشباب نشل ذلك الجرن
(العمدة) من الارض الى اعلى الرأس والهامة نشلة واحدة يقف بها الناشل
منتصب الساعد والذراع ليشهد له الناس ويهتفوا قبل ان يرميها الى الارض
وينشلها غيره كما نشلها هو في دوره .

الميدان وألعاب الفروسية وتقاليدها

كان جل أوقات الحكام والزعماء الاقطاعيين فراغاً في فراغ ، إذ لم يكن لديهم أنظمة مرعية ولا ادارات منظمة ولا سجلات ولوائح واوقات دوام تدعوهم لامعان النظر والتفكير والعمل بمقتضاها ، أو تحملهم مسؤولية كل خطأ أو خلل أو تهاون بواجباتها او بواجباتهم كحكام وقادة وزعماء مسؤولين ، وانما كانوا يتصرفون بمقدرات البلاد وحقوق الشعب على هواهم ، أو على ما يفرضه العرف القبلي أو العادات الاقليمية ، واذا ما احرجتهم الطوارىء في مشكلة قانونية او شرعية أحالوها الى رجال الدين واستراحوا من موبقاتها ومن مغبة ما يترتب على حلها او تأزمها من مشاكل وشواغل زمنية ، واذا ما اضطرتهم المناسبات والمفارقات السياسية الى خطاب بليغ او جواب محكم الحجة والعبارة ، اعتمدوا في مثل هذه الحال على ما يليهم من اعلام الشعر والأدب في عصرهم وفي مقاطعاتهم كما كان يعتمد حمد البك وعلي بك الاسعد على الشيخ عبدالله البلاغي والشيخ علي سبيتي مثلاً . (=١)

ثم اذا كان لهم من شغل جدي مفروض ، فهو على ما تقتضيه المناسبات الخاصة بهم وبمصالحهم كمحاسبتهم لوكلاء املاكهم ، او استقبالهم لضيوفهم ، وتلطفهم الى زوارهم ، وقضاء حاجات اصحاب الحاجات ممن يرضون عنهم .

وأما ما تبقى من الاوقات — وهو كثير — فقد كانوا يصرفونه كله أو جله في الملاهي البريئة كالاحتفـــاء بشتى الالعاب الاقليمية من (الدبكة) (٢) وحلقات المعنى والعتابا او الرقص الافرادي على دق الطبـل والرباب والمجوز والناي ضمن دائرة من المغنين والمصفقين ، ولعبة « الحكم » لعبـة السيف والترس ، أو نشل « العمدة » « بفتح العين وتسكين الميم » (٣) ومـا الى ذلك من مظاهر التسلية . وكان لهم في الميدان والعـاب الفروسية وفي الصيد والقنص عناية خاصة تستهلك جل اوقاتهم وخصوصاً في فصل الربيع موسم صيد الفري ، وفي فصل الخريف موسم صيد الحجال وترويض الخيل وتمرين الفرسان على اعتقال الرماح أو لعب الجريد .

مظاهر الفروسية وتقاليدهـــا

مثـلت الفروسية وتقاليدهـــا دوراً مهماً في بلادنا ، فكانت من أبرع مظاهر حياتهم العسكرية والرياضية فضلاً عن وثيق علاقتها بالحياة السياسية والاجتماعية إذ كان فيها العز والجاه وفيها القوة والمنعة وكان في الحديث عن مآثرها وماضيها لدى القادة والساسة .وعن منافع الخيل ومضارهـا وعن محاسنها وعيوبها وعن كرائمها وما قد نظم فيها من اشعار وأرسل من اقوال مأثورة وما صنف حولها منقصص وحكايات وأساطير بارعة.. ما يمتع السمّار ويرفع معنويات الفرسان ، ويخلق حول القادة هالة منالتقدير والهيبة والرهبة تحكم الالفة والمودة بينهم وبين الاصدقاء كمـــا تعصمهم من كيد الاعداء أو مغامراتهم .

وكان لميدان الخيل في جبل عامل خاصة مظاهره المتنوعة من خيـولة الرمح إلى المبارزة بالسيف ، إلى اللعب بالجريد ، الى الطراد المنظـم ، الى السباق ، الى غير ذلك من مظاهر الفروسية ومن براعة التمثيل البهلوانية على ظهور الخيل ، كوقوف الفارس على رأسه بجـانب القربوس «٤» والفرس غائرة على مداها أو لمه للحجارة وهي سابحة في الميدان ، أو مروره من تحت بطنها او نزوله عنها وركوبه عليها وهي كذلك .

وكان لكل نوع من انواع الخيولة اصوله وشروطه واعلامه اللامعون .

خيولة الرمح :

وكان من أبرع مظـاهر الميدان وتقاليده المحترمة أن تترتب الفرسان وتنقسم الى قسمين : قسم الى اليسار وقسم الى اليمين ، وان تصطف الخيـل ريشة «٥» أو صائبة «٦» على جانبي الحلبة ، وأن يبدأ الميدان بخروج أحد الفرسان ـ معتقلاً رمحه على نحو خاص ـ ثم يطلع على حافة الصائبة التي هو منها منحرفاً الى اليمين بشكل شبه قوسي حتى اذا بلغ ثلثي المسافة ـ بـين الصفين او الصائبتين ـ رفع يده اليمنى الى أعلى وهز كفه محيياً عقيد الصائبة المقابلة لصائبته بقوله : « من عيّن افندينا » « بفتح ميم « من » » « وتشديد الياء من عيّن » أو بقوله : « من عيّن راعي الحمرا أو الزرقا او الدهماء » . فيوجه له العقيد من يراه كفؤاً من فرسان تلك الصائبة . واذا لم يكن للصائبة عقيد يحيي الطالب من يختاره من فرسان الصائبـة بقوله : « من عين بكسر الميم من «٧» « من » وفتح العين وتسكين الياء وتسهيلها من « عين » راعي الشقرا أو الحمرا أو الزرقا ... الخ » أو بقوله « من عيّن أبو فلان أو فلان الى غير ذلك من الالقاب والكنى... فيتوجه هذا المطلوب نحوه معتقلاً رمحه على نحو خاص كذلك ويجري فرسه على حافة الريشة الى اليمين بشكل شبه قوسي معاكساً لطلوع خصمه وقد يكتفي طالب البراز برفع كفه والإشارة

بها الى مطلق من يبارزه من الفرسان بدون أن يتفوه باسم أو لقب يميزه او يخصصه عن غيره من الفرسان ، فيتوجه له من الصائبة المعينة من يرى في نفسه الميل والقدرة على مبارزته . وفي اثناء السير يعالج كل من الفارسين رمحه فيغير من وضعه كأن يجعل رأس الرمح بحذاء الركاب الأيمن ويسوي بين رأسه وأسفله في الارتفاع ويواصل المعالجة بحركات متناسبة مع سير الفرس وتدرجه في سرعة الخطا أو مع مستلزمات التسديد والدفاع بالرمح من حيث الارتفاع به والانخفاض وتغيير أوضاع الرمح يمنة ويسرة . وعندما يتقارب الفارسان من بعضهما يلتف أحدهما على الآخر ويأخذ كل منهما في التجـوال والطواف بازاء قرينه أو خصمه ـ ضمن دائرة مفرغـــة ـ وعين كل منهما مشدودة الى الآخر وسنان رمحه مسدد نحو صدره حتى اذا لمح غفلة منه او انحرافاً أو حركة مريبة ، كسر عليه وهز الرمح أو الخيزرانة في وجهـــه اشعاراً بأنه قد استحكم منه وغلبه وقد يحذفه بالخيزرانة لنفس الغاية .

مبارزة السيف :

انها نسخة طبق الأصل عن المبـــارزة بالرمح ولا فرق إلا بأن يكون السيف مشهوراً بوجه الخصم بدلاً من تسديد الرمح نحوه حتى اذا شعر أحد الخصمين بانحراف أو غفلة او حركة مريبة من صاحبه أومأ بالسيف نحـوه أو علم به عليه . ولا يجوز لاي من المتبارزين أن يستهـدف بضربته الفرس بل الفــارس بذاته ليتسنى لهذا الاخير أن يرد ضربـــة السيف بسيفه او يصدها بترسه .

ولعل « لعبة السيف والترس » على الارض هي أقرب صورة للمبـــارزة على ظهور الخيل . فكل منها يقتضي المران واجادة المطاردة والمقـــارعة والمقابلة وابطال ضربات الخصم .

لعب الجريد :

وأما لعب الجريد في الميدان فانه كان يبتدىء ببعض المقدمات والمظاهر التي أشرنا اليها فيما تقدم من خيولة الرمح ، بيد انه لا يتحتم على الطالب هنا أن يعين المطلوب للمبارزة فمطلق فارس في الصائبة يحق له أن ينطلق وراء الفارس الذي يرد رأس فرسه عن الصائبة .

واذا انطلق فارسان خلف الطالب الذي يرد رأس فرسه نحو الصائبة الاخرى فالاسبق منهما يكمل الشوط والثاني يعود او يرد بقوة الى صائبته .

وينبغي للفارس الذي ينطلق في اثر الطالب أن يتدرج في حالات السير من الخفيف الى السريع الى الاسرع الى أن يتجاوز ثلث المسافة .

وعندئذ يدفع فرسه ويطلق لها العنان في اتجاه خصمه حتى اذا تجاوز نصف المسافة أو قارب الثلث الأخير من الحلبة ، قذف خصمه المتقدم عليه بالجريدة «٧» ثم انثنى راجعاً ليكر عليه خصمه أو يبرز اليه فارس آخر من الصائبة . وهكذا دواليك الى ان ينتهي الكر والفر او تنتهي المدة .

ومن لوازم هذا النوع من الخيولة أن تظل عين الفارس السابق من المتبارزين تراقب حركات اللاحق منهما ليتوقى جريدته وضربته بالوسائل الخاصة مثل انحناء الرأس او الميل بصدره الى الشمال او اليمين من عنق الفرس ومثل الامتداد مع ظهر الفرس بحيث يصعب على الخصم أن يفرق بين جسم الفرس وجسم الفارس .

ثم ان من الاصول المحترمة في جميع انواع الخيولة — خيولة الرمح ، وخيولة المبارزة بالسيف ، وخيولة اللعب بالجريد — أن يحترس المبارز من ان يستهدف بطعنته أو ضربته جسم الفرس بدل جسد الفارس وخصوصاً في خيولة السيف ، ليتسنى للخصم أن يرد ضربة السيف بسيفه أو يصدها بترسه .

الطراد المنظم : (٨)

أما خيولة الطراد فلا يلزم معها أيضاً طلب مبـارز . فأي فارس يرد رأس فرسه وينطلق أمامك لك أن تطلب وراءه وتطارده . ولا يمتاز الطراد عن غيره من انواع الخيولة إلا بأن يبذل الفـارس اللاحق جهـده بان يدرك الفارس المنطلق أمامه ويعلم عليه ولو بضربة عصا او غصن زيتون . ثم بأن يبذل الفارس السابق كل امكانياته كي لا يمكن طالبه من الفرسان أن يدركه او يعلّم عليه ولو بالتلويح وهز العصا «٨» .

وكان من عوائد أمراء الحرافشة وغيرهم من — المناصب والاعيان — عند الشروع في لعب الجريد أن يقول لهم ملاعبهم ومبارزهم : « كيف الميدان » فان قالوا له : « ميـدان علي نَضْرِبُ وَنُضْرَبُ » كان لكل من يلاعبهم ويبارزهم ان يرميهم بالجريد ، وإلا فانه يرميهم بالطربوش وما شاكله نعومة بينما يرمونه هم بالجريد «٩» .

خيولة السباق :

أما خيولة السباق فكان من شروطهـــا الأساسية أن يقف الفـارسان بفرسيهما أمام النظارة الواحد بازاء الآخر ورأس الفرسين وحوافرهما متساوية في خط مستقيم لا التواء فيه ثم انهما بعد هـــذا التوازن يدفعان فرسيهما وينطلقان نحو الهدف المعيّن فمن سبق اليه وأخذه او تجاوز مكانه وتعداه فهو السابق بعرف الجميع . ومن تخلف عنه ولو بشبر واحد فهو المسبوق .

من عادات الفرسان وتقاليدهم

ومن التقاليد المرعية لدى الفرسان أن يلاحظ الفارس قبل الركوب احكام سرج الفرس وشد حزامه حين لا يتولى هو بنفسه امر ذلك . ثم ان يلاحظ

فيما بعد اوضاع اللجام : قوسه ولسانه وحلقته وعذاره وعنانه ، ومدى قوة كل منها ومستوى حجمـــه ومناسبته سعة وضيقاً وثقلاً لحجم رأس الفرس وسعة فمه وطول شدقه وعنقه ، واختلاف سنه وطباعه حدة ومرونة .

ثم يلاحظ مع اوضـــاع السرج والحزام « سير الركاب » والابازيم ومدى قوة كل منها وصلاحيته للاستعمال ومناسبته لحجم هيكل الفرس ولأوضاع الفارس مع فرسه ، ثم عليه — بعد ان يمتطي ظهر فرسه — أن يثبت صدر قدميه في الركاب ، وأن يحكم ضبط فخذيه ويلزم بهما موضع دفتي السرج من ظهر الفرس . ثم أن يزن عنان اللجام وذلك بان يقبض عليه بيسرى يديـــه ويساوي بين طرفيه فلا يدع طرفاً أطول من طرف ، ثم يضع اصبعه الوسطى بين الطرفين ، ويطوي ما زاد منهما بين الخنصر والبنصر من أصابع يـــده ، ثم يشد اليه بالعنان بحيث لا يترك منه شيئاً يتأرجح بين شدق الفرس وكاهله أو بين اللجام والقربوس ، ثم يضع قبضة يده على القربوس ويمشي .

وعندما يمشي الى الميدان فليس له أن يشد عنـــان فرسه أو يحبسه أو يرخيه إلا بقدر ما يراه مناسباً لطباعه وحالاته وأماكن سيره وجريـــه . نزولاً أو صعوداً وسهلاً أو جبلا إذ للنزول في العقبات قدر من الحبس لعنانه وللاستعراض في أول الميدان قدر ولرد رأسه في آخر الشوط قدر بين الجذب والحبس ، وعندما تكون الفرس سابحة في قلب الميدان أو مندفعة في جريها ، أو صاعدة في عقبـــة كؤود ، لكل حالة من هذه الحالات قدر من ارخاء العنان ومده وشده يتناسب مـــع طبـــع الفرس حدة ومرونـــة أو مع طول عنقها وقصره ، فان التثبت في الركاب وضبط الفخذين بدفتي السرج ، ووزن عنان اللجام امور يعتبرها البارعون بركوب الخيـــل أساس كل فروسية في الميدان .

ثم على خيال الرمح ـ بعد ان يستوي بظهر فرسه أن يعتقل رمحه ويضعه تحت ابطه الأيمن ممتداً الى مؤخرة السرج خلف الفخذ الأيمن وان يجعل سنان

رمحه بين اذني الفرس أو قرب اذنه اليمنى . ثم عليه عندما يتوجه بفرسه الى الميدان أن يحافظ على الانحراف بكتفه الأيسر نحو عنق الفرس وناصيتهـا وذلك وقاية لصدره ولوجهه من طعنات الخصم او من ضرب الفرس بعنقها او برأسها عندما يحبس عليهـا أو يشدها الى الوراء او عندما تجفل من شبـح مفاجيء فان بعض الخيل لحدة في طبعها أو لخطأ في ترويضهـا قد تشب أو تقف على رجليها وتضرب برأسها أو عنقها ضربات لها خطرهـا على الفارس إذا لم يكن متحسباً لمثل هذه المفاجآت العنيفة .

ثم كان من التقاليد أن يكون لكل صائبة أو ريشة خيـل عقيد خبير بآداب الفروسية وعـارف بمستوى قدرة الفرسان على تطبيق اصولها وشروطها عملياً .

وكان من الأصول أن يقف عقيد الخيل على يمين الصائبة وحافتها وان يتقدم صفوفها بمقدار مائة سنتي بحيث يتمكن من الاشراف على جميـع افراد الصائبة أو الريشة ليحكم توجيههم ويختار من فرسانهم من يرى فيـه الكفاءة لمبارزة الطالب من الصائبة الثانية المقابلة .

ومن الاصول أن لا يقرب الطالب للمبارزة او ان يصل الىصائبة المطلوب من الفرسان أو على مستوى موقف عقيد الصائبة حين يكون لها عقيد .

كما انه لا يحق للمطلوب من الفرسان أن ينطلق خلف الطالب قبل أن يرد هذا رأس فرسه نحو الصائبة التي انطلق منهـا لئلا يفاجئه او يأخذه على حـين غرة .

ومن الاصول المحترمـة في لعب الجريدة ان لا يطلق جريدته قرب صائبة الخصم لكي تكون الجريدة مستهدفة للخصم وحده لا لغيره من الفرسان .

ومن الاصول ايضاً أن يرجع المطلوب عن مطاردة الطالب الى داخل صائبته أو ريشته . واذا دخل وراءه الى حرم الصائبة فللمقيد أن يؤدبه حسب ما يريده له ، شرط ان لا تكون فرسه شروداً . وكانوا – حرصاً على تطبيق هذه الشروط والأصول المرعية – يلجأون عندما يعمر الميدان الى لجنة من الخبراء تراقب حركات الفرسان وتقرر مدى التزامهم بأصول الفروسية وتقاليدها وتنبه الى مكان الضعف والخلل في تصرف اي فارس منهم ثم تحكم للمصيبين والمتفوقين كما تحكم على المخطئين والمتخاذلين كل بما يستحقه من تقدير واحترام او من لوم وتوبيخ .

صور ومشاهد من العادات والتقاليد

اذا لاحظنا ان المماليك الذين كانوا يجلبون من خارج البلاد العربية ، كانوا يتعلمون لغة البلاد ويتثقفون بثقافة اهلها ، ويلبسون لباسهم ، ويتسلحون بأسلحتهم ، ويتدربون حسب عاداتهم وتقاليدهم على استعمال الأسلحة وركوب الخيل واتقان الفروسية .

ثم لاحظنا ان قادة العامليين ورجالهم ، في عهد علي بيك الكبير حاكم مصر ، وأحمد باشا الجزار ، وسليمان باشا ، وعبدالله باشا وغيرهم من الولاة قد لابسوا المماليك وجاروهم في الأزياء والألبسة ، واجهزة الخيل وفي استعمال الاسلحة والتمرين على ركوب الجياد واتقان الفروسية .

ثم لاحظنا بعد هذا تلك الصور التي رسمها الرحالة (جون كارن) للاغنياء والفلاحين من أهالي البلاد العاملية واللبنانية يوم جابها من الناقورة الى زغرتا عام ١٨٣٨ م ولاحظنا ان تلك الصور جملة وتفصيلاً لا يختلف بعضها عن بعض زياً وشكلا وترتيباً ولا يتميز فيها لباس المماليك وازياؤهم عن لباس غيرهم من اللبنانيين والعامليين :

بدا لنا من خلال هذه الملاحظات ان البسة أهل جبل عامل وأسلحتهم وأجهزة خيلهم وتمارينهم في الميدان لم تكن لتختلف وتتميز من حيث الشكل والسمت عما نراه في هذه الصور والملامح والاوصاف التي رسمها الرحالة الفرنسي « فولني » للمماليك ص ١١٢ — ١١٧ من رحلته « تعريب البستاني » حيث يقول عن :

١ — البستهم :

قميص واسعة من نسيج قطني ناصع اللون ضارب الى الصفرة ، يعلوها رداء كالمبذلة من كتان الهند او من نسيج دمشق او حلب . وهذا الرداء المسمى بالعنتري ينحدر من العنق حتى الكاحلين ، وينضم جانباه على مقدمة الجسم حتى الوركين حيث يثبت بتكتين . ويعلو هذا الرداء رداء آخر بشكل الأول واتساعه ، يصل كاه الواسعتان حتى رؤوس الاصابع ، ويسمونه القفطان . ويصنع عادة من الحرير ، وهو أثمن من الرداء الأول .

وثمة منطق طويل يضم الرداءين معاً الى القد ويقسم الجسم الى حزمتين . أضف الى ذلك قطعة ثالثة من الجوخ غير المبطن هي الجبة . ولا يختلف شكلها عن القطعتين الأولين اجمالاً ، سوى ان كميها مقصوصان عند المرفقين . وهذه الجبة تكسي ، في الشتاء وغالباً في الصيف بالجلد فتصبح فروة . وفوق هذه الغلافات الثلاثة يأتي معطف رابع يرتدى في الاحتفالات وهو يغطي بجمل الجسم ورأس الاصابع ، اذ يرون في كشفها امام العظماء ما ينافي الحشمة والادب . ويبدو الجسم تحت هذا المعطف مثل كيس طويل ويخرج منه عنق عار ورأس حليق تعلوه عمامة . وعمامة المماليك تسمى «القاووق» وهو على شكل اسطوانة صفراء تحيط بها لفافة من الشاش منتظمة الاستدارة . وينتعلون حذاء من الجلد الأصفر يكسو الرجل حتى العقب ، وخفاً بلا حوافي معداً لان ينزع في الطريق . أما الثوب الغريب فهو السروال ، لانه من

السمة بحيث يصل الى الذقن طولاً ، وكل ساق من ساقيه تسع الجسم كله .
ويصطنعه المماليك من جوخ البندقية ، وهو أكثر سماكة وأنعم ملمساً من الصوف الخشن . ولهذا السروال منطق ذو حجزة يعقد على الاقسام المدلاة من الثياب التي ذكرناها وتضم جميعها تحت السروال تيسيراً للمشي .

ثم يقول المؤلف نفسه « ص ١٠٠ » من تعريب السيوفي للجزء الثاني :
عن البسة السوريين بما فيهم أهل جبل عامل « وملابسهم التي نفقاتها ليست بيسيرة لا ازرار لها ولا ابازيم ولا شيء من تلك الاشياء التي لا بد منها للاوروبيين فهي مؤلفة من سروال كبير واسع يقوم في آن واحد مقام الجوارب . ومن قطعة يشدونها على وسطهم وثلاثة اثواب يلبسونها الواحد فوق الآخر على منوال المماليك » .

٢ – اجهزة خيلهم :

ان المماليك ما برحوا على ذهنية القرن التاسع ينقادون أبداً للعادة ويوسقون الحصان بعدة ضخمة الهيكل ، مثقلة بالحديد والخشب والجلد .
يعلوها من وراء قربوس يرتفع ثمانية قراريط ويغطي الفارس حتى رأس الورك ، ومن امام قربوس آخر يهدد صدره اذا ما انحنى ، ويستعيضون عن الصفة تحت السرج بثلاثة اغطية صوفية سميكة ، ويثبت كل ذلك في السرج بحزام يمر فوقه ، ويربط ليس بأبازيم ذات شوكات ، بل بسموط معقودة قليلة المتانة كثيرة التعقيد . وسروجهم واسعة المقدمة ولا سير لها في المؤخرة ، مما يجعلها تسترسل على كتفي الفرس . «١١» والركب لوحات من النحاس تفوق الرجل طولاً وعرضاً وترتفع حوافيها مقدار قيراط ، وهي تتدلى من العرى ولهذه الركب زوايا حادة كالشفار تستعمل عوضاً عن المهاميز لتفتح في كشوح الجياد جراحاً مستطيلة . ويزن الركابان عادة عشر ليبرات ، وكثيراً ما تزنان اثنتي عشرة ليبرة « الليبرة ٥٠٠ غرام » أما السرج

والأغطية فلا تزن أقل من ٢٥ ليبرة ، بنــوع ان الفرس يحمل ستاً وثلاثــين ليبرة (١٢) وهذا الأمر مستغرب خصوصاً وان الخيل في مصر صغيرة القدود . والزمام ينتهي بحلقة حديدية تضغط على الذقن حتى تكاد تقطع الجلد ، ممــا يحمل الفرس محطم جانبي الفكين ولا فم له «١٣» . ذلك ان المماليك يرجّون اللجام رجّاً عنيفاً فيطلقون العنان للفرس ثم يوقفونه بغتة في أشد حالاتــه انطلاقاً واذ يشد لجام الفرس تتصلب قوائمه ويطوى عرقوبــه وينزلق بجملته قطعة واحدة كأنه حصان خشبي «١٤» ومن المعلوم ان هذه الطريقة تتلف الفم والقوائم بتكرارها على ان المماليك يجدون فيها اناقة وهي تتفق مــع أساليبهم في القتال .

٣ – اسلحتهم :

سلاحهم الأول « قرابينة » انكليزية ، طولها ثلاثون قيراطاً ، وعيارها من القوة بحيث تطلق عشر رصاصات او اثنتي عشرة في وقت معــاً ، بنوع انها قاتلة وان لم تحكم رمايتها . ويحملون في اوساطهم غدارتين مشدودتين الى الثوب ببريم من الحرير . وتتدلى من القربوس ضمة من الاسلحة يستعملونهــا للقتل ضرباً . ويتدلى من حمالة في جنبهم الأيمن سيف معقوف قلمــا نشاهد نظــيره في اوروبا ، طول نصله في خط مستقيم أربعــة وعشرون قيراطاً ، واذا قيس انحناؤه فثلاثون قيراطاً . ولهذا الشكل الذي نراه مستغرباً ، ما يبرره عندهم . فقد دل الاختبار على ان النصل المستقيم يقتصر فعله على موقع الضربة وحينها . لانه لا يقطع إلا بالضغط في حين ان النصل الأعوج ينزلق بقوة الذراع تقهقراً ويتسع مدى فعله . وخصائص السيف المفضــلة عندهم ، خفته وصفاء معدنه ورنينه وتموج حديده وبوجه خاص رقة شفرته .

٤ – تدربهم وتمارينهم :

وكان التدرب على استخدام هذه الأسلحة شغلهم الشاغل طوال الحياة . يخرج معظمهم صبيحة كل يوم الى سهل حيال القاهرة ، وهناك يطلقون أعنة

الجياد ، ويتـدربون على أخذ القرابينة برشاقة وتسديد الرماية فيهـا ، ثم يضعونها تحت الفخذ وينتزعـون غدارة يطلقونهـا ويرمونهـا مـا وراء الكتف ، ثم غدارة ثانية تمر بالتجربة نفسها ، متكلين على البريم الذي يشد كلتا الغدارتين الى الثوب . فيشجعهم البكوات الحاضرون . ومن تمكن منهم من حطم الهدف ، وهو عبارة عن اناء من خزف ، ذهبت اليه التهـاني والمكافآت .

ويتدربون أيضاً على معالجة السيوف ، وبنوع خاص على تسديد الضربـة من الشمال الى اليمين ، وتتجه من الأسفل الى الأعلى . وهي أصعب الضربات على من يتقيها . وهم على قسط من المهارة بحيث ان الكثيرين منهم يقطعون بسيوفهم الحادة كتلة من القطن كما يقطع قالب الزبدة . وأحب التمارين اليهم لعب الجريد ، والجريد معناه القصبة ويطلق على كل عصا تقذف باليـد : يتسلح الفرسان بهذه الحراب من العصي ويخوضون الميدان ، ثم تنطلـق بهم الجياد عدواً فيرمون الجريد عن بعد فاذا ما رمى المهاجم الجريد انثنى فيلحق به من يليه ويرمي الجريد بدوره وتؤاتي الجياد فوارسها مؤاتاة تحسب معهـا انها في مثل اغتباطهم . على ان هذه الغبطة شديدة المخاطر ، فثمة سواعد ترمي بشدة فتأتي ضرباتها جارحة بل قاتلة «١٥» .

الهوامش والتعليقات

١ ــ لاحظ الصفحة ٦٦٨ من مخطوطة الشيخ محمد مغنية حيث تنص على ان حمد البك نفسه قد كلف الشيخ علي سبيتي وطلب منه أن ينظم له خطاباً ليهديه باسمه إلى الخليفة العثماني السلطان عبدالمجيد . فنظم له السبيتي القصيدة التي يقول فيها :

لنـا يوم الخميس وأي يوم منعنا شوس مصر ان تناما

ثم لاحظ الصفحة ١٠٩ — ١٢١ من نفس المخطوطة حيث يبدو واضحاً إن علي بك ومحمد بك الاسعد كلفا كلا من الشيخ عبدالله البلاغي والشيخ علي سبيتي وصاحب المخطوطة بأن يكتب كل منهم « مظبطة » ضد خورشيد باشا المعزول عن ولاية صيدا ليختار البكوات من تلك الصور المكتوبة احسنها انشاء وأبلغها عبارة ولفظاً في تأدية الغرض .

ثم لاحظ الصفحة ١٩٠ من المخطوطة حيث يقول المؤلف « طلبني علي بك الأسعد الى تبنين فحضرت وقابلته فقال « انه حيث جلس على تخت سرير الملك صاحب الخلافة السلطان عبد العزيز خان فأحب أن تنظم خطبة عن لساني تهنئه بمنصب الخلافة لاقدمها الى جلالة الملك وقد كنت كلفت شيخنا الشيخ علي سبيتي فعمل خطبة بليغة لغوية منافية لمشرب الزمن على عادة الشيخ يوم شرح قصيدتنا العينية بكتابه الذي اسماه « العقد المنضد » فانه أكثر الشرح وملأه من أسباب رفع المبتدأ والخبر والفعل المضارع ، فجاء كتاب نحو مع ان القصد منه التاريخ وبيان « اغراض » صاحب القصيدة » .

(٢) ومن هنا أخذ المثل القائل « خذ المقطع من حاشيتو ، والمنصب من كاخيتو » إذ المراد بالمقطع هنا حلقة الدبكة ؛ وبحاشيتو ، الشاب القاطر على رأس الحلقة ومستواه في حسن الطلعة وأناقة المظهر ، ورشاقة الحركات ودقتها في الايحاء والانسجام مع الجو كما ان المراد بالمنصب الزعيم الاقطاعي وبكاخيتو ، مدبره ومستشاره .

ومما يزيد الدبكة طرافة وأناقة وانسجاماً التحاق قصاري القامة من الشباب بمؤخرة الحلقة والصف أي أن يقطروا على ما يسمونه (بالجحشة) أي مؤخرة الصف .

فان قصير القامة حين يكون على شيء من خفة الروح وسرعة الخاطر في ملاحظاته ومفارقاته وفي إغانيه وهتافاته يتسنى له من هذا الموقع

المتواضع ان يغمر جو الدبكة بفيض من البهجة والسرور ، وان يلفت نظر الناس اليه والى تقدير مكانه وهو على « الجحشة » اكثر مما لو كان بغير هذا المكان من الحلقة كالحاشية التي لا تليق بنظرهم إلا لطويل القامة وأنيق المظهر .

٣ – القربوس : مقـــدم سرج الفرس ، حيث يعلق طرفا العنان بزردته العليا .

٤ – الريشة : صف الخيل المنسق كاصطفـاف الريش في جناح الطـائر أو كاصطفاف الزغب في عمود الريشة الكبيرة من الجناح .

٥ – الصائبة : هي مجموعة الفرسان المقـــابلة لمجموعة مثلها في الطرف الآخر من الميدان سواء كانت منسقة الصفوف او مشوشة بغير نظام .

٦ – الجريدة التي يستعملها الفرسان تكون عادة من قضبان الخيزران او من السنديان او الرمان او من غيرها من القضبان الطويلة الرشيقة .

٧ – هذا هو الطراد في السلم ، أمـا الطراد في الحرب والغزو فله معنى آخر في عرفهم وهو بأن ينطلق المهاجمون جماعـة أو افراداً وراء خصومهم من الفرسان حتى يدركونهم فيقتلون من يقتلون منهم ويسلبون وينهبون مـا امكنهم نهبه وسلبه ثم يعودون منتصرين . وقد يتغلب عليهم اخصـــامهم ويقهرونهم فيعودون مخذولين مشتتين .

٨ – لاحظ الصفحـــة ٣٦٢ من دواني القطوف . الاستـــاذ عيسى اسكندر المعلوف .

٩ – اعتمدت في هذا البحث على ما شاهدته صغيراً في الميادين التي كانت تعمر في بعض المناسبات والاحتفالات الشعبية ثم على ممارستي لركوب الخيل وتربيتها ثم على ما قرأته في الكتب الخاصة كحلبة الفرسان وشعار الشجعان لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل الاندلسي ، والعقد الفريد لابن عبد ربـه ،

ودواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف، وديوان المتنبي وديوان البحتري .. وغيرها من الكتب . ثم على ما سمعته كبيراً من ألسنة اللامعين في الميدان من فرسان الجبل او من العارفين بأصول الفروسية وتقاليد الميدان امثال : رضا بك التامر من قرية تولين ، والسيد طعان خليل من عديسة ، وأحمد بك الناصيف من الزرارية والشيخ علي زين من إليا ، ومصطفى المحمود من قرية الحلوسية .

١٠ – انما ينحدر السرج ويسترسل على رقبة الفرس حين يرث حشوه الداخلي ويتحجر لباده من كثرة الاستعمال ومن الامعان في اهمال تصليحه او تجديده والا فانه حين يكون صالحاً وكما ينبغي أن يكون فلا يتزحزح عن مكانه من ظهر الفرس مهما جار عليها العدو والعرق في حرارة الصيف .

١١ – يبالغ الكاتب في تقدير وزن السرج ووزن الركاب ، كما يبالغ في تصويرها باشكال تدعو الى السخرية والهزء . على انني شاهدت مثل هذا السرج وهذه الركاب عند بعض المحافظين من أعيان القرى ، وجربتها في غارة الفرس وفي سيرها الطويل . فاذا هي تريح الفارس أكثر من غيرها وتمكنه بسهولة من تثبيت قدميه وضبط فخذيه وركبتيه . كما تجنبه مغبة الاسترخاء والاعتماد على مقعد السرج حيث يصبح عرضة للاضطراب والارتجاج والسقوط عن ظهر الفرس عندما تسرع به او تضطرب حركاتها .

أما وزن الركاب المشار اليه فانه لا يختلف عن وزن الركاب الحديدية التي كانت ولم تزل تستعمل في بلادنا ولا يزيد وزن كل منها عن كيلوغرام .

١٢ – ان هذه الحلقة لا تضغط على الذقن إلا حين تكون صغيرة ضيقة بالنسبة لحجم ذقن الفرس وهذا أمر مستنكر في عرفهم لا يرتكبه الا من يجهل أمور الخيل وما يناسبها من لجم وعدد وسروج .

١٣ — ان الذي يضايق الفرس عند شد اللجام ورجّه هو لسان اللجـام. العربي الذي يمتد من قوسه داخل فم الفرس ، لا حلقة اللجـام . ولهذا ترى. الخيل فاغرة فمهـا عندما يحبس عليها الفارس بشد اللجام اكثر ممـا يجب . إذ يرتفع هذا اللجام الى سقف الحلق ويدميه اذا لم تفتح الفرس شدقها .

١٤ — صفحـــة ١١٢ — ١١٧ من ثلاثة أعوام في مصر والشام للرحالة. (فولني) تعريب ادوار البستاني .

من حديث الفرسان
في العهود الاقطاعية

ثم اني استقطاباً لكل ما يمت بالموضوع من اخبار وانطباعات وخصائص ارسلت صورة مجملة لما كتبته عن مظاهر الفروسية وتقاليدها لكل من الفاضل الشيخ عبدالمحسن الظاهر والاستاذ رضا بك التامر وطلبت ملاحظاتهما وتعليقيهما على كل ما سجلته بتحفظ عن الموضوع باعتبار انهما ممن شاهدوا أو مارسوا أو تلقنوا هذه العادات والتقاليد في بيئة كان جل اعيانها مولعين بركوب الخيل وتعمير الميدان فبادرني الشيخ عبد المحسن بالرد التالي :

« صفوة الادباء فضيلة الاستاذ الشيخ علي الزين المحترم . اني مكبر لك ما أكبرته مني وعاطفة شوقي اضعاف عاطفة المشتاقين وتقديري لك فوق تقدير المقدرين نظراً لما ألمسه من حسن النقد وتتبع الآثار وبلاء التمحيص في جميع حوادث التاريخ .

طالعت رسالتك المنشأة عن صدق الاخلاص وثبوت الوداد . وطلبك مني بيان انواع الفروسية لعلك اني عاشرت ممارسيها وملابسيها .

صحيح أدركت آخر عهدهم ، غير اني لم اشاهد من ذلك سوى اني سمعت من شيوخ العائلة (آل الصغير) بعض اوصاف عن الفروسية ولو جئت أصفها الآن لم آت على بعض ما وصفتها وصورتها كأن السامع وصفها مشاهد لها وجاز في حلبتها لأن الفكر الناضج والاحساس السليم يبدعان التصور وينمقان الوشي فيبهر الناظر ويطرب السامع وليس بعزيز على فضيلتكم أن تخرجوا لجبل عامل تاريخاً جامعاً لسائر اوضاعه من حروب وتقاليد وعادات فتكون عصاة الجريدة فيه كعصاة موسى واني لأشكر فضيلتكم على وضع الثقة بي في هـذا المضمار مع اني لست من فرسان هذه الحلبة والله المسؤول بأن يوفقكم لما تأملون . »

في ١٠ آب سنة ١٩٦٧

عبد المحسن الظاهر

مشاهداتي

شاهدت من انواع الفروسية السباق فهو كما وصفتموه ، وشاهدت ضرب الجريد ، ومنه « الطقلة » وهي أن يطلق الفارس اثناء غارته الجريدة التي بيده الى الأرض على رأسها فتعلو عن الارض مقدار ذراع او اكثر حسب قوة الفارس ومهارته ، وحين ارتفاعهـا عن الارض يقبض عليها وهو غائر بفرسه .

وشاهدت من يضع رأسه على قربوس السرج ويرفع رجليه في الهواء ثم يعود لما كان عليه والجواد غائر به ، في منتهى الجري ، وشاهدت من يجمع الاحجار ويضعها في الخرج والجواد غائر .

ورأيت من ينزل الى الأرض عن الجواد ثم يعلو عليه والجواد غائر ورأيت من يعطي ظهره رأس الفرس ووجهه الى قفاها ثم يعود الى مـــا كان عليه والفرس غائرة .

من هوامش اخبار الفروسية

وانواع الفروسية كثيرة وهذا الذي وصلنا من اخبارها ، فعهد الفروسية في زمن الشيخ ناصيف ، وحمد البيـك كانت فيه الفروسية تشاهـد عيـاناً بالواقع لا بالتمثيل لخوضهما الغارات الحربية .

وأما عهد التمثيل ففي زمن علي بيك وابن عمه محمد بيك الاسعد واخيه خليل بيك حتى عهد كامل بيك الاسعد . وهو آخر عهدها .

* * *

وفي عهد علي بيك ظهر تمثيل الفروسية بنصب الميـادين في كل شهر او احتفال او مجتمع ، يقول الشيوخ من العائلة : كان علي بيك عالمـاً « ملماً » بانواع الفروسية أخذ ذلك عن عمه حمد البيك ولكنه لا يمارسها وشهادتـه فيها غاية ما يتنافس فيها ، وظهر من اولاده محمـد نجيب بيك جامعاً لعـلم الفروسية وفنونها بالسيف والرمح والجريـــد ، وبعده أخوه ناصيف باشا « الاسعد » .

خليل بيك لم يكن محيطاً بانواع الفروسية نظير علي بك وان كان اخوه محمد بيك في الطليعة ، ويصفه الشيوخ بأنه كان جريئاً منيعاً على الخيـــل وكان يحسن ضرب الجريد وخطأه فيها اكثر من صوابه ، والذي كان ممتازاً ومشهوراً في ضرب الجريد ، حسن بيك الفارس ، يروي الشيوخ له اخباراً بضرب الجريد شبيهة بالأساطير وبعده حسن بيك البندر وامتـاز عن غيره بالجرأة والاقدام .

رغب خليل بيك أن يتقن اولاده أنواع الفروسية حينما كان متصرفاً « قائمقاماً » بلواء نابلس[1]. وكانت هناك العشائر العربية فوضع لهم معلمين، واتقن محمود بيك شيئاً عنها واقل منه عبد اللطيف وكامل بيك لم يرغب بذلك ، وامتاز بالعاب الرمح « في عهد خليل بيك » عبدالله بيك التامر ، شاهدته ومعه الرمح حوالي سنة ١٣١٤ هـ ولم اشاهده في الميدان ، وبقي رمحه موجوداً عند بعض اقاربه في قريتنا « الحلوسية » .

وفي عهد كامل بيك امتاز بالفروسية وتمثيلها محمود بيك وعبد اللطيف وناصيف باشا والشيخ حمد المحمود ، وفي عصر كامل بيك ظهر التلاعب « البهلواني » في الميدان كالوقوف على الرأس وكالنزول عن الجواد وأخذ الحجارة عن الارض وما شاكل ذلك .

والذين امتازوا بهذه الالعاب « البهلوانية » واتقنوها اثنان : سليم محبوبي ، ومصطفى المحمود ، شاهدتهما رأي العين .

هذه غاية معلوماتي عن تمثيل الفروسية في جبل عامل[2].

ثم بعد هذا الرد من الشيخ المحترم جاءني جواب الاستاذ رضا بك بنصه التالي :

« بيروت في اول ايلول سنة ١٩٦٧ » .

---

(١) يقول صاحب مخطوطة جواهر الحكم « انهم في ذلك العهد كانوا يسمون القائمقام متصرفاً ولا يفرقون بينهما في الصلاحيات » . (لاحظ المخطوطة) .

(٢) لا يخفى ان الذين لمعوا بتمثيل الفروسية بهذا العهد كثيرون ، منهم طالب محبوبي ، وامه محبوبي وأخته ، من قرية الطيبة ، ومنهم الحاج يوسف حيدر جابر من النبطية ، والشيخ علي زين من إلية ، والسيد طعان خليل من عديسة ومصطفى محمود من الحلوسية وعلي افندي عبدالله من الخيام .

كما امتاز محمود بيك الفضل واسعد طه من النبطية بضرب الجريد وامتاز بهيج بك الفضل وسعيد افندي غندور بخيولة الرمح ، بل لمع بهيج الفضل في كل ميدان شاهدته به . (المؤلف).

« أخي المفضال الشيخ علي ، تحية الود والاخلاص وبعد ،

تليت كتابك وسرني منه انك في تمام الصحة والرفاهية ،

أخي ، لقد تمتعت بما يحتويه هذا الكتاب ، وعدت بذكرياتي الى سن الطفولة حينما كانت دروس الفروسية في الجنوب تمثل مركز الصدارة وكانت لها أساتذة لتلقينها ، وقد كنت من عداد التلامذة حتى بلغت درجة تقارب شهادة الاستاذ ، وانطلاقاً من هذا الواقع وجدت عدم الجواب على ما ورد بكتابك خطيئاً لأن هذا يستلزم وضع اطروحة ، وحتى أتمكن من اعطائك الاجوبة المثمرة يجب أن نجتمع اجتماعاً مطولاً وعندئذ تدون معلوماتي فتأخذ منها ما تريد ، وتترك ما ليس لك من فائدة فيها .

وأكون سعيداً اذا ما شرفتني إلى التامرية ، وأنا لي حقوق عليك فأقبل تسديدها بزيارة ، حتى اذا كانت حالتك المادية تمنع عليك من دفع تكاليف الانتقال فاني على استعداد لتقديمها بالغة ما بلغت .

اذن عليك ان تخابرني هاتفياً الى التامرية وتحدد لي موعد تشريفك ، والتامرية في هذا الفصل توافق مزاجك ، وجيراننا من آل الأمين كثر، نقضي الليالي نستعرض ماضينا ونبكي على حاضرنا ونتكهن بمستقبلنا، فاذا ما منحتنا من وقتك ليلة واحدة كانت قاضية علينا او منقذة لنا ؟ فباسم آل الأمين وتابعهم رضا التامر ندعوك ولا نقبل لك عذراً ، ونحن بانتظار تشريفك

وختاماً دم المخلص

رضا التامر

***

وبناء على ما تضمنته هذه الرسالة للاستاذ رضا التامر ، ذهبت الى مزرعة التامرية وأصغيت الى ملاحظاته وتعليقاته على ما كتبته وصورته . فوجدت ملاحظاته ومعلوماته على تنوعها وتعدد صورها ؛ لا تختلف عن ادق ما سمعته من اعلام الفرسان في الجبل ان لم تفقها تنسيقاً وتوضيحاً ودلالة على مدى معرفة الاستاذ بأصول الميدان وشروطه وتقاليده في الاوساط العاملية .

من حديث الفرسان في المجالس العاملية

ثم اجتمعت بعد ذلك بالشاعر النابه السيد عبد الرؤوف الامين في قرية الصوانة ، واطلعته على موضوع بحثي فاستصوب وحبّذ ، ثم قال الا ترى لعلماء البلاد وادبائها من اثر او علاقة في صلب هذا الموضوع ؟ .

فقلت أجل ولكنها علاقة ثانوية ، تبدو لنا من خلال ما كانوا يتحدثون به في مجالسهم ويروونه من الاقوال المأثورة والحكايات الطريفة والشعر المختار عن فضل الخيل وبيان فوائدها ووصف محاسنها والتنبيه الى عيوبها المعقوتة كروايتهم عن بداية تكوين الخيل ، وان الله لما اراد ان يخلقها قال للريح الجنوب اني خالق منك خلقاً ، فأجعله عزاً لاوليائي ، ومذلة لاعدائي وحمى لاهل طاعتي ، فقالت الريح اخلق ، فقبض منها قبضة فخلق فرساً وقال له سميتك فرساً وخلقتك عربياً وجعلت الخير معقوداً بناصيتك والغنائم محوزة على ظهرك ، والعز معك حيثما كنت ، آثرتك على غيرك من الدواب وجعلتك لها سيداً ، وعطفت عليك صاحبك ، وجعلتك تطير بلا جناح ، فأنت للطلب وانت للهرب ، ولما عرض على آدم ما خلق من أشياء وسماها بأسمائها وقال له اختر من خلقي ما شئت ، فاختار الفرس فقال له اخترت عزك وعز ولدك خالداً ما خلد وباقياً ما بقوا ، بركتي عليك وعليهم ، ما خلقت خلقاً احب الي منك ومنهم ، ثم وسمه بغرة وتحجيل .

وكما يروى من ان العرب في الجاهلية والاسلام — لم تكن تعد المال إلا

الخيل والإبل ، وكان للخيل عندها مزية على الابل فلم تكن تعدل بها غيرها، ولا ترى القوة والعزة والمنعة بسواها ، لان بها كانوا يدافعون عن غيرها مما يملكون ، وبها كانوا يمنعون حريمهم ويحمون من وراء حوزتهم وبيضتهم ويغيرون على اعدائهم ، ويطلبون ثأرهم وينالون بها المغانم ، فكان حبهم لها وعظيم موقعها عندهم على حسب حاجتهم اليهـا وغنائهم بها وما يصـادفون من يمنها وبركتها .

• • •

ومن انهم لم يكونوا في الجاهلية ولا في الإسلام يصونون شيئاً من اموالهم كصيانتهم للخيل ولا يكرمون شيئاً ككرامتها ، لما كان لهم فيهـا من التباهي والتفاخر والتكاثر والقوة والمنعة والعزة والرفعة .

• • •

ومن ان النبي ﷺ كان من أرغب العرب في الخيل واصونهم لها وأشدهم اكراماً وعجباً بها حتى انه ليأنس لصهيلها ويفضلها على الرجال فيما يسهمـه لها ويراهن عليها ، وينهى عن استنتاج كرائمها من حمار او هجين لا يشبه اصله اصولها غيرة منه عليها واشفاقاً من فساد انسالها » .

• • •

ويروى انه ﷺ لمـّا اتخذ الخيل وارتبطها وأحبها حض المسلـمين على ارتباطها فسارعوا الى ذلك وازدادوا حرصاً عليهـا وتنافسوا فيهـا وغالوا بأثمانها لما جعل الله فيها من انواع البركات وجماع الخيرات .

• • •

وكما يروى من انه ﷺ قال :

« الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ، واهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده في الصدقة » .

• • •

وأنه قال . « خير الخيل الادهم الاقرح المحجل الثلاث مطلق اليمين فان لم يكن ، فكميت على هذه الشيـيَة » . وانه قال : « اذا اردت أن تغزو فاشتر فرساً أغر محجلاً مطلق اليمين ، فانك تسلم وتغنم » ثم روي عنه ﷺ انه قال : « لو جمعت خيول العرب في صعيد واحد ، ثم ارسلت لكان سابقها اشقر . »

• • •

ثم ان علماءنا وادباءنا كانوا الى هذا كله يتحرون المختار من الشعر ويتمثلون بما يتضمنه من التنويه بفضل الخيل والمغالاة في تكريمها وصونها ، كقول اسماعيل بن عجلان :

ولا مال الا الخيل عندي اعده وان كنت من حمر الدنانير موسرا
اقاسمها مالي واطعم فضلها عيالي وارجو ان اعان واوجرا
اذا لم يكن عندي جواد رأيتني ولو كان عندي مال قارون معسرا

وقول الاشقر بن حمران الجعفي :

ولقد علمت على تجنبي الردى ان الحصون الخيل لا مدر القرى
اني وجدت الخيل عزا ظاهرا تنجي من الغمّا ويكشفن العمى
وتبيت للثغر المخوف طلائعا وتبيت للصعلوك غرّة ذي الغنى

• • •

ومن الروايات المتداولة في هذا الباب ، قولهم : « بأن الفارس من العرب كان يكره ان يعير فرسه الخاصة به لاحد ويتذمر من أن يركبها غيره خوفاً من ان تفسد طباعها لتهاونه او جهله بالاصول المرعية ، ويستدلون لذلك بأن رجلاً من بني تميم – وقد طلب منه الملك فرساً تسمى (سكاب)، فمنعها منه وقال :

أبيت اللعن ان سكاب علق | نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا | تجاع لها العيال ولا تجاع
سليلة سابقين تناجلاها | اذا نسبا يضمهما الكراع [1]
فلا تطمع – أبيت اللعن – فيها | ومنعكها بشيء يستطاع [2]

التغني بمحاسن الخيل

ثم كانوا لا يكتفون بهذا النوع الخاص من الشعر بل كان النابهون منهم يتحرون أدق واعذب ما قيل منه في وصف الخيل وتمجيد الفروسية ليتغنوا به وطالما سمعتهم يترنمون بقول المتنبي :

ويوم كليل المدنفين قطعته | أراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني الى اذني أغر كأنه | من الليل باق بين عينيه كوكب

(١) الكراع : فرس من كرام الخيل وجيادها المشهورة .

(٢) أبيت اللعن : كلمة تحية كانت العرب تحيي بها الملوك خاصة ، ثم ان الاصل في جملة (ومنعكها) أن تقال وتكتب ومنعك اياها باعتبار ان الضمير هنا يجب ان يكون منفصلاً ووصله جرى على خلاف القياس ثم ان باء الجر في قوله (بشيء يستطاع) زائدة وبأن معنى البيت : لا تطمع حياك الله ايها الملك – في فرسي سكاب – والحال ان منعك اياها او منعك منها او من ركوبها شيء يستطاع لي .

له فضلة من جلده في اهـــابه ... تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء ادني عنانــه ... فيطغى وارخيـه مراراً فيلعب
وأصرع أي الوحش قفيته بـه ... وانزل عنـه مثله حين أركب
وما الخيل إلا كالصديـق قليلة ... وإن كثرت في عين من لا يجرب
فان لم تشاهد غير حسن شياتها ... وأعضائهـا فالحسن عنك مغيب

• • •

أو يرددون باعجاب قول البحتري في وصف الجواد المعـــبر عن اصالته وعتقـــه :

أما الجواد فقد بلونا يومـــه ... وكفى بيوم مخبر عن عامـــه
جارى الجياد فطار عن اوهامها ... سبقا وكاد يطـير عن اوهامـه
جـذلان تلطمـه جوانب غرة ... جاءت مجيء البدر عند تمامـه
واسود ثم صفت لعيني ناظر ... جنباته فأضـــاء في اظلامه
مـالت جوانب عرفه وكأنها ... عذبات أثل مـال تحت حمامـه
ومقـــدم الاذنين تحسب انه ... بهما يرى الشخص الذي لأمامـه
يختال في استعراضه ويكب في ... استـدباره ويشب في اقدامـه
واذا التقى الثغر القصير وراءه ... فالطول حظ عنانــه وحزامه[1]

---

(١) الثغر : جمعها ثغور وهي الحدود التي يكمن وراءهـــا الاعداء ويطلقون منها غاراتهم، ثم ان الثغر القصير يكون عادة ، بما وراءه من الاعداء المحصورين بمنطقة ضيقـة ، أشد خطراً من الثغر الطويل الحدود لان تجمع الاعداء عند الثغر القصير اسهل وغاراتهم منه تكون محدودة الطريق ومتوقعة في كل حين ، وعلى هذا يكون المراد بقول البحتري « واذا التقى الثغر القصير وراءه » اذا التقى أهل الثغر القصير بغاراتهم وراء هذا الجواد فانه عند ذلك يطول حزام سرجه وعنان لجامه نتيجة للسرعة الخارقة التي يفرضها توخي الخـلاص من غارة الاعداء ؛ ذلك لان =

وكأن فارسه وراء قذالـه ... ردف فلست تراه من قدامـه

لانت معاطفه فخيّل انـه ... للخيزران مناسب بعظامـه

وكأن صهلته اذا استعلى بهـا ... رعد تقعقع في ازدحام غمامـه

مثل الغراب مشى يباهي صحبه ... بسواد صبغتـه وحسن قوامـه

أو كالعقاب انقض من عليائـه ... في باقر الصمّـان أو آرامـه

او يتمثلون لأقل بادرة حماسية بقول امرىء القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيـد الاوابـد هيكـل

مكر مفر مقبـل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

له ايطـلا ظبي وساقا نعامـة ... وارخاء سرحان وتقريب تتفـل

ثم عن محاسن الخيل وعيوبها

هذا الى غيره من الروايات الشائعة والاقوال المأثورة والشعر المختار الذي يحبب الخيل والفروسية الى عامـة الناس وخاصتهم ويجعلهم يتنافسون في ارتباطها وفي ركوبها وفي الاشتراك مع الفرسان في حلباتها .

ولا اغالي اذا قلت ان ما كنت اسمعه بالأمس من اقوال العلمـاء والادباء وتجار الخيول في بلادنا من ملاحظات وانطباعات عن خصائص الخيل وسمات محاسنها وعيوبها ، يوشك أن يكون صورة طبق الاصل لمـا اقرؤه اليوم

= الجواد الأصيل في مثل هذه المفاجأة الخطرة يجن جنونه في العدو ويسف كالنعامة على وجه الأرض فيمد كشحه ويبسط يديه الى الامام بسرعة لا تكاد ترى معها متى يحركهما ويلتقل بهمـا من مكان الى مكان آخر ، وعندها لا بد له من أن يضمر خصره ويدق كشحه فيرتخي لذلك حزامه ويتسع عليه ويطول كما لا بد من أن يطول عنان لجامه لامتداد عنقه ورأسه في مثل تلك الحالة من السرعة الخاطفة . (المؤلف)

في الكتب الخاصة من الأوصاف الدقيقة لمحاسن الخيل وعيوبها . ومن « أن الفرس الاصيل يجب أن يكون مجتمع الخلق متناسب الأعضاء صغير الرأس طويل العنق غليظ اللبة دقيق المذبح دقيق الاذنين طويلهما ، قائمهما مع شدتهما ولطف طيهما كأنهما ورق الريحان وأطراف الاقلام ، طويل الخدين أملسهما دقيقهما ، معتدل شعر الناصية ضيق القذال وهو موضع معقد العذار فوق الناصية ، واسع الجبهة ، أكحل العينين ، بارز الحدقة حاد النظر واسع المنخرين اسودهما مستطيل مشقّ شدقيه ، مستدير الشفتين رقيقهما ، وتكون الشفة العليا الى الطول قليلا ، دقيق الاسنان مرصوصها ، طويل اللسان أحمر اللهاة ، واسع الصدر عظيم اللبب ، ممتلىء القصرة — وهي أصل العنق — ليّن العنق طويله عالي الحارك و (ما بين أعلى الكتفين) قصير الظهر مستويه ، عظيم الجنبين والجوف ، منطوي الكشح ، سائل الاضلاع مستوفي الخاصرتين ، رحب الجوف مقبب البطن ، مشرف القطاة — وهي ما وراء مقعد الفارس — مدور الكفل قصيره ، مستويه قصير العسيب — وهو منبت شعر الذيل — تام الذيل أسود الاحليل ، واسع المراث — مخرج الروث — غليظ الفخذين مستديرهما غليظ عظم الساق مستوي الركبتين لطيف الوظيف ، وهو ما فوق الرسغ الى الركبة ، قصير الارساغ غليظها يابسها يابس العصب محدود العرقوبين أسود الحوافر أخضرها مدور الكعبين مقعبهما ملتصق السنبك بالأرض مرتفع النسور صلبهما ليّن الشعر لأن لين الشعر في الحيوان والجوارح والدواب محمود يدل على القوة ويزيد في الفرس ، لين الشكير — وهو ما حول الناصية وحول العرف من الشعر الصغير الذي يشبه الزغب ، وذلك ان تجد لمسه تحت يدك مثل القز المندوف — فان وجدته خشناً لم يسلم ذلك الفرس من الهجانة .

وأن يكون مع ذلك كله رافع الرأس ذكي الفؤاد نشيطاً عند الركوب والحركة مختالاً متدللا اذا مشى ينظر الى الأرض بعينيه مع ارتفاع رأسه وانحناء عنقه . » (لاحظ كتاب : حلبة الفرسان)

دليـــل الاصالة والعتق

ومن الادلة على الاصالة والعتق ما يروى من « ان سليمان بن ربيعـة فرق بين العتاق والهجن بالاعناق وطولها فدعا بطشت من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيل اليها واحداً واحداً فما ثنى سنبكه ثم شرب هجنّه وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقاً .

ويستدل على جـودة الفرس في حضره وسرعة عدوه ، بسمو هاديـه (عنقه) وثبات رأسه وان لا يستعين بهما في جريه (وذلك بأن يمدهما الى الامام) وأن تجتمع قوائمه فلا تفترق ويكون كأن يديه في قرن ورجليه كذلك حسب قول المتنبي :

رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تقول الكف والقدم

ويبسط ضبعيه (عضديه) ويمد كشحه حتى لا يجد مزيداً قصواً عن يديه ويقبض قبضاً من رجليه ، والقبض ان لا يمكن رجليه من الارض وانما يأخذ منهما بأطراف حوافره .

عيوب الخيل الجسدية

ومن عيوب الخيل الجسدية أن تكون الفرس (رفـلاء) أي مسترخيـة الأذنين واسعة العذار : او ان تكون (زنقاء) أي ضيقة الخـدين : ومن عيوبها ان تكون (كسحـة) اي منخفضـة القطـاة عن مستوى الظهر والقطاة مـا بين الوركين فوق مغرس الذنب : ومنها ان تكون محجـلة بالثلاث قوائم مطلقة الشمال : وهي بعرفهم جبراس مشؤومة : ومنها ان ان تكون (سلكة) والسلكة ما تداني عرقوباها حتى يوشك ان يحتـك بعضهما بالآخر : ومنها أن تكون برصاء وخصوصاً في وجهها .

ومنها أن يكون الفرس (اقعس) وهو ما اطمأن صلبه وارتفعت قطاته او ان يكون (أصنع) اي قصير العنق : او يكون (أشفر) وهو بياض في اشفار العينين : او يكون (أسفى) اي قليل شعر الناصية : او يكون (أغم) اي كثير شعر الناصية بحيث يغطي عينيه : او يكون (أفرق) وهو ما أشرف احد وركيه على الآخر ومنها ان يكون (اعصل) وهو ما التوى اصل ذنبه ؛ او يكون (اصدف) وهو ما تدانى فخذاه وتباعد حافراه : او يكون (اقسط) وهو ما يكون منتصب الرجلين من غير انحناء : او يكون (مرتهشاً) وهو ما يصك بحافره يده الاخرى : او يكون (اجرد) وهو ما انتفخ عرقوبه .

الخصال الذميمة في الخيل

ومن العيوب المتفق عليها « ان يكون الفرس (عضوضاً) وذلك بأن يعض كل من يدنو منه ما عدا سائسه ، أو ان يكون (نفوراً) وذلك بأن لا يثبت لمن اراد القرب منه ، أو ان يكون (جروراً) وذلك بأن يجرّر الرسن ولا يطاوع قائده او أن يكون جموحاً وذلك بأن لا يرده اللجام من جريه وعدوه ، او ان يكون حروناً وذلك بأن يمتنع الفرس عن المشي ويقف بموضع واحد ، وقد يتوتد ولا يبرح مكانه واذا ضرب ليمشي ضرب برجله ، او ان يكون (حيوصاً) وذلك بأن يميل براكبه عن الجهة التي يريدها صاحبه ، او ان يكون (عثوراً) وذلك بأن يكون كثير العثار براكبه ، او ان يكون (رموحاً) وذلك بأن يضرب برجليه او ان يكون شموساً وذلك بأن يمانع كل من يحاول ركوبه ، او ان يكون (كموصاً) وذلك بأن يلتوي براكبه حتى يسقط عن ظهره او ان يكون (شبوباً) وذلك بأن يرفع يديه ويقوم على رجليه ، او ان يكون (قطوفاً) وذلك بأن يمشي مشياً يشبه الوثب .

يروى ان بعض العرب سأل ابناً له أي الخيـــل ابغض اليك ، فقال : « البطيء الثقيل ، الحرون ، الكليل الذي ان ضربته قمص ، وان دنوت منه شمس يدركه الطالب ويفوته الهارب » .

ومن قبيل هذا القول ، قول البهاء زهير يصف بغلة لبعض اصدقائه وصفاً ينطبق بمضمونه على بعض الخيول الأصيلة بأنسابها الهجينة بخصالها الممقوتة ، ولكي لا تلتبس الصورة ينبغي أن تغير من قول الشاعر (لك يا صديقي بغلة) بما يسدد قصدك من القول .

لــــك يا صديقي (مهرة)	ليست تساوي خردلـــة
تمشي فتحسبهـــا العيون	على الطريق مشكلــة [1]
وتخـــال مــدبرة اذا	مــــا اقبلت مستعجلـــة
مقدار خطوتهـــا الطويلــة	حـــين تسرع انملـــة [2]
تهـــتز وهـــي مكانهـــا	فكأنمـــا هي زلزلـــة
اشبهتها بــل اشبهتــك	كأن بينكما صلـــة
تحكي صفـــاتك في	الثقـــالة والمهـــانة والبـــله

---

(١) مشكلة : اي مقيدة ، بقيد خاص تقيد رجل الفرس بطرف منه ويدهـــا بالطرف الآخر ، ويربط الطرفين جنزير غليظ بطول ياردة أو أقل .

(٢) ومما شاهدته بمثل هذه الخصال الممقوتة فرسان اصيلتان بانسابهما جميلتان جداً بتكوينهما الجسدي ، فرس حمراء كانت عند آل الأمين في قرية مجدل سلم ؛ وفرس تشبهها كانت عند آل متيرك في قرية رزيري وكل من الفرسين حين تركبها ولو لمسافة قصيرة تشعرك بكل مـــا لبغلة الشاعر بهاء الدين زهير من خصال ذميمة وتخال انهما المعنيتان دونهـا بذلك الوصف البليغ .

الامثال الشائعة بين الفرسان

من الامثال المستوحاة من تنوع الخيول في جبل عامل ومن حرص بنيه على اصالة ما يقتنون منها قولهم « كحيلة وحجتها برقبتها » .

يضربونه مثلاً عن كل فرس اصيل جهل الناس اصلها ونسبتها الى كحيلة العجوز ، او الى غيرها من كرام الخيل ، ذلك بانهم قلمـــا يشترون فرساً للركوب خاصة إلا اذا كان معها شهادة بصحة نسبتها الى احدى بطون الخيل المشهود لها بالاصالة والعتق ، مثل (العبية ، وصقلاوية جدران ، وكحيلة العجوز ، والهدابة أو المعنقية) الى غير ذلك من الخيول المشهورة بما اضيف اليها من نوادر طريفة في دنيا الفروسية ومحترمة في عالم الفرسان [1] .

هذا ما يذهبون اليه في مقام الجد ، وقد يستعملون هذا المثل للتهكم وذلك حين يغالي صاحب اي دابة بدابته ويزعم بأنها من احسن انواع الخيـــل او انواع البغال او الحمير او غيرها مع كون دابته في الحقيقة والواقع من احقر افراد ذلك النوع وأخسه ، فيسرع الهازئون والساخرون من زعمه هذا الى قولهم نعم « كحيلة وحجتها برقبتها » .

* * *

ومنها قولهم (الكحيلة ما بيعيبها جلالها) .

يضرب مثلاً لكل جميل واصيل في صنفه وحقيقته قد عيب بما يكتنفه من البسة رثة او هنات طارئة ، او نعوت ثانوية كالفرس الجميل وسرجه رث بال ، ولجامه مقطع .

* * *

---

(١) لاحظ الصفحة ٢٦٠ من دواني القطوف والصفحة ٤٨ من سراج الليل في سروج الخيل .

ومنها قولهم : (نصف الفرس اطباعها) .

يعني ان نصف قيمة الفرس المعنوي والمادي يكون باطباعها ، أي بترويضها وتمرينها وقصرهـا على احسن الخصال في المشي وسرعـة العدو والاستجـابة لاشارة فارسهـا لدى الاستعراض ، او في الكر والفر ، والاقبال والادبار ، ومـا الى ذلك من حالات ومظاهر محببـة في جياد الخيـل .

. . .

ومنها قولهم : (الفرس من الفارس) .

يعني ان الفرس في جميع مظاهرها وحركاتهـا الرشيقة الأنيقة تتبع لفارسها وراكبها ، فاذا كان راكبها بارعاً في الفروسية والميدان برعت الفرس في جميع حركاتها ومظاهرها كراً وفراً واقبالاً وادباراً واستعراضاً لبراعته واذا كان راكبها قاصراً وجاهلا باصول الميدان وأنواع الفروسية اضطربت هي حتى في مشيها العادي وساءت سيرتها بين الناس .

. . .

ومنها قولهم : (الكحيلة بتعرف خيالها) .

ولعل هذا المثل مأخوذ من قول الشاعر :

والخيل عالمة ما فوق اظهرها ... من الرجال جباناً كان او بطلا

. . .

ومنها قولهم : (خيال حرفوشي) .

يضرب هذا القول مثلا للمبالغة في براعـة الخيال في الميدان وانواع الفروسية ذلك بأن امراء الحرافشة كانوا مضرب المثل في الفروسية والسيطرة

على أعنة الخيل في اي ميدان فنسبة الخيال اليهم تكون غاية فيمدح فروسيته وقد سمعت وأنا صغير امرأة قروية تندب كبير اسرتها ضمن حلقة من النساء وتقول فيما قالت عنه :

يا مهـرتو بأرض الفـلا شوشي   مهرة مؤصلي وخيّال حرفوشي

فالمراد هنـا ب (شوشي) : انطلقي على مداك في غـاية السرعة . و بـ (مؤصلي) انها مشهود لها بالعتق وكرم الأصل ، و بـ (حرفوشي) انه غاية في الفروسية وقوة المراس .

• • •

ومنها قولهم « ما بظل للتالي إلا أوشم الخيّالي » .

ومنها قولهم : (الفرس قلوق والخيال لأاؤ) .

يضرب مثلا للتناقض بين حـال الفرس وحال راكبها . اذ المراد هنـا بـ (لأاؤ) ضعيف مضطرب ، والمعنى ان الفرس حديد الطبع يضطرم قوة وحماسة وان الخيال ضعيف عاجز لا يصلح لمثل فرسه .

• • •

ومنها قولهم : (اللي ما عندو عيليي يقتنيلو خيلي)

يضرب مثلا للترفيه وملء الفراغ . إذ المقصود بالخيلي هنا الفرس الاصيل فانها كانت فيما مضى تدلل وترفه في بيوت السراة كما تدلل الأولاد الصغار ويبذل في سبيلها كل غال ورخيص من خدمة وعلف وعـدد فاخرة . فهي بروعتها وزينتها ومعزتها تشغل صاحبها او تلهيه وتفتنه عن غيرها منمباهج الحياة وفتنها حتى الأولاد والعيال انفسهم . وقد يضرب مثلا المبـالغة بما تكلفه قنية الخيل من جهد ونفقات باهظة .

• • •

ومنها قولهم : (نهمو حصني وشباه حمري) .

يضرب مثلا للخداع والغش ، وذلك بأن المقصود من(نهمو) نهم فرسه ، أي عرضها على الحصان او عرض الحصان عليهـــا حتى اذا استرخت وظهر ميلها للفحل شبّاها ولقّحها من حمار ، وهذا منتهى الغش والخداع لدى من يحرصون على اصالة النسل وصفاته في سلالة خيولهم .

ومنها قولهم « فلان بيلجم الفرس من طيزها » .

يضرب مثلا في الحمقى والجهلة وقصيري النظر ، عندمـــا تأتي اقوالهم وافعالهم ، ونظرياتهم ، في غير محلها أو تكون مخالفة لمقتضى الحال والواقع.

• • •

ومنها قولهم « ما في الميدان الا حميدان ».

يضرب مثلا عند الاضطرار لمبارزة من هم دونك كفاءة ومكانة او عنـد الاضطرار لمصاهرتهم او مصاحبتهم او تكليفهم بما هو فوق طاقتهم .

• • •

ومنها قولهم « من حاجتهم للخيل شدوا عالكلاب سروج » .

• • •

ومنها قولهم « بيت بيلعب فيه الخيال بالرمح » يضرب مثلا لكل بيت واسع المدى عالي السقف .

• • •

ومنها قولهم « غضب الخيل على حمم اللجم » .

الصَّيد والقنص وتقاليده

كان من سمة الوجاهة عند اللبنانين والعامليين من بكوات وأفندية واتباع أن يقتني الواحد منهم فرساً ، وبارودة ، وكلب صيد ، وأن يتوسع الاغنياء والمترفون منهم في اقتنـــاء الطيور الجوارح للصيــد والقنص ، وخصوصاً البواشق منها .

وكان للصيد عندهم طرق عديدة ، وأهمها الصيد بالكلاب على مـا هو متبع في هذه الأيام ثم كان لهم بكلاب الصيد عناية خاصة واهتمام بالـغ في اختيار الجيد من اصنافها ، ولعلهم بذلك قد تأثروا بقـول الحسن بن عبدالله العباسي : « انه في طبـع الكلاب الوفاء والمحافظة ، وكلاب الصيد ابلغ في ذلك[1]. وصفة الجيد في السلوقية أن يكون صغير الرأس ، قصـير العنق ، عظيم المقلتين ناتىء الجبين ، عريضـه ، غليظ المشفر ، قصير اليدين طويـل الرجلين ، عريض الظهر ، دقيق الخصر ، في ظهره طول ، وفي ركبتيه انحناء ، والانثى كلما لطفت كانت أجود ، والذكر كلما كبر كان أبهى[2].

ومن اوصاف الكلاب السلوقية قول ابي نواس :

انعت كلباً ليس بالمشبوق جاءت به الأملاك من سلوق

مطهماً يجري على العروق يشفي من الطرد جوى المشوق

فالوحش لو مرت على العيُّوق انزلها دامية الحلوق

ذاك عليه اوجب الحقوق لكل صياد به مرزوق (٣)

ثم كان الاقطاعيون يضيفون الى الصيد بالكلاب الصيد بالطيور الجوارح عوضاً عن الصيد بالسهام والبنادق والأسلحة النارية .

انواع طيور الصيد

كان اللغويون يطلقون على كل طير من الجوارح التي تستعمل للصيد صقراً ، كالسنقر والشاهين والقطامي والصقر حتى الجلم ولو يحق وعقيب وحدأة ومع ذلك فان عامتهم لا يذكرون الاسبري والباشق بهذين الاسمين المعروفين لدي الجماهير السورية والعاملية فهل هما كالبازي ، ضرب من الصقور المسماة بتلك الاسماء المشهورة لدى اللغويين ؟ وهل يكون المراد بالاسبري نفس الطائر المعروف بـ (سنقر) ؟ او يكون هو البازي كما وصفه ابو نواس بقوله :

اعددت للبعشان حتفاً ممقرا ابرش بطنان الجناح اقمرا

ارقط ضاحي الدفتين انمرا كأن شدقيه اذا تضورا

صدغان من عرعرة تفطرا كان عينيه اذا ما أثأرا

فصان قضا من عقيق أحمرا في هامة علياء تهدي منسرا

كعطفة الجيم بكف أعسرا (٤)

او بقوله :

آلف ما صدت من القنيص
بكل باز واسع القميص
ذي برنس مذهب رصيص
وهامة ومنسر حصيص
وُجؤجؤٍ هوّل بالدليص
مدبج معين الفصوص[٥]

ثم يكون المراد بالباشق ما يعرف لغة بـ (شاهين) فان صورة الشاهين بالقاموس (المنجد) تشبه الى حد بعيد الباشق الذي عرفناه .

أما الصقر بنوعه الخاص ، وكما تصفه بعض قواميس اللغة ، فانه لا يعدو أن يكون ذلك الطائر المسمى لدى عامة القرويين (بذباك الهوى) فان اوصاف الصقر وصوره ببعض القواميس المصورة لا تختلف عما شاهدناه من اوصاف ذلك الذي حلق في يوم من ايام الربيع الطلق فوق رؤوسنا ونحن على عين السفلى في وطى الدوير ، وكان منظره — وهو باسط جناحيه بدون رفيف كالواقف في اعلى الجو بدون حركة — محفزاً لفضول الصيادين فرماه احدهم بطلقة نارية فهوى من عليائه مكسور الجناح ، ومع ذلك رأينا من اوضاعه وحالاته وحركاته ، عندما سقط بيننا ما يشهد ببراعة مزايا ، كصقر عزيز قوي بين الطيور ، إذ كان يأنف من ان تمسه يد دون أن ينسرها بمنقاره المعوج ، ولعله هو المعني بقول ابي نواس ووصفه للصقور .

لا صيد إلا بالصقور اللمّح كل قطامي بعيد المطرح
أحصّ أطراف القدامى وحوحي ايرش ما بين القرى والمذبح[٦]

هذا ، وكما ان الصقور اصناف ، فكذلك البواشق ، هي أصناف .

والذكر منها يسمى قرناصاً والعامة تؤنثه فتقول (قرناصة) والانثى هي الباشق في عرفهم ، وهي « المنقرة » عند الفصحاء .

ثم ان الباشق أفضل من القرناص في الاصطياد ، وكلما كان ضارباً الى البياض كان ذلك دليل جودته وطرافته ، وبالعكس اذا كان ضارباً الى السواد فانهم لا يودون اقتناءه وتربيته لعدم الانتفاع به . ثم اذا كان الباشق معداً اول مرة ليصطادوا به ، سمي ذلك العمل (الرسمي) ثم بعده يكون الصيد ، وهو التصقر ، أي الصيد بالصقور .

الصيد بالباشق

وكان الباشق — على تنوع طيور الصيد في العهد الاقطاعي — من اكثرها تداولاً وايسرها تناولاً وكانوا عندما يتروض الطائر من البواشق ترويضاً كافياً لاستخدامه للصيد ، يأخذونه في الضحى الى محل الصيد خارج البيوت وبعيداً عن الأشجار في السهول ولا سيا بين الزرع حيث تكثر الطرائد كالفري والسماني وغيرها ، او في الجبال حيث تكثر الحجال والطيور الجبلية ، وكانوا يتحاشون الصيد بين البيوت والأشجار — لئلا يرتطم لسرعة انقضاضه — بالجدران فيموت ، او ليسهل القبض على ما يصطاد . والأفضل أن يكون الصقار ، معه كلب صيد ينجش به الطرائد فينقض عليها الطائر .

عاداتهم في ترويض الطيور

وكان من عاداتهم عند ترويض الطيور الجوارح ، ان يطعم الطائر المروض في الصباح فقط ويترك العشاء حتى يجوع في يوم صيد ، ويرغب في الانقضاض على الطرائد ، ومتى انتهى من الصيد في اليوم الذي لا يطعم فيه مساء ولا صباحاً ايضاً ، يطعم عشاء (مزعة وهي لحمة يضرى بها البازي جمعها مزع.)

وعند ترويضه يسمون رباطه الطويل (التطويلة) والقصير (الشباق) ويكون من المرس الدقيق المسمى بـ (البواشقي) يطول نحو متر ولكنهم يلفون قطعاً من الجوخ الأحمر على ساقيه لئلا يخدشهما الحبل . ومن عاداتهم أن لا يضعوا الطائر في قفص بل على عصا مرتفعة تلف عليها رقعة من جلد او جوخ وقاية لمخالبه يسمونها (المرف) أي محل مبيت الباشق او مجثمه ، ويسميها الفصحاء (الكندرة) وهي مجثم البازي او الباشق يهيأ له من خشب . وفي اللغة عند المولدين ، القرناص ، وتد ، يدق في الأرض معروضاً فوقه خشبة صغيرة مثبتة به ، فيربط بتلك الخشبة سير دقيق من أحد طرفيه ويربط الطرف الآخر برجل الطائر من الجوارح فيقف اكثر الأحيان على تلك الخشبة ، واحياناً ينزل عنها الى الارض .

كيفية الاصطياد بالطيور

وعند الاصطياد يربط شباق الطير بالخنصر الى ان يصل الصقار (مروض الصقور) الى أماكن الصيد والباشق على كفه فحينئذ يقبض عليه بأصابعه ، ورجلاه وذنبه الى الوراء ، والشباق خال من الخنصر فاذا كان مع الصقار كلب صيد وعرف موقع الطريدة التي سيصطادها ، وقف الكلب (أي صلى) عليها فيشير اليه الصقار ان ينجش صيده (اي ينفره ويطيره) ثم يطلق الباشق والخيط معلق برجله فيهم ويحاول أن يسير تحت الطريدة لئلا تسقط بين الزرع وتختفي وتحاول هي أن تبتعد عنه فينفسح له المجال إذ ذاك لاتقافها[7] بسهولة فيظفرها (يأخذها بظفره) او ينسرها (اي يضربها بمنقاره) الاشفى (الأعوج) ويقبض عليها وينزل بها إلى الأرض جاثماً عليها ومنتظراً الصقار ليأتي ويأخذها – منه سالمة ، وحالما تمسها يد الصقار يفلتها . وكثيراً ما يذبحها الصقار وهي بين ساقي الباشق ليمتص دمها قبل افلاتها او يكسر له رأسها ليأكل الباشق مخها ولا سيما في اوائل صيده ، فانهم يحاذرون

أخذ الطريدة منه بسرعة او حرمانه تناول شيء منها لئلا يقنط ويجبن عن الصيد ، فيطعمونه شيئاً منها لتتجدد رغبته بصيد غيرها انتفاعاً منه وبذلك يضرى على الصيد ويكثر أخذه للطرائد ، وأبعد مسافة يرمى بها الباشق على الطريدة نحو ثلاثين متراً .

واذا لم يصطد الباشق طريدته وضل طريقه ولم يعد او جهل الصقار محله او كان على شجرة عالية يستدعيه بكلمة (وش) مكررة ويرمي له طريدة ميتة او منديلا او حجراً في الفضاء ليراه ، وينقض عليه فيهتدي الصياد او الصقار الى محله ويأخذه .

مظاهر الصيد في القرن التاسع عشر

لعل الصورة التي يرسمها الشاعر نقولا الترك عن مظاهر الصيد بالطيور الجوارح في عهد الأمير بشير الشهابي هي من اوضح الصور واقربها الى واقع الصيد بالطيور في جميع العهود الاقطاعية حتى العهد الأخير منها . يقول الشاعر الترك :

.. واعلم بأن الصيد شيء مرتغب — اذ فيه تفريج وتنزيه عجب
فالشرط فيه يا خليلي اولا — لكل مخدوم عليه عولا [8]
من قبل تحريك الركاب المسعد — للقنص المسترغب المستقصد
أن يحضر العلاف قبل السير — ذاك الذي يعطي الغذا للطير
مستخبراً عن حالة الطير الذي — من كفه في كل يوم يغتذي
هل انه في حالة متوسطة — ام انه في سمنة مستفرطة
ان كان فيه السمن يعطيه العلف — ما قل لكن فليحاذر من ضعف
وربما الصقار فيه من ثقة [9] — اذ انه لا بد يدري الطبقة [10]

تلك التي يصطاد فيهـا الطير   صيداً على التوفيـق فيه الخير

ثم الذي يبقى من المخـدوم   ان يعتني من بعد ذاك اليوم

تنبيـه ارباب الذكا والمعرفـة   من كل من في الصيد فيه من صفة

مثل الموحي والملبي بالعجل (١١)   والمدعو العياط من فوق الجبل (١٢)

والزمرة النشاش والنظـارة   من كل من تعنيهم ذي الغـارة

حتى اذا ما استكمل الاجواقا(١٣)   يسري بهم ساع الى مـا اشتاقا

اي نحـو ذاك المقنص المعهود   والصيـد المسترغب المقصـود

حتى اذا حلوا بذاك النـادي   واستوثقـوا طرفي ذاك الوادي

واستحكموا يا صاح فيه الموقفا   من قاعه حتى الى رأس الشفـا

واصطفت الغلمان في العرضان   في رأي شخص فاق بالعرفان

ابدوا التوحي ثم ابدوا النشا   ثم الزغاريات تبـدي النبشا (١٣)

اذ جنس ذا الحيوان جنس مشتهر   في شمـه الموصوف في أخذ الاثر

والوصف في هذي الزغاريات   قد كل عنـه صاحب الانعـات

اذ شأنها في اينما استخفى الحجل   تستتبـع الاثار منـه بالعجـل

توليه للوكر اقتحاماً مفترض   حتى اذا مـا فر منه وانتهض

صاح الموحي وانتخى النشاش   واستيقظ النظـار والكشاش

واستعلت الأصوات منهم بالك   قد قام يا هداد هيء حالـك (١٤)

والهـد مخصوص بولى الجمع   اذ ان فيـه هوس يوم النقع (١٥)

فالمقتضي الماجـد الهـداد   المرتقـي من فوق رأس الوادي

ان يحتوي بالصيد فهماً كافيا   ثم انتبـاهاً مستديماً وافيـاً

حتى يكون الهد منه محتكم   في ضبط نيشان مصيب للعلم

ولتصرخ الأجواق ان صيد الحجل ... بالحال — الله هو — صوتاً يتصل

من مبتدى ذيالك الوادي الى ... منتهاه ، حتى العلم يحتاط الملا

والقنص في حال كهذي البهمة ... أن الملبي الشديد الهمة

لما يرى الطير انتخى وانقضا ... مستقنصاً يبدي وراه الركضا (١٦)

مستخلصاً مصيده من كفه ... خوفاً لئلا يبتلي من علفه

بل انما يعطيه من فخذيه ... او مخه ان رام او عينيه

حتى يدوم الطير وافي النية ... في الصيد والصياد في امنيه (١٧)

ولينغلي في كل اخذ مثل ذا ... ذاك اليماني قهوة تنفي الأذى

أما اذا قامت لديهم حجلة ... واختبأت في أجمة مفخذلة (١٧)

فيبصر النظار اين استرفعت ... وليصرخن قد وقعت قد وقعت

وليعطي علماً منه عنها عينها ... كي زمرة النشاش تدري اينها

لكي يقيموها لدى الهداد ... ذاك الذي باق على استعداد

هذا الذي ابصرته بالعين ... والنقل فيه خالص من مين (*)

الصيد بالبازي

ثم كان الأقدمون من الاقطاعيين الكبار يصطادون بالبازي — ولعله هو نفس الطائر المعروف بالاسبري[18] — وصيد البازي وترويضه كما هو معروف في ترويض الباشق ، واذا ما اختلف الصيد بالبازي عن الصيد بالباشق فذلك بأن البازي ثقيل لا يسهل حمله على اليد فيضطر البازيار (مروض البزاة) الى الركوب على دابة ووضع البازي أمامه ، وقد ينقلونه على جازع وهي

(*) لاحظ الصفحة ٢٩٣ — ٢٩٥ من ديوان الشاعر نقولا الترك . طبع بيروت .

عصا يحملها اثنان ويعلق فيها شيء . والبازي يفضل الباشق لصيده للحجال الكبيرة اما الباشق فلا يصيد إلا يعاقيبها أي افراخها واذا ما رفرف البازي فوق سرب من الحجال يذعر منه فلا يتحرك فيأتي البازيار ويمسكها كلها [١٨] وكثيراً ما يصطادون بالبازي الارانب والغزلان في البراري وهو يسفع طريدته بجناحيه القويتين اي يلطمها او ينسر راسها بمنسره المعوج حتى يضعفها وينهكها فيسهل اقتناصها .

الاهتمام بالاسبري

ويقال ان الاسبري – وهو من اقوى الجوارح لصيد الطيور – لا يمسك ولا يروض بسهولة لندرته وعتوه بيد ان زعماء الاقطاع في جبل عامل كانوا يحرصون على اقتنائه وتربيته وترويضه ويؤثرونه على الباشق وغيره من الجوارح في صيد الحجال والطيور الكبيرة . وبلغ من عنايتهم بالاسبري وبطيور الصيد جملة انهم كانوا يحرصون على زينتها كما يحرصون على تربيتها الصحية فكانوا يضعون في سيقانها اجراساً من الفضة(*) كما يبدو مما يرويه الرواة عن عهد حمد البك يوم طلب نفسه من الشيخ صليبي الواكد أن يصلح له عند صياغ (قانا) اجراساً للاسبري ، فلما تم اصلاحها وأرسلها الى البيك لم يستحسنها لضعف اصواتها وخمود حسها فارجعها اليه ليصلحها مرة ثانية ويجعلها أصفى صوتاً وأعلى رنيناً مما كانت عليه في المرة الأولى فلما اصلحت حسب مراد البيك أرسلها اليه مع هذه الأبيات :

افدي (ابا فدعم) اذ ظل يعذلني من حيث اخمد حظي صوت اجراسي [١٩]
لا تعجبن لذا واعجب لثانية ان ليس يلحق بالأجراس انفاسي
هل ينكر البيك اعلى الله رتبته سواد حظي وما يأتيه الحاسي

(*) من الفضة تميزها عن بقية الطيور .

فكيف بي وبحظي كلما رفعت — يدي لشأن تولاها بانتكاس
فالآن وافتك اجراس مطنطنة — تحكي النواقيس في راحات شماس
قد اتقن الصنع منها عارف فطن — بصنعه خير حداد ونحـــاس
فان تجدها كما تبغي صناعتها — فذاك من طالع الحداد في الناس
وان تكن تشبه الاولى فذلك من — حظي الذي قد رمي دوماً بانحاس
فالمدح في صنعها أمسى لصانعها — والذم لي والكلام القارس القاسي
يقـــال لله مخول وصنعته — كأنها ذهب قد صيـــغ في ماس
ينال مخول فيها المدح ان حسنت — اولا ابو واكد في الذم والياس
فاعذر عبيدك فيها كيفما صنعت — فأنت نجمي ومصباحي ومقباسي[٢٠]

منافع الصيد واضراره

هذا مـا أمكن تلافيه وتداركه وتبيانه من مظـــاهر الصيد وعاداته وتقاليده أما منافعه المزموقة بنظر زعماء الاقطاع فيوشك أن تكون محصورة بمـا يلي :

١ — بالتسلية والترفيه عن النفس .

٢ — بالرياضة البدنية وملء الفراغ .

٣ — الاستجابة لدواعي العظمة وتقاليدها في التنافس على تربية الكلاب المميزة من السلوقية ، وترويض الطيور الجوارح على الصيد ، وفي التسابق على اقتناء الأسلحة المتنوعة مع كل ما يلزم للمواكب والاتباع من بارود وخردق ورصاص غزلاني وفشك مختلف النوعيـــة في حجمه وتأثيره حسب نوعية الطرائد من طيور وحيوانات برية .

أضف إلى هذا ما كان يلزمهم لرحلات الصيد ومواسمه من خيام وشوادر وألبسة خاصة وفراش ثقال وأدوات جمة لطهي الطعام وتحضير القهوة ومـا

شاكل ذلك من مستلزمات الضيافة ومظاهر العظمة والترف الذي كان في كثير من الاحيان يستهلك ميزانيتهم ومدخولهم السنوي ويلجأ اقوياءهم الى استعمال الوسائل الجائرة في تحصيل ما يسد حاجتهم الى المال أو الى تسديد الديون الموقوتة .

• • •

أما اضرار الصيد البليغة وأضرار أدواته ومواكبه فيوشك أن تنحصر في ما يصيب الفلاح والمزارع والملاك الخاضع لانظمة الاقطاع وتقاليده من تعطيل مواسمه ودوس مزروعاته واستباحة رعيها بالخيل والدواب لدى حاجتها إلى العلف ولدى تجوال الصيادين صباح مساء بين الزروع وهي كل ما يعول عليه الفلاح والمزارع في أتعابه السنوية لحفظ لقمة العيش وصيانة أهل بيته من الفقر والعوز ولهذا كان الأهالي عندما يتهيأ لهم من يساعدهم على رفع شكواهم من جور هذه الأعمال والمظاهر المخيفة لا يتأخرون ساعة ولا يتحرجون من تقديم الشكوى بأي صورة من الصور الى المراجع العليا كما اتفق لهم في عهد الزعيم حمد البك يوم ثارت حمية الحاج قاسم الزين وتضايق من استهتار حمد البك وتمادي حاشيته من الخدم والصيادين في استباحة مزارع الناس والتهاون بمصير أرزاقهم وأتعابهم فجمع لذلك وجوه البلاد ومشايخها وحملهم على رفع الشكوى للوالي التركي وقدم نماذج من الزروع المتلوفة فأصغى الوالي لتلك الشكوى وأمر بعزل حمد البك عن حكم البلاد كما ينص العلامة السيد محسن الأمين على ذلك بقوله : « ولما كان حمد البك حاكماً في تبنين توجه الحاج قاسم الزين العاملي مع جملة من وجوه البلاد وشيوخها شاكين لوالي الشام — حين حضر لبيروت — من حمد البك وقالوا ان المشائر وعلى رأسهم رئيسهم حمد البك فضلاً عن ظلمهم وتعديهم على الفقراء والفلاحين قد اتلفوا المزروعات بالصيد والقنص وحملوا ـ أي وجهاء البلاد ـ معهم شيئاً من الزرع المتلوف وأروا الوالي اياه ، فصدر أمر الوالي بعزل حمد بك من المديرية [1] .

(١) لاحظ أعيان الشيعة الجزء ٢٨ الصفحة ١٠٣

الهوامش والتعليقات

(١) لاحظ كتابه آثار الاول في ترتيب الدول .

(٢) لاحظ الصفحة ٥٣٥ جزء ٩ من مجلة الآثار، لصاحبها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف حيث تنص على ان سلوق قرية في اليمن تنسب اليها الكلاب السلوقية ، وكلاهما احسن كلاب الصيد واخفها حركة ، يقول القطامي :

معهم كلاب من سلوق كأنها   حصن تجول تجرجر الارسانا

(٣) لاحظ الصفحة ٦٣٨ من ديوان ابي نواس طبع دار الكتاب العربي ببيروت ، حيث ينص على ان المراد بالأملاك ، الملوك . وأن سلوق ؛ قرية في اليمن او بطرف ارمينيا ، وبالمطهم ، النحيف الجسم والتام من كل شيء ، والبارع الجمال ، يجري على العروق اي على الأغصان لرشاقته وخفته ومرونته ، وبالعيوق ، نجم احمر في طرف المجرة .

(٤) البغثان : ضعاف الطيور كالحمام والحجل ، والفري ــ الحتف : الهلاك . المعقر : ضارب العنق . ابرش : مختلف اللون . بطنان الجناح : طويل الريش . الضاحي : الأبيض . دفتا الطائر :

جناحاه ـ انمر : منقط بالابيض والأسود ـ تضور : اشتد جوعه ـ العرعرة : رأس الجبل ـ تفطر: تشقق ـ أثأر : ادرك ثأره ـ قضا: شقا . المنسر : المنقار (لاحظ الصفحة ٦٥٠ من ديوان ابي نواس طبع بيروت، دار الكتاب العربي) .

(٥) لاحظ الصفحة ٦٤٧ من نفس المصدر ، حيث ينص على ان الحصيص هو الخالي من الريش ، وان الجؤجؤ هو الصدر ، وان هوّل : أدل وأعجب ـ وان الدليص هو المدبج المنقوش .

(٦) الصقور الدّح : الذكية ـ القطامي : الصقر الحديد البصر ـ احصّ : قليل الريش ـ القدامى : ريش مقدم الجناح ـ وحوحي : منكمش ـ ابرش : مختلف اللون ـ القرى : (بفتح القاف) : الظهر . لاحظ الصفحة ٦٤٨ من ديوان ابي نواس . ويقصد ببعيد المطرح ، انه أتى به من اعالي الجبال وهو لذلك أصلب واقوى على الطراد .

(٧) التقف الصقر الصيد : اختطفه قبل أن يتحرك . والخطف لغة : الأخذ باستلاب .

(٨) المراد بالمخدوم كل وجيه يعزم على الصيد ويترأس مواكبه وهنا يقصد به الأمير بشير .

(٩) العلاف او الصقار هو الموكل اليه امر طيور الصيد علفاً وترويضاً وحملاً على الكف عند الصيد ثم اطلاقه وهده على الطرائد في الوقت المناسب .

(١٠) يدري الطبقة : أي يعرف مستوى كل واحد من طيور الصيد ومدى قدرته او عجزه عن الصيد في ذلك الوقت ، وقوله : من كل من في الصيد فيه من صفة « اي من صفة خاصة به » كالنش والتحريض والتلبية في اطلاق الطير على الطرائد .

(١١) الموحّي : هو المحرض على اغتنام الفرصة وملاحقة الطرائد ، والملبي : هو الذي يسرع الى امتثال الأوامر واغتنام الفرص السانحة .

(١٢) العياط : هنا ، هو الذي يكرر تنبيه الصيادين بصوت عال الى المحل الذي نزلت به اسراب الطيور بعد فرارها من مكان الصيادين الى مكان آخر لتنجو من قبضتهم او من نيران بنادقهم ، إذ كان قادة مواكب الصيد يرسلون فئة من رجالهم الى قمم الجبال المشرفة على مناطق الصيد ليراقبوا افراد الطيور واسرابها التي تفر من امام الصيادين قبل ان يستحكموا من صيدها او تكون اصابتها خفيفة لا تمنع من الطيران ببطء الى مكان ينجيها من قبضتهم . فكان الرجل الذي يبصر هذه الطرائد او غيرها من اسراب الطيور او يعرف اين وقعت او حطت ، يصيح بأعلى صوته على الصيادين ليرشدهم الى مكان نزول الطرائد وتهربها وكان مثل هذا الرجل لكثرة صياحه العالي يلقب بالعياط .

(١٣) الأجواق هم حاشية الرئيس المختلفة الوظائف او زمله المنقادون لرغائبه وأوامره . والتوحي : التحريض على اغتنام فرص الصيد السانحة . والنش : تنفير الطرائد من مكامنها ليقتنصها الصيادون بوسائلهم المتنوعة . والزغاريات هي الكلاب التي تأخذ اثر الطرائد من بعيد وتتبعها الى ان تظهرها امام الصيادين ثم بعد ان يصرعها الصياد تلتقطها هذه الكلاب وتأتي بها اليه . والزغاريات هي نقيض الكلاب (الجمارية) في كل ذلك .

(١٤) الهداد : هو الذي يحمل الصقر او الباشق في اوقات الصيد على زنده ثم يطلقه على الطرائد عندما تطير حسب ارادته او ارادة سيد الجمع .

(١٥) « الحد المخصوص بمولى الجمع » أي بأمر مولى الجمع وهو قائد مواكب الصيد ويعني به هنا ، الأمير بشير . والهوس : يقصد بـه الحماسة والنخوة . ويوم النقع : هو يوم المعارك والحروب .

(١٦) المقصود بالطير هنا الباشق او الاسبري او غيرهما من الصقور التي كان الأمير يصطاد بها .

(١٧) وافي البغية ، اي موفور القصد خالصه . والمفخذلة ، اي المفلوشة والمشوشـة .

(١٨) يقال ان لون البازي أخضر وصدره ابيض ومنقـاره اشغى ، اي معوج . يصيح عند انقضاضه على الطرائد فتختبىء الطيور مذعورة منه . ولا أعرف ما اذا كان لون الاسبري كذلك اذا لم يكن البازي هو نفس الاسبري ؟.

ثم ان خوف الطيور الضعاف ليس مختصاً بالخوف من البـازي . فان الباشق وهو ــ دون البازي والاسبري قوة وحجمـاً ــ تختبىء الطيور الضعاف من شبحه وقد شاهدت هذا المنظر بنفسي شتاء يوم قارس البرد وانا جالس داخل بيتنا في قرية جبشيت انظر مبتهجـاً الى رف من عصافير الدوري تتجاوب انغامها على كومة من اغصان الزيتون واخشابه . وفجأة تخفت اصواتها وتترامى افرادها وتهوي بين الأغصان والعيدان الى قرار الكومة واذا بالباشق الذي كنت اعرفه ــ لوناً وحجماً بالمشاهدة ــ ينقض ويهوي على تلك الكومة فيمنعه ضيق المنافذ بين الاغصان والاخشاب المتراكمة من الوصول الى قعر الكومة حيث تهاوت العصافير فيجثم قليلاً على ظهر الكومة ثم يعود من حيث أتى خائب القصد فارغ اليدين .

(١٩) ابو غدعم : كنية لحمد البيـك كانت مشهورة في عصره وبين زمله .

(٢٠) كنت سمعت هذه القصيدة من المرحوم الشيخ عبدالله سليمان في قرية جويا . ثم قرأتها بعد ذلك في الصفحة ٩٣ من خطط جبـــل عامل للعلامة السيد محسن الأمين .

• • •

اعتمدت في هذا البحث ، على ما قرأته في بعض الكتب وبعض الدواوين الشعرية ، والمجلات الثقافية والتاريخية . كمجلة آخر ساعة المصرية ، ومجلة الآثار اللبنانية ، لصاحبها الاستاذ اسكندر عيسى المعلوف . وكان جل اعتمادي في هذا البحث على ما قرأته في مجلـة الآثار . ثم على ما كنا نشاهده صغاراً من مظاهر الصيد وعلى ما قد سمعناه كباراً من قصص ونوادر ممّن مارسوا الصيـد واشتركوا في مواكبه مع البكوات ، كالسيد طعّان خليل والسيد عبدالله كحيل .

أدب الضيافة وتقاليدها لدى العموم

كان من أهم معاملات الأهالي بعضهم لبعض آدابهم في المجالس فانهم يصدرون بها كبراءهم في السن وفي الرتبة ويتأدبون أمامهم ويسلم الداخل على الجالسين والماشي على من يمر به والراكب على الماشي . ومما كان يرضي شيوخهم من التحيات قول العامة لهم « صبحكم بالخير » وقد يكون قولهم « نهاركم سعيد » مغضباً لهم ، ويقدمون لزوارهم القهوة والتبغ مفضلين الرجال على النساء ، ولا يقاطع أحدهم حديث الآخر حتى يستأذنه .

ويترحبون كثيراً بزوارهم ويحتفون بهم ولا يكدرونهم بشيء بل مهما كان المضيف حزيناً لا يظهر شيئاً أمام ضيفه وكذلك لا يذكرون ما تأنف منه النفوس ولا سيما عند الأكل ونحوه . وكان من عاداتهم المحافظة الشديدة على مكانة الناس ومراتبهم باعتبار اصولهم واسرهم ، ولا تزول الكرامة عن اهلها بسبب الفقر ولا تنزل في غير موضعها بسبب الغنى ؛ فلا يستعمل الرجل ما لا يليق بمثله من الطرفين [١] .

---

(١) لاحظ ص ١٦ من رسالة الشيخ ناصيف اليازجي و ١٥١ - ١٦٤ من كتاب (لبنان) مباحث علمية واجتماعية طبع سنة ١٣٣٤ هـ .

مآدبهم العادية

كان من مزايا الاسر العاملية واللبنانية التهـــادي والمقارضة في الافراح والأحزان والنوائب مع البساطة وطيبـــة القلب ورقة العواطف ، وكانوا يتبادلون الدعوات في بعض الشؤون والمراسيم والزيارات ، وتعرف الدعوة عندهم باسم (العزيمة) يدعون اليها من يشاؤون من الانسباء والاصحـــاب فيكثر هرجهم وتبادلهم الأحاديث المختلفة وأهمها التفــاخر بذكر قدمائهم والتاجد بنجاح أحزابهم وكثيراً ما يتناشدون المعنى « الزجــل » ويترنمون بالاناشيد الوطنية والحماسية وأهمها الحدو « الحداء » « والتحورب » والمواويل والعتابا والميجانا .

وموائدهم قديمـاً كانت بسيطة ليست إلا شيئـاً يمـــد على الأرض كجلد ونحوه ويسمونه السفرة وقد يكون طبلية وهي مائدة مستديرة واطئة شبه الطبل توضع عليها الأواني الخزفية والنحاسية ويجلس حولهـا المدعوون بحسب مراتبهم في السن والمكانة .

وقد لا يجلس أهل البيت معهم بل يخدمونهم بأيديهم ويقدمون لهم مـا يبعد عن متناول أيديهم من مآكل ومشارب ، وهم أدباء في مآدبهم حافظون لحقوق غيرهم ولكنهم أحياناً كثيرو الالحاف بالدعوة إلى الطعام حتى أنهم لا يقبلون عذراً لمن لم يشاركهم في الطعام ، وقد يحسبون ذلك انتقـاصاً من قدرهم . وحبهم للقرى معروف ولا سيما في لبنان الجنوبي حيث تسيطر عادات العرب ومن امثالهم (اضرب بالسيف تتأمر واطعم خبز تتمشيخ) ويقولون « مالحنا » أي كل ملحنا وقد يقولون « جابرنا » أي اجبر قلوبنا بقبول دعوتنا الحارة إلى تناول الطعام معنا أو في محلنا ، إلى غير ذلك من العبارات المحرجة وقد كانوا في الجنوب وجبل عامل يعدون في القرى الكبيرة أو المطروقة من الغرباء ـ كالنبطية ومشغرة ـ مضيفاً ومنزولاً خاصاً للضيوف يقوم بنفقاته أهل القرية ويفردون له قسماً من أراضي القرية واملاكها ينفق

ريعه على ذلك المضيف وكان اصحاب المروءة من الأتقياء يوقفون جانباً من املاكهم للمضيف ، وكان لهذا المضيف ولاوقافه ادارة خاصة لها وكلاؤهـا وخدمها الموظفون للعمل والخدمة وربما استغنى بعض الوكلاء ممن احسن ادارة هذه الاملاك وأحسن تدبير المنزول وأمن حاجة الضيوف إلى الأكل والمنامة وعليق الخيل والدواب – من وراء وظيفته واستغلاله لصداقـة الضيوف وعطف أرباب الوجاهة والمال منهم كما كان واقع الحال مع جد بعض الاسر النابهة في مشغرة حين استدعي لإدارة املاك المنزول ومراقبة نفقاته وتأمين حاجة الاضياف ذلك على ما يروي العارفون بتاريخ مشغرة[1].

تقاليد الضيافـة اللبنانية والعاملية في القرن الثامن عشر

ما عساه أن يقدم لضيفه الرجل المرموق بل أكثر النـاس ثراء في الجبل؟ في العشاء أرز مفلفل ولبن وبيض، وعند النوم فراش رقيق مبسوط على حصير مع تمني الراحة للضيف العزيز ...

وإذا كان صاحب المنزل فلاحاً بسيطاً ، وأغلب الاحيان ينزل السائحون عند هذا الفلاح ، فغرفة نومه هي بالوقت نفسه زريبـة مواشيه ، وهكذا تؤنس مساكنة البقر ، والحمير ، والدجاج ، والأولاد الصغـار ، السائح المسكين إلى حد بعيد ..[2]

أما بيوت الأغنياء فتتألف من ثلاث حجر أو أربع غير مرتفعة الأبواب لا يستطيع رجل معتدل القامة أن يعبر منها دون أن يحني رأسه . أمـا

---

(١) لاحظ ص ١٦٦ – ١٦٨ من كتاب مع التاريخ العاملي .

(٢) إن بيوت الفلاحين في لبنان وغيره لم يكن يختلف بعضها عن بعض بومشد وكذلك بيوت الاغنياء من اهل القرى لم يكن يختلف بعضها عن بعض .

مفروشات البيت فتتألف من حصير وفراش ووسادة او وسادتين، وصندوقين أو ثلاثة دهنت بالأخضر او الاحمر ، ومرآة يبلغ حجمها عشرين سنتمتراً . وهنالك بعض الاواني الغليظة من الفخار او النحاس تستخدم في قضاء بعض حاجات المنزل ، ثم تصف على رفوف في انتظار ساعة العمل ، فتكون في هذه الفترة من أدوات الزينة والتجميل .

وعندما ندخل على أمير او شيخ او رجل وجيه يجب علينا أن نتقيد ببعض عادات فرضتها التقاليد . يأتي الخدم فيخلعون حذاء الغريب الداخل وينزعون سلاحه . ثم بعد أن يجلسوه على ديوان يأتون بطست ماء ليغسلوا يديه ووجهه إذا شاء . وبعد الغسل ينشفون يديه ووجهه بمنديل موشّى بالحرير والقصب . ثم يبخرونه بالند الذي يحرقونه في حُقّ . وبعد ان ينزع المنديل يخففون من حدّة دخان العنبر والند برش قطرات خفيفة من ماء الورد ينضحون بها الضيف الكريم بواسطة منفخ . وبعد الفراغ من هذه العملية يقدمون له الغليون ، فالشراب ، وأخيراً القهوة التي لا بد منها .

القهوة عندهم أم جميع التشريفات ، وهي علامة احترام الناس ... ولكني أراني هنا معيداً ما سبق لي ان قلته في فصل مضى[1].

وعندما تحل ساعة الفطور أو الغداء يفرش على الارض شبه شرشف فوق الحصير أو السجادة التي تؤلف جزءاً من الديوان ، ثم يؤتى بالطاولة وهي عبارة عن اسكلة مدورة توضع فوق الشرشف . ثم يجيئون بكمية ضخمة من أرغفة الخبز يوازي حجم كل رغيف منها حجم صحن صغير ، وهي رقيقة جداً ، وهذا ما حدا أحد اصدقائي الذي لم ترقه عادات الشرق إلى أن يطلق عليها اسم القشرة ، إن ألوان الطعام تقدم في صحف من النحاس دفعة

---

(١) انما كانوا يستعملون هذا الترتيب مع الطبقة العليا من الضيوف كالامراء والبشوات يوم كانوا يلبسون الجزامي في سفرهم الطويل ويتضايقون من عرق الارجل وغبار الطرق .

مواحدة ، إلا اللحم المشوي إذا قدم منه ، والسلطة اذا كان سيد الدار عارفاً بذوق الأوروبيين .

إن بلوغنا غرفة الطعام لا يقتضينا عناء الانتقال من مكان إلى آخر ، فما علينا إلا نحني جسمنا ونلتوي يميناً او شمالاً حتى نبلغها .

يدعوك صاحب الدار إلى الابتداء بالاكل ، ثم يعلمك بالمثل كيف تأكل . فلا خادم ينقل اليك الصحفة . فعلى المدعو أن يدس ملعقته في صحن الارز المفلفل ، ثم يغترف شيئاً من طعام سائل يرطبه به ، إذ لا يمكن أن يدخل البطن بدون المركبة التي تجرّه . وهكذا تظل الملاعق متنقلة من صحن الى صحن حتى تنتهي هذه النزهة بشبعك . ان هذه الطريقة تمكننا من أكل ما نستسيغه أكثر من غيره دون أن نضايق في شيء .

الشوكات والسكاكين لا يزال استعمالها مجهولاً عندهم. أما ما يحتاج إلى تقطيع من ألوان الطعام كالطيور واللحم فيفسخ بالاصابع . وهـــذا عمل يقوم به صاحب البيت عن ضيفه .

والعرف العربي يقضي أن لا يوضع الشراب الذي يترطب بـه المؤاكلون على المائدة ، فالخدم يحملون الاباريق والكاسات ليصبوا الماء لمن يطلبه .

لاحظ ص ٥٩ — ٦٠ بيروت ولبنان منذ قرن ونصف او قرنين لقنصل فرنسا في بيروت غيزو

مآدب الامراء في القرن الثامن عشر

الأمراء يتناولون الشراب والقهوة قبل غيرهم . واذا ما التقى عدة امراء من مقام واحد وفي مكان واحد فالقهوة تقدم لهم جميعـاً في وقت واحد . تلك هي العادة التركية . ويقف الأمراء علامة الاحترام لجميع الذين يقبلون أيديهم ، ما عدا العوام .

أما مآدبهم فصحية بسيطة . وترتب هكذا : يبـدأ بتنظيف الحصير ، ثم تبسط فوقه قطعة من القماش الابيض مزركشة اطرافها وقد دبجت عليها عدة رسوم . ثم يضعون في الوسط اسكملة يبلغ علوها حوالي ٣٥ سنتمتراً . ثم يؤتى بطبق مستدير من النحاس (الصدر) يراوح قطره بـين المتر والمتر والنصف حسب عدد الآكلين . ثم يكدس الخبز على الشرشف بمقـدار يزيد عشر مرات على الحاجة المطلوبة . وتلك عادة مرعية عنـد جميع العرب . وهي دليل الوفرة والسعة والكرم . ثم يملأ الطبق حالاً بقصع عديدة مختلفة الحجم ، والشكل والجنس ، محتوية على الطيــور أو اللحم ، وكثير من المقبلات التي تكون من الزيتون ، والسمك المكبوس بالخل ، واللبن . وأخيراً بقصعة كبيرة من الأرز المفلفل . ثم توزع ملاعق خشبية عريضة مسطحـة ليأكل الحاضرون من الارز واللبن . فتجول هذه الملاعق الغليظة ، كما يشتهي الآكل ، من صحن إلى آخر . الجميع يتناولون ، بملء حريتهم ، ما يرغبون فيه من مختلف الصحون ، ولا تكاد تفرغ تلك الصحون والقصـاع حتى تملأ ثانية لحماً مشوياً وسلطة .

لا يضعون مع هذه الالوان من الاطعمة إلا قليلاً من الجبن . وعندمـــا يشبع المدعوون ينسحبون بنظام واحداً بعد واحد ، فيحل محلهم الخدام . وأخيراً ينهض الامير فيقدمون له طستاً وابريقاً من النحـــاس ليغسل يديه اللتين تكونان بحاجة كبيرة إلى ذلك ، لانهما قامتا مقام الشوكة والسكـين والملعقة في تناول الطعام ، وكثيراً ما يقدم الواحد من هؤلاء إلى ضيفـه قطعة من اللحم بعد أن يكون قد قضمها بأسنانه . وهو لا يفعل ذلك إلا برهاناً على الاعزاز والمحبة العظيمين . وعندما يغسل الجميع أيديهم يكرّون مرة ثانية على الطبق لتناول الحلويات وقوامها المربيات والثمار ، والمهلبية . وهذا اللون الاخير من الحلوى لا بد منه في كل مأدبة ذات شأن .

وفي اثناء تناول الطعام لا تصب الخمر ابداً ، ولكنهم يشربون الماء من ابريق ذي انبوب يصب منه كل واحد في حلقه مـا يريد من ماء ، مبعداً الانبوب عن شفتيه نحو عشرة سنتمترات او عشرين سنتمتراً او ثلاثين [1] .

لاحظ ص ١٢٩ من نفس المصدر

المسيو غيزو

(١) ويسمون هذه الطريقة (الزرنقة).

من عاداتهم في النوائب والأمراض

من عاداتهم في النوائب

وكانوا إذا أصيب أحدهم بنكبة او نائبة كخسارة أمواله او فقـد أحد اعضائه كالعين واليد والرجل وما شاكل ذلك اجتمعوا في بيته يسلونـه بقص الحوادث التي جرت للناس أعظم مما جرى له فيهونون عليه مصابه وقد يسعون له بالتعويض المـالي مثل جمع إعانة ونحوها لمساعدته واعالة اسرتـه والسعي له بعمل يوافق اذا كان مشوهاً فكثيراً ما يسلونه أولادهم اذا كان قارئاً وكاتباً وحاسباً فيدرسهم ، وقد تكون المساعدة من الأمير او الاقطاعي الذي ينتمي هو اليه بدراهم ونحوها . ومن أساليبهم في تعزية المنكوبين بفقد المال قولهم « اللي بيتعوض ما هو خسارة » و « بالمال ولا بالرجال » « واللي ما له ما بروح ماله » ويقولون للمنكوبين بالتشويه « بنشكر الله اللي ما هو اعظم » و « أشد الاوجاع الحاضرة » و « لا تكبر مصيبتك بتصغر » .

من عاداتهم في الامراض

وكانوا يعتقدون ان الطب تجربة واختبار فلذلك قالوا « اسأل مجرب ولا تسأل حكيم » وكثيراً ما كانوا يعالجون بوصفات العجائز والشيوخ وبالضمادات والفصد والكي وتناول بعض العقاقير الطبية والحقن وامثالها ، او ينذرون للمعابد وقبور الأولياء زيتاً وشموعاً وبخوراً ، او ينقلون بعض العقاقير النابتة في جدرانها فيفضلونها على غيرهـا ، وقـد يتركون بعض الأمراض بدون

علاج كالفالج مثلا ويقولون « فالج لا تمـــالج » وان اضطروا إلى مشاورة طبيب جاؤوا بأحد الدجالين من الوطنيين او المغاربة الذين يطوفون القرى بالعقاقير او بكتابة الحجب والتعاويذ، او بالفصد والكي والحقن. وقد يكون الاطباء من الشيوخ او الكهنة فيكون ضررهم أقل . والطب كان على طريقة ابن سينا ، لدى المثقفين منهم . وأما عيادة المريض عندهم فواجبـة ولا سيما الدخول إلى غرفته والضجة فيها والتدخـــين . ومن أغرب معالجاتهم الكي بالرأس لبعض البثور التي تظهر في الوجه، والتمسيد او الدغدغة لوجع المعدة، واحراق صوفة كلب ووضعها على جرح من عقره كلب، واستخراج السم من لدغة عقرب أو أفعى بحجر السم في خواتمهم او باستشارة الحاوي وهو الذي يربط الحية ويشفي من لدغتها ، وشفاء المصدور بتجريعه لبن اتان (حمارة) وانقاذ المذعور (المرعوب) بتجريعه بول الانسان او بالتقسيم عليه والدعاء له أو ما أشبه ذلك، وابراء الوثاب وهو حالة عصبية، بالقبض على عرق بين الكتفين، وابطال الحازوق (الفواق) باغضاب المصاب بها كأن يقال له (شو سرقت) مما يوغر صدره ، ورد العين (اي الاصابة بها) بالرقية والتبخر بأثر العـائن (الصائب) الذي يعرف بسكب رصاصتـه في صحن ماء بيـد الراقي او الراقية والتأمل في الصورة التي ظهرت وتطبيقها عليه ، ومعالجة (بثرة العين) بأن يشحذ المصاب بها من سبع نساء اسمهن مريم ولذلك سموها الشحاذ ويطعم ما شحذه لكلب أسود، وذبحة الأولاد او تذبيبهم بأن يمر احد الرعاة سكينة على عنقه ثلاثاً ، والتهاب اللوزتين بتمسيد من خنق خلداً بيـده ، والحزازة (القوباء) في الجلد بإمرار قلم كاتب ابن كاتب على حواشيها بحـبره في أيام معلومة. وانهم عند ادناف المريض يتطيرون من نعيب البوم ويخافون عليـه من الموت « وكذلك اذا كسر ماعون في البيت واذا عوى كلب عواءاً مقلوباً او صاحت دجاجة [1] كالديك »

(١) لاحظ ١٦٨ — ١٧٠ من كتاب مع التاريخ العـاملي : وص ١٥١ — ١٦٤ من كتـاب (لبنان) سنة ١٣٣٤ هـ.

من عاداتهم في الطب والعلاج

ثم كان من عاداتهم في الطب والعلاج التداوي بالنذور لمقامات الأولياء وما شاكلها تقديساً (١) وبطاسة الرعبة (٢) وبالتمائم وكتابة الأدعية والحروز (٣) او بالرقوة ، والتراب المرقي (٤) أو الكي (٥) .

• • •

(١) كمقام النبي شمع في مزرعة شمع ومقام النبي شيت او الشيخ ابراهيم الكفعمي في قرية جبشيت ، ومقام النبي سجد شرقي قرية عرب صالح ، ومقام النبي يوشع في مزرعة يوشع شرقي ميس الجبل .

(٢) طاسة مصنوعة من البرونز على شكل حوض ماء يتوسطه نوفرة كانوا يأتون بها من الحاج ليتداووا بها وذلك بأن يوضع بها ماء وتبيّت ليلا في الفضاء وفي الصباح يسقى الطفل المريض (خوفاً ورعبة) من ذلك الماء .

(٣) نوع من الخرز الأزرق او التراب المرقي بالأدعية والابتهالات المكتوبة على الورق يجمع ويطوى ضمن غلاف من الجلد او الفضة او المعدن ثم يعلق على صدر المريض او على جانبه او يربط بعضده اذا كان الغلاف من جلد ونحوه .

(٤) أما الرقوة فهي بأن يلمس الشيخ رأس المريض او زنده او كتفه ويقرأ له الأدعية والابتهالات وبين المقطع والمقطع من الدعاء ينفخ في وجهه وكذلك التداوي بالتراب المرقي او تراب الشهداء .

(٥) والكي : يقول العلامة الأمين « ومن العادات الطبية الكي » .

١ — ومنها الكي في نقرة الرأس للمجنون .

٢ — والكي على الجبهة من اولها لآخرها لوجع العيون وللجنون .

٣ — أيضاً : والكي في الزندين تحت الكتف لوجع العيون .

٤ — والكي في نقرة القفا لوجع العيون .

٥ — والكي في اول الفخذ تحت الركبة او في اسفل الساق للريح ووجع المفاصل .

٦ — والكي على صلب المرأة للحبل(١) .

وكانوا — إذا اعياهم الدواء — يقولون آخر الدواء الكي .

ومن عاداتهم في المآتم انهم كانوا عندما يتوفى شخص في القرية نابهاً كان او خاملا يصعد في الصباح مؤذن القرية او ناطورها على ربوة او مئذنة او سطح مشرف على بيوت القرية ، وينادي باعلى صوته « سبحان الحي الدائم على الأجر على الأجر ، انتقل الى رحمة ربـه المرحوم فلان او المرحومـة فلانة » وقد يكرر النداء اكثر من مرة .

فيهب اهل القرية الرجال منهم الى الجبانة لحفر القبر وبناء اللحد وتحضير الرصايف الكبيرة ؛ والنساء الى بيت الميت يواسون اهله ويسعفونهم في تحضير جرار المياه من العيون والآبار لتغسيل الميت ، ولسقـاية الناس . ومنهن من تسعى لتجهيز اعمال الخبز وتوزيع ادوار الخبازات على التنانير او لتحضير ادوات الطعام ولوازمه وصنعه ثم تقديمه بعد ذلك لمن يفدون على اصحاب العزاء من اهل القرى البعيدة والقريبة : والقسم الكبير من النساء يتفرغن للندب فيعقدن مع ذوي الفقيد حلقة متكاثفة العدد من الواقفـات لندبـه بالقول الحزين والتصفيق المنسجم مع القول والرقص الهادىء المستكين داخل الحلقة ؛ وقد يستعملن السيوف في رقصهن بدلاً من التلويح بثياب الميت ، وذلك بأن تحمل المرأة السيف ببراعة ثم تتنقل به برشاقة داخل الحلقـة

---

(١) لاحظ ص ١٢٣ من خطط جبل عامل .

في مواجهة زميلتهــا في الرقص بالسيف : ويتنوع الرقص بالسيف بتنوع التصفيق والقول حدة وهدوءاً .

* * *

ثم عندما يفرغ الرجال من حفر القبر وبناء اللحد وتحضير الرصايف ؛ وينتهون في البيت من تحضير موائد الطعام يدعون الناس جميعاً الى تنـاول الطعام وقد يقتصرون في ذلك على قرّاء القرآن عند الجنـــازة وعلى الذين اشتركوا في حفر القبر فحسب : اذا كان المتوفى فقيراً او معسراً .

* * *

وعندما ينتهون من تغسيل الميت وتكفينه يتوجه الجميع لتشييع الجنازة. ثم يسيرون وراء النعش بالتهليل والتكبير وترديد كلمة : « سبحان من تفرد بالقدرة والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء سبحان الحي الدائم » .

* * *

ثم اذا كان الميت شاباً عزيزاً او فتاة في ريعان الصبا شيعهما الشباب مع ذلك بالحداء الحزين والصبايا بالندب والنواح والزغاريد الباكية .

* * *

ثم انهم قبل الوصول الى القبر يضعون نعش الميت ليصلّى عليه وبعـد الصلاة يقرأون الفاتحة ويرفعون النعش ويذهبون بـه الى حيث يوارونه في الثرى على النحو المفروض دينياً ، وبعد ذلك ينادى بالناس لقراءة الفاتحة على تراب القبر : ثم يقف الخاصة من اهل الفقيد فقط كوالده وعمومته او ابنائه واخوته لتقبل التعازي ، اذ لم يكونوا فيما مضى يستسيغون أن يقف عموم ابناء العشيرة لتقبل التعازي اظهاراً لكبر العشيرة وازهـاقاً لجماهير المشيعين والمعزين وخصوصاً المشاة منهم الحريصين على الرجوع الى مواطنهم

البعيدة قبل ان يدهمهم ظلام الليل ، كما يقف اليوم جميع اقـــارب الميت لتقبل التعازي .

***

أما اذا كان المتوفى زعيماً نابهاً أو عالماً دينياً فانهم كانوا يعممون نعيه على جميع القرى وجميع العلماء والزعماء وكانوا يكتفون في نعي اهالي القرى التي يسكنها وجيه نابه او عالم ديني بنعي الوجيه او العالم الديني فحسب : وكان اهل القرية يعتبرون ذلك بمثابة نعي لكل فرد منهم فيذهبون جميعاً الرجال منهم بالحداء ورفع الاعلام السوداء والنساء وراءهم بالندب والعويل الى قرية المتوفى من الوجهاء والعلماء النابهين .

وكان اهل القرية التي يموت فيها الوجيه او العالم النـابه .. (يقلمون) فرسه او خيله ويمشون بها امام الموكب ليستقبلوا بها مواكب القرى الآتية اليهم بالحداء وكان قلم الخيل على الميت : بأن يسرجوها ويلجموها ويضعوا عليها بترتيب احسن ثيابه واسلحته من سيف ورمح وخنجر ، او قربينة وطبنجة وجفت ، أما اذا كان المتوفى عالماً دينياً فكانوا يضيفون الى البسته عمامته فيضعونها على قربوس السرج والى جانبهـــا مصحف مغلق ومعلق بازاء العمامة .

وكان من العادات الفجة المتبعة في اظهار الحزن والأسف عند زلم البكوات وذويهم . أن (يشحّروا) ويطلوا وجه كل قادم وقادمة من أهل القرى إلى دار المتوفي من البكوات بسائل اسود او نيلي ، وقد يمزقون ذيول النساء ولو بالقوة والقهر ، مبالغة منهم في اصطناع الحزن والأسف او تمييزاً للفقيد عن بقية الناس : كما ان الرجال منهم كانوا يحلون عقلهم او لفاتهم ويطلقون شعر لحـاهم بدون تزيين الى نهاية الاربعين يوماً من وفاة الفقيد وعلى الاقل إلى نهاية الاسبوع الاول من وفاته .

ثم انهم في السابع من وفاة اي شخص ممتاز كانوا ومـــا زالوا يحتفلون لاقامة العزاء في يومه السابع (بدون نعي او دعوة جديدة) كما احتفلوا في يوم وفاته وبنفس الاساليب والعادات المتبعة يقام المأتم .

فالعامة من نساء كل قرية عند وصولهن الى المقبرة او الى ساحـــة الدار يعقدن حلقة خاصة بهن للندب والرثاء بمثل هذا القول :

« بدي حزيني تآتأول أبالي هيي لحالها وانا لحـــالي »

* * *

تنشده الندابـة فيرددنه جميع الواقفـــات في الحلقة بنفس اللهجـة وبنفس اللحن .

والعامة من الرجال يطوفون بمواكبهم بين المقبرة وساحة الدار ومشارف الطرق يرددون الاناشيد والحداء الحزين بمثل هذا القول :

حيف يا دار السعـادي يرحلوا اصحـــابك أوام
وحيف يا شمس المضيي يتبـدل نورك ظـــلام

ينشده الحادي فيردده جميع المشاة في الموكب بنفس اللحن واللهجـة وهكذا تتنوع المظاهر وتتمثل الأدوار لدى العامة الى ان ينتهي الاحتفال .

* * *

وأما الخاصة من علماء وادباء واعيان فانهم يحتفلون في دار الفقيد او في المسجد الجامع او الخيمة الكبيرة التي تمد للاحتفال او مـا اشبه ذلك من الأماكن الواسعة : وتتلى هنـــاك كلمات التأبين وقصائد الرثاء على الطريقة العاملية القديمة في تلحين الشعر وقراءته بدون تحديد لعدد المتكلمين والمؤبنين او تكليف خاص لهم او تحديد للوقت الذي يبتدئون فيه او ينتهون به . لذلك كان يطول وقت الاحتفال ويقصر حسب المدة التي تبتدىء بها تلاوة القصائد وينتهي الشعراء والادباء من عرض بضاعتهم بأنفسهم او بواسطـة

القارىء الذي يختارونه لقراءة كلماتهم وقصائدهم اذ كان العلماء يترفعون عن قراءة شعرهم بأنفسهم ، واذ كان الكثير من الادباء لا يحسنون القاء كلماتهم وقصائدهم إما لان صوتهم كان خافتاً ولهجتهم منفـّرة او لأنهم لا يحسنون الاعراب والترتيل بالدقة المطلوبة ويخشون مغبة الانتقاد والهزء .

* * *

ثم كان من تقاليدهم السائدة في الحداد على الميت ان يتجنبوا وسائل اللهو والسرور كالغناء والموسيقى والرقص وخصوصاً رقصة الدبكة ، وان يقتصروا في البستهم على الالبسة السوداء والكحلية ، وان يمتنعوا عن دق اللحم واكل الكبة الى مدة تطول وتقصر حسب مكانة الفقيد ومعزته لديهم او حسب الاعتبارات والظروف التي اكتنفت موتـه ذلك بأن دق اللحم وأكل الكبة كان مظهراً من مظاهر الفرح والمرح عند العامة منهم اذ لم يكن يتيسر لهم مثل هذا الأكل الا في ايام قليلة نادرة كأيام الاعراس والاعياد والطوارىء السارة : والفراكة كانت خير مـا تقدمه الأم لولدها العريس ، والعروس لعريسها الجديد والكرام لضيوفهم المحترمين .

طرف من العادات والتقاليد

مظاهر الشورى في الحكم الاقطاعي

ان الأمور بأسرها كانت تسير على حسب تعاقب الحوادث وتكيّف الاحوال ، فاذا كان الحاكم الاقطاعي صاحب عقل ودراية (ولسان ذلق) فعل ما شاء : فهو حينئذ مطلق السلطة والا فهو كالآلة وجوده وعدمه سيّان . بيد انه لدى اعلان الحرب ؛ او عقد الصلح مع الأخصام ؛ او طرح الضرائب ، لا بد له من موافقة الوجوه والأعيان .

وعليه عندئذ ان يجمعهم للاستشارة في الأمر ، وكل فرد ذي شأن ومكان له الحق في ان يبدي رأيه وملاحظاته ، فالحكم عندهم في مثل هذه الاحوال شعبي (وشبه دمقراطي) .

لاحظ ص ٥٥ من رحلة فولني
تعريب السيوفي

عادة الحلف على السيف والصحف

وكان من عادتهم لدى التعاقد والتحالف قبل الحرب او لدى الصلح بعد الخصام ان يتعاقدوا ويتحالفوا على السيف والمصحف ، ذلك بأن السيف

يمثل شرف القوة العسكرية لدى المحاربين وبأن المصحف يمثل شرف القوة الروحية لدى المسلمين .

لاحظ ص ٢٨ من تاريخ علي بيك الكبير للمؤلف
محمد رفعت

عادة السخرة

وكان من عادتهم تسخير الرجال والنساء والدواب عند الحاجة الى شغل او نقل ما يعجزون عن انجازه بالسرعة المطلوبة من الاعمال الشاقة كنقل الغلة والمؤن والامتعة الكثيرة من بلد إلى بلد وكحفر الخنادق وبناء الجدران الكبيرة وما شاكل ذلك وخصوصاً في حالات الحرب ، يقول الشيخ حيدر رضا الركيني « وفي هذه السنة سنة (١١٩٤ هـ) نقل الشيخ ابو صليبي الحمارة من شحور إلى مدينة صور وسخروا الدواب من القرايا والذي ما يرسل دابته يأخذوا منه كراها والبلدة التي ما ترسل دوابها يأخذوا من اهلها قرشين (عن كل دابة) ويستكروا على نايبهم لكي تخلص ذمتهم » .

لاحظ ص ٧٢٨ من العرفان — م ٢٨

طريقتهم في اعلان الحرب واستنفار الرجال

كان من عاداتهم عندما يصمم القادة والزعماء على الحرب — دفاعاً او هجوماً — ان يرسلوا الصواتين الى عموم القرى ليعلنوا من ذرى الجبال والسطوح المشرفة ، الدعوة الى ملاقاة الاعداء في الاماكن التي يعينونها ويستنهضون همم الرجال بالعبائر المثيرة لنخوتهم وحميتهم — بعد ان يحملوا الاسباب الموجبة — كقولهم « يا اهل الغيرة والمروءة ، يا سياج العذارى ؛ يا حماة الديار شدوا على الخيل واحملوا سلاحكم وسارعوا الى لقاء الاعداء قبل

ان يباغتوكم في ارضكم ويستبيحوا اموالكم واعراضكم ودماءكم ، إلى غير ذلك من الكلمات المؤثرة » .

لاحظ ص ٥٦ من فولني

تعريب السيوفي

العـــادات والتقاليد

مظاهر النجدة والحمية

ان توالي الحروب والوقائع الدامية بين العامليين وبين جيرانهم من مشايخ فلسطين وامراء وادي التيم ولبنان اضرم في نفوسهم شعلة النجدة والحمية ، وباتوا حذرين متحفزين لدفع كل ملمة ، حتى بلغ من شدة حذرهم في زمن الشيخ عباس المحمد في اواسط القرن الثامن عشر ، ان رجلاً منهم كان قائماً على مزرعـــة يحرسها من الوحوش اطلق عياراً نارياً فظن اهل القرى المجاورة انه اطلقه مستغيثاً او مخبراً بدخول العدو، فأجابوه باطلاق الرصاص طلباً للنجدة وتبعهم في ذلك اهل القرى المتصلة حتى امتد الصوت – على ما قيل – من جباع الحلاوي في سفح جبل لبنان الى قرية البصة على حدود عكا ، وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الألوف من الرجال ترد وتحتشد والفرسان مهيئة للطعان[1].

ويؤكد هذا القول ما يرويه الركيني – وهو من المعاصرين للحوادث – بقوله « وفي ليلة هذا الاثنين اعني ليلة العيد على مـــا شهدوا به : انه اول شوال قوصوا المدافع في مدينة صور في وقت العشاء بعد الغروب بساعتين فظنت الناس من القرايا أنها كبست صور فركبت الخيل والزلم فظهر ان سبب

---

(١) لاحظ قول الشيخ احمد رضا ؛ ص ٢٨٧ من العرفان – م ٢

ذلك انها ما تحققت الشهادة إلا بعد العشاء فقوصوا المدافع في غير وقت رؤية الهلال ، ولهذا ظنت الناس انها كبسة » اي غارة مفاجئة .

لاحظ ص ٤٥٤ من العرفان — م ٢٨ ج ٥

اوضاعهم وعاداتهم في الحروب

« كان كل رجل شيخاً او فلاحاً يعد نفسه جندياً في اوان الحرب ، فيمضي الى المكان الذي يعينه له الحاكم والزعيم الاقطاعي ، آخذاً معه — بالاضافة الى اسلحته الجارحة — بندقيته ورصاصاً وباروداً ، وكمية من الزاد تكفي لبعض الوقت .

واذا كانت الحرب اهلية تسلح الخدم والمزارعون والأقرباء والاصدقاء والتفوا حول رئيسهم او عميدهم ، فيبدو عندئذ ان تلك الجماعات المتهيجة سيفتك بعضها ببعض ، ولكنهم قلما يتقاتلون ، اذ في آخر ساعة يقوم افراد بالتوسط بين الفريقين فيصلحوا ذات البين ، وتوسط كهذا يرحب به الجميع ، ولا سيما الرؤساء الذين يتحتم عليهم القيام بنفقات رجالهم من ميرة وذخيرة كلما طالت الحرب وامتد زمنها . »

لاحظ ص ٥٥ من فولني
تعريب السيوفي

الفوضى والنظـــام في حروبهم

ان الحرب في ذلك الزمن وخصوصاً الحروب الاهلية والطائفية لم تكن بين جيوش منظمة او مدربة على اساليب الهجوم والدفاع ومعرفة متى يقدمون ومتى يتراجعون ومتى يصمدون للعدو ، وانما كانت الحرب اشبه ما تكون (بالهوشة) او الفورة الوقتية .. فالفئة التي يتاح لها ان تسبق

إلى الفتك بمقدمة اخصامها او الى قتل بعض قادتهم تكون الفئة الغالبة ، والفئة التي تباغت بشيء من ذلك يمسها الوهن والجزع وتلجأ الى الفرار .

ويقول الخوري قسطنطين الباشا في تعقيبه على انهزام جيش الكنج يوسف باشا في معركة الجديدة سنة ١٢٢٥ هـ يقول « وكان يكفي فيها — أي في المعارك الحربية يومئذ — ان ينادي بعض قادة الجيش كسرة كسرة وينهزم أمامهم فيلحقه اصحابه بالانهزام وبذلك تتم الموقعة بانتصار العدو وان لم يقتل فيها احد .. وربما قتل بالانكسار أو بالانهزام كثيرون » .

تاريخ ولاية سليمان باشا ص ١٣٠

ويقول فولني : « لا إلمام للآسيويين — ويقصد عرب مصر وسورية — بالمبادىء الحربية فجيوشهم فوضى وزحفهم نهب وحملاتهم غزوات ومعاركهم اعتراك يسعى أقدرهم او أجرؤهم الى الآخر فينهزم غالباً دون نزال .. فاذا ثبت نشبت الحرب واختلط المتقاتلون وتلاحموا وتفجرت البواريد وتحطمت الرماح وكثيراً ما يسود الرعب ولا سبب له فيهرب فريق ويزحمه الآخر منادياً بالنصر ، وكثيراً ما تتقرر المعركة بعد مقتل رجلين او ثلاثة »

ثلاثة اعوام في مصر والشام
لفولني ص ٨٧ ثم ص ١١٩
تعريب ادوار البستاني

عادة قطع رؤوس الاعداء واخذها
الى مقر السلطان او الحاكم العام

وكان من عاداتهم عند انتصارهم في الحروب قطع رؤوس الاعداء او النابهين من قادتهم واخذها الى مقر السلطان او الحاكم العام ، كما يبدو من ارسال رأس الشيخ علي بن ظاهر العمر من علما الجيري حيث قتل الى والي الشام

محمد باشا العظم ، ومن اخذ رأس ابو حمد القصار من نهر الرقاد في الجولان الى مقر الوالي في الشام سنة ١١٩٣ هـ ومن اخـذ رأس احمد داغر المتوالي – وكان من قادة الثوار في لبنان سنة ١٨٤٠ – الى الأمير بشير في بتدين[١].

عادة قطع الاشجار انتقاماً

وكان من عادة الحكام والرؤساء عندمـــا ينقمون على فرد او جماعة من انصارهم او اخصامهم يقطعون كل ما لديه او لديهم من اشجار مثمرة عدا مصادرة الأموال ونهب البيوت واحراقها وخصوصاً بعـد الانتصار عليهم في المعارك الحربية .

عادة الإعدام بالخازوق

وكان من عادة ولاة الأتراك الاعدام (بالخـــازوق) وذلك بأن يجلسوا المجرم (بنظرهم) جلوساً عادياً على الخازوق ؛ او بأن يلقوا المجرم على بطنه او جنبه ويدخلوا في جسمه حربة الخازوق ، من جـانب الى ان يخرج من الجانب الآخر[٢] .

يقول المؤرخ اسطفان الدويهي عن مقتل حسين المرجي احد انصار الشيخ مشرف بن علي الصغير سنة ١١١٠ هـ « وبالحال امر – باشة صيدا – برفع حسين المرجي على الخازوق[٣].

---

(١) لاحظ ص ٤٦ ج ٢ من حروب ابراهيم باشا المصري حيث يقـول المؤلف « وفي ٢٨ تمـوز حضر رأس احمد داغر المتـوالي الى بتدين وذلك لان حسين السلمان مسكه في بــلاد المتاولة وقتله » .

(٢) لاحظ ص ٤٠ من مشهد العيان لمؤلفه الدكتور مخائيل مشاقه ،

(٣) لاحظ ص ٣٨٣ – ٣٨٤ من تاريخ الازمنة : طبعة بيروت سنة ١٩٥١

ويقول المؤرخ السبيتي « وفي سنة سبعة وتسعين جمعوا اي (المتاولة) وحشدوا وكان المدبر الشيخ علي الزين صاحب شحور ، فرأسوا حمزة من بيت علي الصغير ونهضوا الى تبنين فقتلوا المتسلم وهرب الكاتب من بيت الأيوب وأخذ الدفاتر الى صيدا الى الجزار ، فارسل عسكراً الى شحور فقتل مقتلة عظيمة وأخذ الاسرى فصلب حمزة بالخازوق [1] » .

عادة الجلد بالفلقة

يقول المغفور له مؤلف اعيان الشيعة في الحديث عن مبتدا تعلمه « وبعدما بلغت سن التمييز وكنت وحيد ابوي ذهبت بي الوالدة الى معلم القرآن في القرية وذلك بين سنة ١٢٩٢ — ١٢٩٣ هـ فلما دخلت مكان التعليم ضاق صدري ضيقاً شديداً وجزعت جزعاً مفرطاً ، اولاً لأن ذلك طبيعة الأطفال (وثانياً) لما كان في التعليم من القساوة (فالفلقة) معلقة في الحائط فوق رأس المعلم ، وهي خشبة بطول ثلاثة أشبار تقريباً مثقوب طرفاها وفيها حبل دقيق يوضع فيها الساقان وتشد عليهما ، وعنده عصاوان طويلة وقصيرة ، والأطفال جلوس الى جانبيه فاذا غضب المعلم على واحد لذنب هو من الصغائر وكان قريباً منه تناوله ضرباً على رجليه بالعصا القصيرة فان كان بعيداً عنه ضربه بالعصا الطويلة ، واذا غضب على الجميع تناولهم بالضرب على أرجلهم بالعصا الطويلة وهم جلوس صابرون على هذا البلاء خوفاً من الأشد منه وهو (الفلقة) واذا غضب المعلم على واحد لذنب هو عنده من الكبائر كأن يهرب فراراً مما يلاقيه أرسل المعلم الأطفال الكبار ليأتوا به كما يرسل رئيس الشرطة أو الدولة جنوده لاحضار من يريد عقابه ، فان حضر معهم

---

(١) لاحظ ص ٢٢ — ٢٣ من العرفان م (٥) نقلا عن مخطوطة الحاج محمد سهيل وناصيف باشا الاسعد ؛ ثم لاحظ ص ١٧٤ من تاريخ جبل عامل للاستاذ جابر وص ١١٣ من جبل عامل في التاريخ للعلامة الفقيه .

مشياً على الأقدام فيها وإلا حملوه مشهّراً بين النـاس وهو يبكي ويصيح ولا من يجيب وهم في اثناء ذلك ينشدون الاناشيد في ذمه ، ثم يضعونـــه امام المعلم معتزين فرحين ، فيأمرهم ان يلقوه على ظهره ويرفعوا رجليه ، ثم يتناول الفلقة ، ويضع رجليه بين الحبل والخشبة ويفتل الخشبة حتى يقبض الحبل على رجليه قبضاً شديداً ، ويمسك بأحد طرفي الخشبة واحد قوي من التلاميـذ وبالطرف الآخر مثله ، ثم ينهال المعلم ضرباً على رجليه بعصا دقيقة او قضيب وهو يبكي ويصيح ويستغيث فلا يغاث والمعلم يقول له بتهرب بعد يا خبيث فيقول له والله يا شيخي ما عدت اهرب ابداً ، اما عدد الجـلدات فليس له حد في شرع المعلمين وليس هو كحد الزنا وشرب الخمر له مقدار معيّن بـل هو من نوع التعزير الموكول امره في الشرع الى نظر الامام ، وهذا موكول امره إلى نظر المعلم فيختلف باختلاف ذنب الطفل وتكرره منـــه ومقدار درجة عقل المعلم وتفاوت حاله في الغضب وحظ الطفل في السعادة والتعاسة ثم يأمر الشيخ بفك الفلقة من رجليه ، ويقوم الطفـل يمسح دموعه ويجلس في مكانه والاطفال ينظرون اليه شزراً مبتسمين تبسماً خفياً ، ولا يقل ألمه من ذلك عـــن ألمه من الضرب ، ثم يعلق الشيخ الفلقة في الوتد المثبت في الحائط .

وهذه الفلقة لا تزال معلقة هناك يراها الصبيان رمزاً الى ان من أتى بذنب فهذه معدة له ؛ ولا يتكلم اهل الطفل في شأنه بشيء بل يقولون للمعلم لك اللحم ولنا الجلد والعظم ، اعتقاداً منهم ان ذلك في مصلحته وانه محتاج الى التأديب ، لذلك لا يجسر الطفل اذا هرب ان يأتي الى بيت اهله ، ولا يتوقف المعلم عن تأديبه بأي نوع من انواع التأديب .

***

ويظهر ان هذه الطريقة وهي الشدة في التأديب على الصبيان كانت متبعة في القديم من قبل المعلمين حتى مع اولاد الخلفاء والملوك والامراء .

لاحظ ص ٨ — ٩ من اعيان الشيعة م. ٤

وكان من تقاليدهم في اختصار التاريخ ان يرمزوا الى اسمـــاء الأشهر العربية على النحو التالي :

الى شهر محرم بحرف (م) وإلى شهر صفر بحرف (ص) والى شهر ربيع أول بحرف (ر) . والى شهر ربيع ثاني بنفس الحرف (ر) والى شهر جماد اول بحرف (ج) ثم إلى جماد ثاني بحرف (ج) ، والى شهر رجب بحرف (ر)، والى شهر شعبان بحرف (ش) والى شهر رمضان بحرف (ن) والىشهر شوال بحرف (ل) والى شهر ذي القعدة بحرف (ذ) ثم الى ذي الحجـــة بنفس الحرف (ذ) .

* * *

وكانوا يجمعون رموز الأشهر الثلاثة الأول من السنة الهجرية بلفظـــة (مصر) .

والأشهر الثلاثة التي تليها بلفظة (رجج) .

والأشهر الثلاثة التي تليها (رجب شعبان رمضان) بلفظة (رشن) .

والأشهر الثلاثة الاخيرة بلفظة (لذذ)[١].

أما الدكتور أسد رستم فيروي هـــذا الاختصار وهـــذا الرمز على النحو التالي :

م — محرم	ب — رجب
ص — صفر	ش — شعبان
را — ربيع اول	ن — رمضان
ر — ربيع الثاني	ل — شوال
جا — جمادى الاولى	ق أو ذا — ذو القعدة
ج — جمادى الآخرة	ذ — ذو الحجة

(١) لاحظ ص ٤١ – ٤٢ من تاريخ علي بك الكبير لمؤلفه محمد رفعت .

ثم يقول « ومع اننا لا نزال نستعمل هذه الطريقة في كتابة التواريخ الهجرية اليوم ، فإنه لا يمكننا أن نجزم باستعمالهـا بالمعنى نفسه في مستهل القرن الماضي إذ لا بد لنـا من دليل تاريخي يدعم هـذا الاستعمال ويؤيده نقول ان أسعد افندي العيتاني اكثر الناس اطلاعاً على امور دفاتر خانة حلب قبل الحرب العامة (١٩١٤) لم يستعمل طريقة من طرق الاختصـار غير هذه ، وهو لا يزال يذكر « حروف الذاكرة » التي حفظها ليبقى الخطأ في هذه المسألة . وهي هكذا « مصرار ، جاج ، بشن ، لذاذ » .

لاحظ ص ٧ — ٨ من الأصول العربية
لتاريخ سورية ، لمؤلفه الدكتور اسد رستم

الفدان والدكنه في عرف المزارعين

من عادة المزارعين وتقاليدهم

ومن عاداتهم وتقاليدهم في القرى الزراعية أن يسموا ربط ثورين لفلاحة الأرض (دكنة) او يسمونه (فداناً) .

ومن عاداتهم ان لا يحرثوا على الفدان يومياً في الأرض اكثر من مبـذر (مدّين) او ثلاثة من الحنطة ولا اكثر من اربعة من حبوب القطاني .

وأن يقدروا مساحة القطعة من الأرض بمقدار ما يحرث الفدان بها من الايام او بمقدار ما يبذر بها الحراث من الحنطة .

وممشى الفدان من الارض بعرفهم نوعان : فممشى الفدان من نوع الخطاط هو مـا يبذر مئة مد فيه من الحنطـة « سنوياً » الى ١٥٠ مد عزيزي اي بالصاع العزيزي .

وجرى ما يحويه لدى مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي فأمر بتسطيره فسطر في غرة ربيع الاول الأنور سنة ثمانيــــة وأربعين ومايتين والف من هجرته صلى الله عليه وسلم .

شهود : جناب عثمان أفندي كرامة زادة جناب السيد خليل افندي

مرحبا باش كاتب الشيخ محمد العادلي

السيد محمد ميقاتي السيد محمد مخلد السيد مصطفى الجمل

سليمان السايس الحاج شاكر شامي الحاج محمد خرما وغيرهم

لاحظ ص ٢٤ — م ٢ : من الاصول العربية لتاريخ سورية

للدكتور اسد رستم

صورة مرسوم

مرسوم بتعيين الشيخ نعمان جنبلاط مكان الامير بشير شهاب الثاني حاكماً على الشوف وكسروان من قبل والي الدولة العثمانية محمد باشا في شوال سنة ١٢٤٧ هـ

* * *

الواقفون على مرسومنا المطاع الواجب القبول والاتباع المنصوب في هذه الدفعة شيخ مشايخ الشوف وجبل كسروان وتوابعهما عمدة المشايخ المعتبرين قدوة ذوي المقدار والعقل الرزين الشيخ نعمان بن الشيخ بشير والمنصـوب مديراً لأموره ابن عمه الشيخ قاسم زيد مقـدارهما وقدوة شيوخ جبـــل كسروان والرؤساء والاختيارية واصحاب الكلام كافة تحيطون علماً فالبادي إلى تحرير المرسوم هو انه مقتضى ظهور خيانة مير بشير لجانب الدولة العلية بموافقة الفئة الباغية المصرية وجسارته على الحركات الردية قد نصّب من طرفنا وطرف حضرة عبدالله باشا الأفخم الشيخ نعمان المومى اليه شيخ المشايـخ عليكم وتفوض لعهدته ضبطكم وربطكم وكافة امور حكومة جبـل الشوف

وكسروان ومنا فيهما من الضياع والبلدان وكذلك نصب مديراً لامــوره ابن عمه الشيخ قاسم المومى اليه ليرى مصالحكم وتسوية مقتضياتكم وقد خلعنــا عليهما خلعنا الفاخرة وزينا أكتاف صداقتهما بالملابس الزاهرة وسيرناهما الى ذلك الطرف فبناء على ذلك اللازم والواجب على كافة قطان الجبل المذكور من الشيوخ والاهالي اكمال الاذعان والإمتثال لامرهما ونهيهما وموافقة رأيهما ومتابعتهما بتأدية خدمات الدولة العلية الابدية الدوام واظهار لوازم الصداقة والاستقامة لدى جانب الوزراء العظام فالذي يتابعهما منكم وينقاد لامرهما وكلامهما فإن شاء الله تعالى يشاهد الثمرة وحسن التوجيهــــات من كافة الجهات والذي يصر منكم على الاستكبار والعناد ولا يذعن لكلامهمــا ولا ينقاد فبحوله تعالى وقوته قريباً يشاهد التدمير والنكال بسيوف السلطنــة السنية الجالبة الحتوف والاستيصال فليكن ذلك مجزومكم وانتما أيها الشيخين المومى اليهما انتما ايضاً تبذلون الاعتناء التام بالخدمة الصادقة حسب المعهــود ومثلما يرام وتألفون قلوب الفقراء والضعفاء وتعتنون بصيانتهم وحمايتهم من كافة الانحاء فلأجل ذلك من ديوان ايالات حلب ورقه ومقام سر عسكرية ديار العرب حررنا البيورلدى واصدرناه وسيرناه بمنّـه تعالى تعملون بموجبه من غير مخالفة ولا مماهلة ولا تراخي ولا مساهلــــة وفيه الكفاية هـ في ٢١ ل سنة ٤٧ .

لاحظ ص ١١٧ من الأصول العربية لتاريخ سورية ، (ج ١)
لمؤلفه الدكتور اسد رستم

التجارة والصناعة في القرن الثامن عشر

وبما ان كل شيء له ردة فعل ، فالضرر الذي لحق حينئذٍ بالفلاحة ، أثر في الصناعة والتجارة ، واما التجارة هنالك فهي اليوم كما كانت عليه في سالف الزمان ، إذ كانت الدنيا غائرة في لجة الجهل والغباوة . فعلى الساحل السوري بأجمعه لا تجد مرفأ تستطيع سفينة تستوعب ما زنته اربعمئة طن، ان ترسو فيه . وأرصفة الموانىء الباقية حتى الآن معرضة لاعتداءات الأعادي، إذ ما من حصون تحميها . فقرصان مالطة كانوا يدنون من تلك الأرصفة ، وينزلون إلى البر ، ويغنمون ما استطاعوا ، وما ذلك إلا لانه لم يكن هنالك ما يصدهم . وبما ان السكان كانوا يلقون على عاتق التجار الأوروبيين تبعة تلك الاعتداءات ، فالدولة الفرنسية توصلت بمساعيها إلى رد القرصان عن الساحل السوري ، فصار في وسع السكان ان يركبوا البحر بلا خوف . لذلك اخذت الملاحة تروج ما بين اللاذقية ويافا .

الطرق والجسور في سورية

وسورية ليس فيها طرق منظمة ، ولا ترع ملاحية ، ولا جسور على الانهر ومجاري السيول ، ووسائل اتصال مدينة بمدينة معدومة . والبريد التتري هو وحده الذي يأتي من الاستانة الى دمشق عن طريق حلب ، ولا يحط الا على مقربة من المدن الكبرى ، وقد أجازوا له أن يأخذ عند الضرورة فرس اي مسافر يصادفه . ويقطر دوماً فرساً ثانياً عملاً بعادة شائعة عند التتار ، وكثيراً ما يصطحب رفيقاً ، احترازاً مما عساه ان يحدث له من المفاجآت . وتوصيل الرسائل من مدينة الى مدينة يتم بواسطة المكارين غير أن سفرهم ليس له مواعيد معينة، بما انهم لا يستطيعون السفر الا في القوافل. وما من أحد هنالك يقدم على السفر بمفرده ، نظراً الى فقدان الأمن . فيجب على من يروم الذهاب إلى مكان ما ، ان ينتظر قيام جملة مسافرين قاصدين

ذات المكان ، او يتحين سفر احد الناس ذوي النفوذ الذي يحمل نفسه حامي القافلة ولو انه يكون في غالب الاحيان هو المستبد بهـا ، فاحتراز كهذا لا بدّ منه ، وعلى الاخص في الجهات المعرضة لاعتـداء البدو ، كفلسطين واطراف البادية ، والطريق التي ما بين حلب والاسكندرون حيث يكثر اللصـوص .

والشواجن الجبلية وعرة ، والقرويون بدلاً من تمهيدها ، يزيدونها وعورة وصعوبة ، ليحولوا دون وصول فرسان الحكام اليهم . وليس في سورية كلها عجال او مراكب ، لخوف السـكان من استيـلاء الحكام عليها ، وجميـع الأشياء يجري نقلها على الدواب ، فيستخدمون في الأماكن الجبلية البغـال والحمير ، لانها تستطيع تسلق الصخور والانحدار من عليها . ويغلب استعمال الجمال في السهول .

لاحظ ص ٩١ — ٩٣ من المصدر اي سورية ولبنان

تعريب السيوفي

اوضاع الفنادق والخانات والمسافرين

وأما الفنادق فلا وجود لها في تلك البلاد . وفي كل مدينة او قرية كبيرة بناية تدعى خاناً يحط فيها المسافرون . وهي مؤلفة من اربعة اجنحـة في وسطها باحة ، وغرفها صغيرة عارية ، لا شيء فيها سوى العقارب والغبار ، فصاحب الخان يعطي المسافر مفتاح احداها وحصيراً ، وعلى المسافر ان يهتم بما يحتاج إليه من أكل وشرب وفراش ؛ لاجـل ذلك يحمل معه أينما ذهب فراشه ، وأدوات مطبخـه ومؤونته . ومن عادة الشرقيين أن يحملوا عـدة سفرهم خفيفة سهلة النقل ، فما يأخذه معه مسافر يرغب في أن لا يعـوزه شيء : سجادة ، وفراش ، ولحاف ، وقدران الواحدة اصغر من الأخرى وصحنان ، وابريقان ، وابريق للقهوة ووعاء صغير من الخشب لحفظ الملـح

الأوزان والمكاييل والنقود
في القرن الثامن عشر

ان السوريين يتقنون معرفــة الموازين والمكاييل التي تعقــدها وتباينهــا يجعلان المتاجرة في غــاية الصعوبة ؛ فإن كل بلد لها اوزانها ومكاييلهــا ، فرطل حلب يساوي نحو ست ليبرات ؛ ورطل دمشق خمس ليبرات وربع الليبرة ، ورطل صيدا أقل من خمس ، ورطل الرملة نحو سبع . وأما الدرهم الذي هو أساس جميع هــذه الأوزان ، فانه لا يتغير إذ هــو واحد في كل مكان . وأمــا المقاييس فليس منهــا الا اثنان همــا الذراع المصري ، والذراع الاستنبولي .

والنقود قيمتها ثابتة ، ويستطيع المرء أن يجول في جميع انحاء المملكة من غير أن تدعوه الحاجة إلى ابدالها . وأصغرهــا البارة التي تدعى ايضاً « معدناً » أو « فضة » او « قطعة » او « مصرية » ويليهــا الخمس بارات ، والعشر ، والعشرون ، و « الزلطة » التي تساوي ثلاثين بارة ، فالقرش الذي يقال له ايضاً « القرش » الأسدي ، وقيمته اربعون بارة ، وهــو الاكثر تداولاً ، ويليه قرش « ابو كلب » وقيمته ستون بارة .

وجميع هذه النقود يسبكونها من الفضة الممزوجة بكثير من النحاس . وليس على أي قطعة منها نقش يمثل هيئة انسان او غيره ؛ فلا يرى عليها سوى شعار السلطان وهذه الكلمات : « سلطان البرّين ، وخاقان البحرين، السلطان بن السلطان ... ضرب في القسطنطينية أو في مصر » وهما المدينتان اللتان يضربون فيهما النقود .

وأما القطع الذهبية فهي صنفان ، « الفندقلي » و « الزهر المحبوب » .

فتلك هي نقود الدولة ؛ لكنهم يتداولون ايضاً بعض النقود الاوروبية كالريال الفضي الالماني ، وذهب البندقية الذي يرغبون فيه كثيراً ، لانه نقي المعدن ، فتتحلى به النساء بثقب قطعه وجمعها في سلسلة من ذهب يدلينها من عنقهن إلى صدرهن ، وكلما أكثرت امرأة من تلك القطع والسلاسل ازداد زهوها ومباهاتها .

وان حب الظهور هو الذي يدفعهن إلى ذاك التبرج ، وحتى الفلاحات أيضاً يحملن على هذا النمط ، بدلاً من قطع الذهب ، قروشاً او نقوداً اخرى دون القرش قيمة . غير ان نساء الطبقة الرفيعة لا يأبهن للقطع الفضية ، فلا يرغبن إلا في الذهب البندقي ، او النقود الاسبانيــة الكبيرة فالبعض منهن يحملن منهــا مئتي قطعة او ثلاثمئة يدلين قسماً من عنقهن ، وقسماً يصففنه ثم يشددنه على جبينهن عند حاشية عصابتهن .

ووزن النقود شائع في سورية ومصر وسائر بلاد الدولة ؛ فإنهم يقبلون بجميع النقود مهما طرأ عليها من تلف . لأن التاجر يعمد إلى ميزانه، فيقدر قيمتها ، ولدى تداولهم مبالغ ذات شأن ، يأتون بصراف ؛ فيعد ألوف البارات طارحاً جانباً القطع المزيفة . وأما القطع الذهبية فإنه يزنها كلها دفعة واحدة ، او كل قطعة بمفردها .

لاحظ ص ٩٥ — ٩٦ ج من رحلة فولني
(سورية ولبنان) تعريب السيوفي

سعر العملة

في سنة ١٢٢٥ هـ

في أول هذه السنة كانت تباع غرارة الحنطة النظيفة العال وهي اثنان وسبعين مداً بثمانية عشر غرشاً . وفي آخر السنة بعد كوانين ارتفعت اسعارها رويداً حتى حصلت الغرارة بخمسة وأربعين غرشاً من شدة الطلب الذي صار عليها من بيروت ومن اهل الجبل .

وكان فيها ريال ابو المدفع سعره ٤ وابو شوشة سعره ٣ والمشخص سعره ٩ والأكلك سعره ٢ واليوزلك سعره ٢ [1] والفضة وغير ذلك مما لا يسعنا ذكرها كلها إلى ان ضربت بأمر السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤٤ أصناف النقود المنسوبة اليه من ذهبية وفضية بعيار ثابت وسعر ثابت مع بقاء التعامل بالنقود المضروبة باسم والده السلطان محمود الثاني من اصناف النقود القديمة مع جواز التعامل بالنقود الذهبية من النقود الاجنبية ومنع التعامل بسواها . لكن لم يحفل الناس بهذا المنع بل لبثوا يتعاملون بالنقود القديمة والاجنبية الى ان صدر الامر السلطاني سنة ١٨٥٠ مجدداً بمنع ذلك والقبض على النقود الممنوعة أينما كانت ويعطى لاصحابها ثلاثة ارباع قيمتها فقط .

---

(١) كانت نقود العملة السلطانية في تركية عرضة للانقلاب والسقوط بسعرها لسقوط عيارها تدريجياً سواء أكانت من ذهب او فضة كما يشاء هوى اصحابها سلاطين ذلك الزمان أو كما تقتضي حاجتهم الى المال . ومتى نزل سعر أحد النقود قلما كان يرتفع ولو قليلاً . فقد كان القرش السلطاني يساوي في الاصل خمس فرنكات ذهباً ثم أخذ يسقط سعره بسقوط عياره حتى صارت قيمته إلى ما صارت إليه قبل أن فارقنا مع أصحابه بعد الحرب العظمى على ما هو معروف . ولذلك كانت تزاحمها العملة الاجنبية في كل مكان حتى في دار السلطنة واصغر قراها فكانوا يتعاملون بها ويدعونها بأسماء خاصة مثل أبو شوشة وابو مدفع وابو طاقة . وكذلك كانت النقود السلطانية بأسماء تركية كالذهب العادلي والجر والمحبوب والغازي والفندقلي والاخشاية والبارة والمصرية .

وهذه أصناف النقود المجيدية وسعرها المعترف به رسمياً لدى الحكومة وهو الصاغ بقطع النظر عن سعرها المعروف لدى التجار والعامة وهو الشرك مما كان يختلف في كل مدينة وبلدة .

الذهب العثماني	سعره	ماية قرش
نصفه	سعره	خمسون قرش
الريال المجيدي	«	تسعة عشر غرشاً
وعشره	«	البرغوت الكبير او ابو المايه
ونصف عشره	«	البرغوت الصغير او ابو الخمسين

لاحظ ص ١٥٣ – ١٥٤ من تاريخ ولاية سليمان باشا لمؤلفه المعلم ابراهيم العورة

النقود العثمانية في آخر ايامهـــا

يقول العلامة السيد محسن الامين « كانت النقود الذهبية في عهد العثمانيين تعرف بالغازي لان السلطان الذي ضربت باسمه يوصف بالغازي لان له حروباً مع غيره ونقش ذلك الوصف على النقود وهنـــاك نقود ذهبية ايضاً تعرف بالقرانيصة . وهناك نقود ذهبية ايضاً صغيرة تعرف بالربعية وكأن لكونها ربع الغازي ونقود ذهبية اخرى تعرف بالمحمودي لانها ضربت في زمن السلطان محمود . والنقود الفضية تعرف بأبي شوشة وابي مدفع وريال فنس ثم ضربت نقود ذهبية عرفت بالليرة المجيدية في زمن السلطان عبد المجيد في زنة درهمين وربع قيمة الواحدة مائة قرش صاغ ونقود فضية عرفت بالمجيدي قيمـــة الواحد منها عشرون قرشاً صاغاً ونصفه وربعه ودون الربع بقيمـــة قرشين صاغاً وبقيمة قرش واحد صاغ ونقود نحاسية فيها قليل فضة عرفت بالبشلك

لأن قيمة الواحد منها خمسة قروش وبش في اللغة التركية خمسة ، والنصف بشلك ثم نقصت قيمته إلى قرشين ونصف ومثله صغير عرف بالمتليك قيمته ١٢ بارة ونصف والبارة هي جزء من اربعين جزء من القرش ويراد منها المصرية كأنها منسوبة إلى الدولة المصرية أيام كانت بلاد الشام تحت حاكم مصر ونقود من الفضة والنحاس تسمى الزهراوي كل واحد منها بقيمة بشلكين ونقود نحاسية . وفي عهد الاتحاديين سكوا نقوداً صغيرة من النيكل مختلفة ونقشوا عليها عدالت حريت مساوات . وقد كان في السابق نقــود تسمى (عثماني) لم نعرف جنسها وقدر قيمتها لكننا وجدناها في كلام الشيخ زين الدين بن علي العاملي المعروف بالشهيد الثاني المتوفى سنة ٩٦٦ ذكرهـا عند وصف رحلته إلى استنابول فقــال ما معناه : كنا نشتري العليقة بعثماني وعثمانيين وأربعة عثمانية .)

لاحظ ص ١٣٥ من خطط جبل عامل

تفاوت سعر العملة بين عهد وعهد

يقول مؤلف دواني القطوف « أما النقود فكانت المعاملة الى اوائل القرن التاسع عشر ، بالمحبوب ، والمسكوبن ، والباره ، والقرش ، والكيس منها ، وشاع الذهب البندقي الذي كان وزنه درهماً وخمس قمحات ، وعيـاره ١٣ قيراطاً وقيمته خمس قروش ، والمحبوب القديم الذي بلغت قيمته نحو اربعة قروش ؛ ثم ضرب الذهب الجهادي ، والرباعي البندقي ، ثم عقبهما العادلي ، والغازي . ثم البشلك ، والزهراوي ، والقمري ، وذلك في خلافة السلطان محمود ، وفي خلافة السلطان عبد المجيـد ضربت الليرة المجيدية ، والريال المجيدي ، وقطعهما ، وقد كثرت انواع النقود في القرن التاسع عشر ، فاذا اضفنا الى هذا تدني اسعار المنتوجات الوطنية بنسبة ٩٥ بالمائة عما هي عليه

اليوم يتضح لنا مدى الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين العهدين[1].

وبعد فينبغي للقارىء أن يلاحظ هذا التفاوت الكبير بين قيمة القرش في تلك العهود القديمة وبين قيمته اليوم ، فان قيمة القرش في تلك العهود كانت تساوي ما قيمته اليوم ثلاثة عشر قرشاً ونصف على نسبة سعر الليرة العثمانية ١٠٠ غرش : هذا على ما حققه العلامة الشيخ احمد رضا سنة ١٩١١ وهو ممن يطمأن الى صدق معرفتهم والى دقة ملاحظاتهم وسداد رأيهم في المعادلات العلمية والتمحيص .

---

(١) لاحظ ص ٢٦٤ من دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف .

مستوى الفنون والعلوم
في القرن الثامن عشر

إن الفنون والصنائع في سورية يسيرة ، فهي لا تكاد تبلغ العشرين عدداً، بما فيها تلك التي لا يمكن الاستغناء عنها .

ففنونهم وصنائعهم تقتصر على نسيج الحرير في دمشق وحلب ، وصياغة حلى النساء ، وصنع « الظروف » المخرمة ، وتزيين السروج و « الغلايين » . فلا يرى في اسواق تينك المدينتين سوى ندافين ، ونساجين ، وحلاقين ، ومبيضين ، وحدادين ، وسراجين ، وصناع اقفال ، وخبازين ، وجزارين ، وباعة الحبوب والتمر والمعجنات ، وتجار خردوات ، و « قرداحيين » . وأما البارود فان الحاجة إليه جعلت معظم القرويين يلمون بطريقة صنعه ، وليس له معمل خاص .

ويكتفي القرويون بالصنائع الأولية التي لا غنى لهم عنها . وكل منهم يجتهد في أن لا يحرز إلا ما هو في حاجة إليه . وكل اسرة تصنع من نسيج القطن الخشن ما يلزمها لاجل كسوتها . وكل بيت فيه مطحنة سهلة النقل ، تطحن بها النساء الذرة والشعير اللازمين لاقتيات أهل البيت . وما يخرج من

تلك المطاحن ليس دقيقاً ناعماً . وخبزهم قليل الاختمار سيء الخبز ، ولكنهم يعيشون عليه . ذلك كل ما يبتغونه .

والطريقة التي كانت متبعة قديماً في تلبيس عدد الخيل بالصفيح الصلد لصونها من مفعول ضربة السيف ، هي نفسها المتبعة الآن في مدينتي حلب ودمشق لصنع حمائل اللجم .

وقشور الفضة التي يغشون بها السيور ، تثبت عليها بلا مسامير فيركبونها على الجلد باسلوب يحفظ له مرونته ، من غير ان يترك فراغاً بين قشرة واخرى ، لئلا يسهل على حد السيف حزه .

« والاصبغة التي يستعملها السوريون ابتدعها الصوريون الأولون وهي ما زالت على درجة من الاتقان تشهد بعبقرية مخترعيها الاصليين والصناع الصوريون يحرصون جد الحرص على اساليبهم فيجعلونها سراً غامضاً لا يبوحون به إلى احد » .

***

وملابس السوريين التي نفقاتها ليست بيسيرة ، لا أزرار لها ولا أبازيم .. ولا شيء من تلك الاشياء التي لا بد منها للأوروبيين ، فهي مؤلفة من سروال كبير واسع يقوم في آن واحد مقام الجوارب ، ومن قطعة من النسيج يعتمرون بها ، وقطعة يشدونها على وسطهم ، وثلاثة اثواب يلبسونها الواحد فوق الآخر على منوال المماليك : ص ١٠٠ — ١٠٣ منه .

مستوى « العلوم » في البلاد الشامية

والعلوم في الشرق ليست احسن حالاً من الفنون ، فهي في اقصى درجة من التقهقر . ليس فقط في مصر وسورية ، بل أيضاً في سائر البلاد العثمانية .

وعبثاً حاول بعضهم إنكار هذه الحقيقة استناداً إلى مدارس ومعاهد جاؤوا على ذكرها فهاتان اللفظتان ليس لهما ذات المدلول الذي ينسبه اليهما الاوربيون.

فعصر الخلفاء مضى وانقضى ، وعصر الأتراك لم يبدأ بعد : فتلك البلاد ليس فيها الآن مهندسون ، ولا فلكيون ، ولا موسيقيون ، ولا اطباء . وقلما تجد فيها من يعرف الفصاد . والتطبيب هنالك مقصور على الكي وبعض العقاقير . وكيف يمكنهم أن يتعلموا الطب ، وليس في البلاد معهد يلقن فيه ، وقد يميلون إلى علم الفلك ، رغبة منهم في معرفة الغيب والمستقبل من حركات الاجرام الفلكية . إلا انهم لا يحفلون بالعلم العويص الذي يشرح تلك الحركات بالاستناد الى علم الحساب .

ورهبان دير مار يوحنا الشوير الذين عندهم كتب ، ولهم صلة برومـا ، لم يسمعوا قط قبل مجيء فولني واقامته بين ظهرانيهم ، أن الأرض تدور حول الشمس ، وكاد ذلك القول يشككهم ، لان ذوي الغيرة والورع منهم كانوا يعدونه مخالفاً للكتاب المقدس ، وكادوا يحسبون فولني كافراً زنديقاً .

والسبب الحقيقي لهذا الجهل هو في قلة وسائل التعليم ، ولا سيا الافتقار إلى الكتب ، فالكتب كثيرة في اوروبة ، وما من شيء فيها أكثر انتشاراً من القراءة ، وأما في سورية فإنهم لا يعرفون سوى مجموعتي كتب احداهما في دير مار يوحنا الشهير التي مر بنا ذكرها ، والاخرى عند أحمد باشا الجزار في عكا . وقد رأينا كيف كانت الاولى ناقصة من حيث الكمية والنـوع . وأما الثانية ، فالذين رأوها قالوا ان عدد كتبها لا يتجاوز الثلاثمئة ، وهي كل ما تسنى للجزار غنمه من جميع البلاد السورية ، بمـا في ذلك خزانـة دير المخلص الواقع على مقربة من صيدا ، وخزانة الشيخ خيري مفتي الرملة .

لاحظ ص ١٠٥ — ١٠٨ منه

اي من رحلة فولني

تعريب السيوفي

مستوى المكاتب والكتب

وما قلة الكتب هناك إلا لأنها خطية . فنسخ كتاب واحد عمل بطيء مضن غالي الأجرة وقد يدوم عدة أشهر ، فمن الصعب والحالة هذه أن تتوفر الكتب وتنتشر العلوم :

فدير يوحنا الشويري وهو من ألمع الأديرة التي حرصت على نشر العلوم والفنون ، ومزيته الكبرى في احتوائه على مطبعة عربية هي الوحيدة التي نجحت في البلاد الشرقية : ومع ذلك فلا ترى فيه سوى هذه الكتب التي طبعت فيه .

١ — ميزان الزمان للأب نيارمبرغ اليسوعي — ٢ أباطيل العالم للأب ديداكو اليسوعي — ٣ مرشد الخاطىء للأب لويس دي غرناد اليسوعي — ٤ — مرشد الكاهن — ٥ قوت النفس — ٦ مرشد المسيحيين — ٧ التأمل الإسبوعي — ٨ التعليم المسيحي — ٩ تفسير السبعات — ١٠ مزامير داود مترجماً عن اليونانية — ١١ النبوات — ١٢ الإنجيل والرسائل — ١٣ السويعيات تأليف رودريكاز .

وكتب المخطوطات في الدير هي :

١ — الاقتداء بالمسيح — ٢ بستان الرهبان — ٣ علم النية تأليف بوزامبوم ٤ مواعظ سينياري — ٧ قواعد النواميس لكلود فريتيو — * ٨ مجادلات الانبا جرجي — ٩ المنطق ترجمه عن اللاتينية احد افراد الطائفة المارونية — ١٠ نور الألباب لبولس الأزميري اليهودي الاصل المرتد إلى المسيحية — * ١١ المطالب والمباحث للمطران جرمانوس فرحات — ١٢ * ديوان الخوري نقولا ابن عم عبدالله زاخر — ١٣ مختصر القاموس .

جميع هذه الكتب خطها المسيحيون ، والمسبوق منها بنجمة الفت باللغة العربية . أما الكتب الآتي بيانها فألفها المسلمون :

١ — القرآن — ٢ قاموس الفيروزابادي — ٣ الفية ابن مالك — ٤ تفسير ألف بيت — ٥ الاجرومية — ٦ التفتازاني — ٧ مقامات الحريري — ٨ ديوان عمر بن الفارض — ٩ فقه اللغة — ١٠ الطب ، لابن سينا — ١١ المفردات ترجمة ابن البيطار ١٢ دعوات الاطباء — ١٣ عبارات المتكلمين — ١٤ النديم الوحيد — ١٥ تاريخ اليهود ليوسيفوس (ترجمة سيئة) ، وايضاً كتب في علم الفلك ، وكتب اخرى لا فائدة منها .

تلك هي مجموعة خزانة دير مار يوحنا ، ومنها يمكن أن تعرف مستوى الثقافة في جميع انحاء سورية ، حيث لا يوجد سوى هذه الخزانة وخزانة الجزار . ولم يكن بين المخطوطات ما هو جدير بالترجمة من حيث مضمونه، حتى ان مقامات الحريري لا اهمية لها إلا من حيث لغتها ، وليس بين الرهبان من يستطيع فهمها سوى راهب واحد ، كما ان باقي المخطوطات يتعذر فهمها على معظم الرهبان .

لاحظ ص ٢٩ — ٣٠ من تعريب السيوفي ج ٢ لرحلة فولني

مستوى التعليم وطرقه
في العهود الاقطاعية

مما لا شك فيه ان الامية كانت سائدة بين الجماهير في العهود الاقطاعية طيلة القرون التي حكمها العثمانيون حتى نهاية القرن ١٩ ، ولولا طموح بعض ابناء القرى لان يكونوا وكلاء عند زعماء الاقطاع لضبط حاصلاتهم الزراعية ومقدراتهم الاقتصادية ، ثم اضطرار النابهين من التجار إلى من يحرر لهم حساباتهم ويصفي ارباحهم من خسائرهم ، ثم حرص المحافظين من رجال الدين على التمسك بتراث آبائهم واجدادهم من العلوم الدينية ، لعزّ — في البلاد — وجود من يحسن القراءة والكتابة وخصوصاً في فترات الخوف والقلق واستبداد الفقر والجهل والطغيان السياسي ، بيد أن الضرورات تبيح المحظورات وتدعو إلى التمسك بالقدر الذي لا بد منه من القراءة والكتابة والعلم والتعليم الذي لم تتغير طرقه وأساليبه حتى نهاية القرن التاسع عشر .

طرق التعليم ومراحله

أما طرق التعليم في البلاد اللبنانية فهي لا تعدو ما قد رسمه الشيخ نسيب وهيبة الخازن حيث يقول « في فترة بدأت ببدء القرن السابع عشر

وامتدت إلى منتصف القرن التاسع عشر ، كان مسيحيو لبنان إذ ذاك ، واكثريتهم المارونية ، بين قديم شرقي وجديد غربي، بيد ان السواد الأعظم ظل يتلقى ما اورثته الأجيال من التقاليد والاساطير ، منه من يتعلم فك الحرف ، الآرامي — السرياني والعربي ، تحت سنديانة كنيسة القرية ، في ورق مقوّى يكتب عليه المعلم الاحرف الابجدية ، ويثبت التلميذ ورقته في شق عود حرصاً عليها من التلف ، ويتدرج إلى قراءة مزامير داود ، ثم يرقى الى فك الحرف السرياني ، ويعلو بعد ذلك الى مستوى قراءة خدمة القداس باللغتين السريانية والعربية .

ومن عهد دانيال الى عهدنا لم تتغير الحياة في الشرق كثيراً إلا في بدء القرن الحاضر (القرن العشرين) وفي الاوساط المثقفة والمتفرنجة فقط : « كان أبناء بابل منذ ستين قرناً يدرسون على لوحة من الآجر يرسم المعلم الاحرف عليها وهي طرية، ويضعها التلاميذ في نطاق خشبي لحفظها بعد تجفيفها. وهكذا درس دانيال في القرن السابع ق. م ليلتحق بحاشية نبوقد نصّر ، وهكذا درس ابي بعد ان حل الورق محل الآجر والرق والبردي ، وهكذا درس اسلافه » .

لاحظ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ من الاصول التاريخية م ٣

نموذج من طريقة التعليم في العصر السابق

ثم حيث يقول العلامة الامين في تاريخ نشأته : « بعدما بلغت سن التمييز وذلك سنة ١٢٩١ هـ ذهبت بي الوالدة الى معلم القرآن في القرية فلما دخلت مكان التعليم (الكتاب) ضاق صدري ضيقاً شديداً وجزعت جزعاً مفرطاً لأمرين أهمها الجلد بالفلق .

وكانت طريقة التعليم ، أن يبدأ الطفل بقراءة الحروف الهجائية حتى

يحفظها ثم يأخذ في تعلم المنقوط وغير المنقوط وعدد نقط الحروف الهجائية (أ) لا شيء عليه (ب) نقطة من تحت (ت) نقطتان من فوق (ث) ثلاث نقط من فوق ، وهكذا : ثم في معرفة الحركات والسكون ، فيقول ألف أنصب ، ألف اخفض ، الف أرفع ، الف اجزم ، وهكذا الى الآخر ، ثم الباء وباقي الحروف بهذا الترتيب ، ثم الفتحتان والكسرتان والرفعتـــان بهذا الترتيب لكنهم لا ينطقون بما يدل على ذلك بلفظ صحيح ويسمون الكسر خفضاً ، والضم رفعاً ، والسكون جزماً .

« ومن العادات التي كانت متبعة احياناً ، انه اذا وصل الطفل الى سورة الضحى ، فعليه أن يأتي الى الشيخ بشيء من بيض الدجاج اقله خمس اوست واكثره عشر ليقلى بمناسبة قوله تعالى في هذه السورة : ما ودّعك ربك وما قلى ! واذا وصل الى عمّ ، عليه ان يأتي بغمة ان كان موسراً ، وهي عبارة عن الكرش والرأس والاكراع من الذبيحة بمناسبة لفظة عم من لفظة غمة ، وكل ذلك كقرب زياد من آل حرب ، فاذا ختم القرآن زفه الاطفال إلى بيت اهله ، فيطعمونهم الحلوى ويسقونهم الماء والسكر » .

تعـــلم الخط

« أما تعلم الخط فكانوا يكتبون لي قاعدة على لوح من التنك الجديد بمداد من تراب ابيض ، ثم على الورق الى ان ختمت القرآن وتعلمت الخط في مدة يسيرة . ثم لما أخذت في طلب العلم كنت أكتب في وقت العطلة على بعض الخطاطين ، وقد تعلمت السباحة وركوب الخيل والمطـــاردة (عملاً بالقول المأثور : من خط وعام وضرب بالحسام فهو نعم الغـلام) لتعارف ذلك في المحيط الذي نحن فيه » .

تعلم علمي النحو والصرف

« بعدما ختمت القرآن الكريم ، وتعلمت الكتابة شرعت في قراءة علم النحو وتعلم اجادة الخط ، فابتدأت بحفظ متن الاجرومية واعراب امثلتها غيباً كما هو المألوف .

وكان شيوخ العشيرة يكتبون لي الدروس واعراب امثلتها فأحفظ ما امكنني حفظه درساً او درسين غيباً وأتلوه على مستمع ، واشتغل بعض الوقت بتعلم حسن الخط ، وعند العصر لا بد لي من قراءة الماضي من الدروس غيباً لتبقى ثابتة في الذهن ، لكن بدون مستمع .

الانتقال الى مرحلة ثانية

« وهي الشروع في قراءة قطر النـدا وبل الصدا لابن هشام الانصاري في النحو وفي قراءة شرح سعـد الدين التفتازاني على متن عربي في التصريف وذلك سنة ١٢٩٥ هـ فشرعت في قراءة ذينك الكتابين على احـد فضلاء العـائلة فحضرت عنده القراءة انا ورفيقان لي همـا أكبر مني سناً بكثير ، فجلسنا امامه في المسجد على ركبنا متأدبين كما هي العادة ، وشرع احـدنا يقرأ العبارة كما هي العادة ايضاً ، بان يقرأ احد التلاميذ عبـارة الكتاب والباقون يضبطون عليه ثم يفسرها لهم استاذ ، ثم يقومون فيعيد الذي قرأ العبارة ما قال الاستاذ في تفسيرها والباقون يراقبون هل اصاب او اخطأ ، وفي اليوم الثاني يقرأ العبارة تلميذ آخر ويعيد ما ذكره الاستاذ حتى ينتهي الدور ، ويعود الى الذي قرأ اولاً .

ثم حين حضر من العراق السيد جواد مرتضى الى قريته عيثا الزط قرب تبنين وذلك حوالي سنة ١٢٩٧ هـ ارسلت الى عيثا وشرعت مع جماعة من

التلامذة في قراءة القطر عليه . وبعد اكمال شرح القطر شرعنا في قراءة شرح الناظم على الألفية بكل اتقان وجعلنا نراجع بكل دقة في اثناء ذلك شرح الشيخ الرضي على كافية ابن الحاجب الذي هو من أجل كتب النحو ويحوي على فلسفة علم النحو واللغة العربية بطرز عجيب لا يوجد في غيره، ونراجع ايضاً عدة من كتب النحو المشهورة .

وحصل ونحن في عيثا عرس في حاريص ، واتفق وجودنا هناك فرأينا العريس راكباً على فرس يطاف به على البيوت لأخذ النقوط، وهو من العادات القديمة التي لم يبق لها اثر اليوم . ثم شرعنا بعد اكمال شرح الألفية في قراءة مغني اللبيب » .

في بنت جبيل

« وفي سنة ١٢٩٨ حضر الشيخ موسى شراره من العراق الى بلدة بنت جبيل وانشأ مدرسة تدرس فيها علوم العربية من النحو والصرف والبيان وعلم المنطق وعلمي الاصول والفقه واجتمع فيها عدة من الطلاب استفادوا وأفادوا ، فذهبنا اليها واستأجرنا مسكناً وذلك في سنة ١٣٠١ هـ . وشرعنا في القراءة على السيد نجيب فضل‌الله الحسني العيناثي فأتممنا عنده قراءة المطوّل في علم المعاني والبيان . وحاشية ملا عبدالله في المنطق وقرأنا عليه شرح الشمسية في المنطق ايضاً بكل دقة واتقان ونراجع مع ذلك شرح المطالع في المنطق . ثم ابتدأنا في قراءة المعالم في الأصول مع مراجعة حاشيتي سلطان والشيرواني عليها وغيرهما بكل اتقان .

وبقينا في بنت جبيل الى سنة ١٣٠٤ وقد وصلنا في المعالم الى بحث الاستصحاب وفي شعبان من السنة المذكورة توفي الشيخ موسى وتفرقت الطلبة ايدي سبا وذهب كل منهم الى بلدته على العادة المتبعة في جبل عامل ان عمر المدرسة ينتهي بعمر صاحبها وربما ماتت في حياته » .

الرحلة في طلب العلم

« ثم جرياً على عادة الطلاب الذين يطمحون الى التخصص في العلوم الدينية سافرت الى العراق انا والشيخ حسين مغنيه سنة ١٣٠٨ هـ وبعد ان استقر بنا المقـــام في النجف شرعنا في القراءة على المشايخ . وشرع بعض الطلاب في القراءة علينا » .

اقسام التدريس في النجف

« والتدريس هناك قسمان (الاول) تدريس السطوح . وهو ما يلتزم فيه الاستاذ بتفسير عبارة الكتاب المختار لدراسة العلم الذي يراد تدريسه للطالب، ولكل علم من العلوم كتبه المخصوصة يدرس فيها ذلك العلم ، فيقرأ المدرس عبارة الكتاب ويفسرها للطلاب وان كان له نظر خاص واعتراض يبينـــه ، ومن كان له من الطلاب قابلية الرد عليه ومباحثته رد عليه وباحثه، فيقرأون اولاً النحو والصرف ، ثم البيان والمنطق ، ثم الاصول والفقه ، في كتب مخصوصة لهـــذه العلوم ومنهم من يقرأ علم الكلام الإلهي وحـــده او الإلهي والطبيعي .

(الثاني) تدريس الخارج، أي الخارج عن الكتاب وهو القاء الدرس بدون كتاب ، وهذا انما يكون في علمي الأصول والفقه ، فيلقي الشيخ مسائل اصول الفقه واحدة بعد واحدة ويذكر اقوال العلماء فيها وحججهم ويفند ما يفنده منها ويختار احداها ويصحح دليله ويحتج عليه ويناقشه الطـلاب ويجيبهم ويردون عليه ويرد عليهم ، وكذلك يكون البحث في الفقه : يذكر الفرع الفقهي واقوال العلماء فيه وأدلتهم من الأخبـــار وغيرها واجماعهم . ويناقشه الطلاب على نحو ما مرّ في علم الأصول وهكذا حتى تنتهي مسائل الباب الذي شرع فيه فينتقل الى باب آخر ، وهـذا القسم يكون التدريس فيه بعد الفراغ من القسم الأول ، وهو تدريس السطوح .

تنظيم الدروس

.. والدروس منظمة تنظيماً طبيعياً بحسب الكتب وبحسب تدريس السطح وتدريس الخارج ، ففي النحو والصرف مثلاً يبدأ الطالب بقراءة كتب مخصوصة وبعد اتمامها ينتقل الى غيرها ، وهكذا باقي العلوم ، ويبدأ بالنحو والصرف وبعد اكمالها ينتقل الى البيان والمنطق ، وبعد اكمالهما ينتقل الى الاصول والفقه سطحاً ، وبعد الفراغ منهما ينتقل الى الاصول والفقه خارجاً .

وهذا ترتيب جيد نافع الا ان تطبيقه راجع الى الطلبة انفسهم فمنهم من يوفق الى تطبيقه تطبيقاً تاماً فلا يقرأ في كتاب حتى يتم ما قبله ويتقنه ولا في علم حتى يفرغ من الذي قبله ويتقنه ولا يقرأ درس الخارج حتى يفرغ من السطوح وكثير منهم لا يطبّق هذا البرنامج فيشرع في الكتاب المتأخر قبل اكمال المتقدم وفي درس الخارج قبل اتقان السطوح ، فلا يستفيد شيئاً او يستفيد فائدة قليلة وبمدة اطول[1] مما يجب » .

---

(١) لاحظ اعيان الشيعة ج ٤٠ ص ٨ و ص ٣١ ثم ص ٤٩ — ٥١ ولمن يهمهم الاحاطة فليراجع كتاب منية المريد للشهيد الثاني وخطط جبل عامل للعلامة الأمين . وجامعة النجف للعلامة الفقيه .

التنظيم الاداري
في عهد الباشا العادل!

يقول المعلم ابراهيم العورة : «في هذه السنة سنة ١٢٣٢ هـ ترتب (تعيّن) متسلمين في ايالة صيدا ، وطرابلس ، واللاذقية حيث ان ايالة طرابلس الحقت بايالة صيدا احساناً من الدولة ومكافأة لسليمان باشا عن حسن خدماته ، ففي طرابلس واللاذقية وضع وقرر مصطفى آغا بربر ، ووضع من طرفه وكيلاً في اللاذقية محمد آغا خزينة دار زاده ، وفي جبل لبنان الامير بشير (شهاب).

وفي بيروت اوزن علي آغا الذي كان متسلماً في سنجـاق حمـاه متسلماً وكمركجياً لها .

وفي صيدا علي آغا الصوري من مماليك الجزار .

وفي جباع خليل آغا اباظة نظيره .

وفي الشقيف موسى آغا جركس .

وفي بلاد بشارة اي مقاطعة تبنين وهونين وساحـل قانا وساحل معركة ومرجعيون ابراهيم آغا الكردي ومرتباً له خمسة وعشرين بيراق يأكلها تحت

ادارة البلاد [1].

وفي صفوز سليمان آغا اباظة من مماليك الجزار .

وفي ساحل عكا ونهر المفشوخ وكيلا أحمد عبد العال بماهية يومية غرشين تجمع من البلاد في كل شهر مع مصروف خدمة المراسيم التي تتوجه له عن كل مرسوم خمسة غروش إلى خيّالة الخزينة وتندفع له بموجب مرسوم خصوصي.

وساحل عتليت وحيفا بالتزام الشيخ مسعود الماضي .

ويافا وغزة والرملة واللد كانت بعهدة محمد آغا ابو نبوت وكان مقيماً في يافا وكان واضعاً وكلاء من طرفه في باقي المحلات يعزلهم ويوليهم بحسب رأيه بدون مشاورة .

وفي عكا علي باشا كتخداه والشيخ محمد أفندي ابو الهدى التاجي قاضي ومفتي ، وحسن آغا من مماليك الجزار زوج الست مريم ابنـة علي باشا كان خزينة دار وكان موكلاً من قبل علي باشا برؤية امور الفلاحين الشاكي والمشتكي وفصلها بمعرفة عبد الحليم العدوي وأوراقها تحرر من حسن آغا المذكور مع التذاكر التي يلزم صدورها للقرايا بطلب الفلاحين. وشيخ الخزينة أي مقارش أمور الفلاحين نظير قبو كتخدا لهم عبد الحليم العدوي المذكور .

والصراف وشريك الرأي بأمور الحكام وحفظ مال الخزينة وايراداتهـا وحساباتها وحساب المنصب مع خزينـة الدولة جميعه بيد المعـلم حييم وهو الرئيس على سائر الكتاب في داخل عـكا وخارجها . والذي يريده يرفعـه والذي يريده يبقيه بدون معارضة من طرف واحـد حتى المتسلمين اذا اراد

---

(١) أي انه رتب أن يكون له خمسة وعشرون فرقة من الجند لضبط ادارة هذه البلاد ويحق له تعيين افرادها والتحكم بمعاشهم كما كان ذلك سابقـاً في عهـد الجزار لسبب الاضطراب الذي كان يثيره فيها رؤساء عشائر المتاولة كما تقدم الكلام .

أن يعزل منهم ويولي فلا يتعارض وإذا أراد أن يسمح بطاليب الميري فلا يعارض . واذا أراد أن يكرم من الخزينة فيعطي بدون معارضة . فقط كان يسند ما يفعله بقوله أفندينا يقول كذا ويأمر كذا وأنعم بكذا مع ان الوزير لا علم له بذلك . والحاصل انه كان شريك الحكم .

لاحظ ص ١٥٥ — ١٥٩
من تاريخ سليمان باشا
لابراهيم العوره

الولاية بالمالكانة

هي الولاية التي تملك بموجب براءة سلطانية بمدة حياة المولى عليها . كما في تولية سليمان باشا على ايالة صيدا ، الذي دفع مال معجلتها حسبما ترتب عليه ذلك . وعلى هذا المنوال ليس للدولة أن تطالب من سليمان باشا زيادة عن المال المرتب ولا لها أن تتعارضه بأموال وايرادات المنصب إن خسر في كيسه وإن ربح له وعماره وخرابه عايد عليه والأموال المرتبة عدا مال المعجلة كان يدفعها سنوية . وله بموجب البراءة ان يتصرف بالإيالة تصرف المالك ما دام في قيد الحياة وبعد مماته تنحل المالكانة وترجع للميري يعطيها السلطان لمن أراد .

لاحظ ص ٢٦٢ — ٢٦٣
من تاريخ سليمان باشا
لابراهيم العوره

المعاشات والمرتبات المفروضة
للكواخي والكتاب والمتسلمين وغيرهم

وأما الكتّاب فكتّاب الخزينة كان مرتباً لهم خروجة مع ماهية يومية

للنفر غرشين والخرج اليومي نصف رطل لحم ونصف رطل أرز وثلاث أواق سمن ومثله زيت وشهري أربعة أكيال حنطة ومرتباً لهم عوايد على محلات الالتزامات في الايالة جميعها على كل ماية غرش خمسة غروش تندفع من كيس المتقدم وتتوزع عليهم كل سنة ثلاث مرات وكيفية توزيعها تقسم الماية على الاسماء فأولاً كاتبي العربي يأخذ من الماية ثمانية عشر وبعده باقي الكتّاب تنقسم عليهم من اثني عشر بالماية ونازل على مقدار عددهم سواء أكانوا كتّاب الدفتر أو كانوا كتاب العربي كذلك لهم عوايد على علايف العساكر المعينة في الباب داخلاً وخارجاً تندفع لهم ثلاث مرات في السنة على كل ماية غرش خمسة غروش تخصم عليهم في وقت الحساب وعند جمعها تتوزع عليهم كما ذكرنا ، كذلك المعلم حييم من اصل عوايد العلايف المرتبة له يعطي منها إلى الكتاب . أما للمعلم حنا فألف وخمسماية غرش كل مرة ولباقي الكتاب من السبعماية لحد المايتين غرش حسب استحسانه . وكاتب العربي له ماهية يومية خمسة غروش عدا الخرج الذي هو بمقدار خرج باقي الكتاب مرة ونصف وعدا عوايد المهردارية كما قدمنا شرحها وعدا بعض منافع ينفعه الوزير بها وعدا الهدايا من الكتاب بالخارج لما يحضروا إلى المحاسبة وعدا إكراميات المتسلمين الكبار والصغار من نقدي وزخاير وشقق ودخان وغيره ولا سيما من الأمير بشير الذي كان يعطيه سنوي الف وخمسماية غرش ونصف قنطار دخان وعدا اكرامه من الوزير له ولأولاده بإنعامات خيل ونقود وغيرها . وعدا هذا فإن حييم في كل سنة قبل عيد الفصح كان يرسل له بوغجة ضمنها شال كشمير وطاقتين جشكلي هندي ومثله حلبي وطاقتين قطني هندي ومثله صرتي هندي ومثلهم طاقات شامي فهذه البوغجة في كل سنة لا بد منها .

ومتسلم طرابلس مصاريف مطبخه من مال السنجاق وله ولدايرته ماهيات وكاتبه له عوايد وخلعة يأخذها في وقت المناسبة . ومتسلم تبنين

وهونين ومتسلمين الشقيف والشومر وجباع مصاريفهم في كل اربعة شهور يعملوا بها دفتراً يرسلوه إلى عكا ويوزعوها على القرايا وكان يصدر لهم مرسوم بجمعها بموجبه بدون زيادة . لكن كان المتسلم يجمعها اضعاف مضاعفة ويقسمها عليهم وعلى الكتاب وكذلك متسلمين صفد وطبريا والناصرة ووكلاء قرايا بلاد صفد .

والمقاطعات فكانت مصاريفهم من ماهيات وفائدة كتاب تتوزع على القرايا وفي كل شهر يرسلوا دفتر بها ويوزعوها على القرايا وبموجب التوزيع يصدر أمر بجمعها . وكتاب بيروت وصيدا وصور وسائر المقاطعات كان مرتباً للواحد منهم يومي غرش وربع وللمتسلم يومي خمسة غروش فكانت كافية لهم مع المنافع الجسيمة التي تدخل لهم . وأما عبدالله باشا فكان يصرف نظير وزير الإيالة ومصروفه ومصروف حرمه من الخزينة . وماهيات دايرته كذلك من الخزينة ويأخذوا انعامات نظير دايرة الوزير . وكذلك مصاريف بساتينه وأرزاقه تندفع من خزينة الوزير . وأما ايراداتها فيأخذها هو بدون أن تقارش الخزينة منها شيء وجميع ما يصرفه من انعامات وصدقات وحسنات كانت من الخزينة . .

لاحظ ص ٤٧١ — ٤٧٣

من نفس المصدر ص : ٣٤٢

طريقتهم في توزيع الضرائب وتحصيلها

وأمر سليمان باشا بإرسال دفتر مال الدور المطلوب من سناجق نابلوس وجنين والقدس والخليل مع الخلع والبدلات المعتادة على وجه السرعة . واصدر المراسيم بطلب مشايخ ووجوه وكتاب السناجق لأجل توزيع مال الدور ، ونفذت اوامره إلى ساير المحلات وتحضرت ساير لوازم الحج في محلاتها وحضرت دفاتر وخلع الدورة . ثم حضرت وجوه السناجق وحكامها

وكتابها وتوزعت مال الدور عليهم بكل سهولة وأخذوا خلعهم وتوجهوا إلى محلاتهم لأجل جمع الأموال وتوريدها إلى خزينة عكا .

لاحظ نفس المصدر ص ٣٤٢

كيفية تحصيل الاموال وبذلها للحكام

ومال الميري المطلوب المسمى مال الدور كان يطلع والي الشام بذاته ويأخذ عساكره ودايرته وكتخداه وصيارفه وكتابه في اوقات معلومة وينزل في منازل معلومة متقنة . وفي كل منزلة له ذخاير معلومة وبوصوله إلى تلك المنزلة في اوقات معلومة تحضر مشايخ تلك الناحية وأوادمها . والمذكورين لهم رتب معلومة عند استقبالهم الوزير . واذ يقابلوه وينالوا منه الاكرام المعتاد يبقوا بالاوردي الأيام المرتبة ويترددوا على الوزير وكتخداه ودايرته حسب عوايدهم . والوزير يلبسهم الخلع المعتادة كلا بحسب رتبته وبدلات متممة من فراوي وغنابيز بعضها شكلي وبعضها قطني عبال ومثله سرتي وجيب جوخ اسلامبولية وبنشات مخرجة وشالات كشمير وطرابيش . فبعد ان يأخذ كل منهم خلعته ويتوشح بها يجلسوا لأجل توزيع المال والذخاير والعبوديات المعتادة . فإذا كان الوزير صاحب دربة وملاعيب يعمل لهم زيادة إنس وبوليتيكا لينال منهم بعض مبالغ زيادة عن المال المرتب يسموها عبوديات وتقادم وكذلك باقي خدمه ودايرته بقدر ما يمكنهم من الملاعيب والبوليتيكا والتنازل معهم لينالوا منهم العطايا إذ ان ذلك عندهم موسم نادر لا يدوم . فالمشايخ بعد ان يوزعوا المشالح ويلبسوا خلعهم ويقدموا عليها التقادم المعتادة من خيل وجمال يأخذوا الاذن ويرجعوا لبلادهم ليجمعوا المال . وهناك ترى منهم الشفقة والمرحمة على بعضهم لأنه إذا فرضنا كان المطلوب من ميري وعوايد وعبوديات وخلافه من كلي وجزئي خمسين ألف يوزعونها بماية وخمسين ألف أو مايتين ألف . ومتى قال شيخ منهم إلى

شيخ القرية عليك توريد عشرة آلاف غرش يطيــع كلمته كأنها بارزة من فم الله وشيخ القرية يوزع العشرة آلاف خمسة عشر أو عشرين الفـــاً لأجل المصاريف التي تلزم له حسب طلب مشايخ الديرة . والفلاحين كذلك يدفعوا على القاطعية بدون حساب ولا سؤال . فهذا هو مسراهم مع بعضهم .

وأنا الفقير شاهدته بعيني لما توجهت باشكاتب الأوردي من طرف عبدالله باشا في وقت حرب سانور وفهمته منهم جلياً لمـا حضروا ووزعوا الأموال ونظرت احوالهم الغريبة عن الانسانية التي سنذكر بعضها بمحله فيما بعـد في وقت حرب سانور سنة ١٢٤٥ إن شاء الله تعالى .

لاحظ ٣٠٦ من نفس المصدر ، ص ٣٠١

عزل متسلم بلاد بشارة

سنة ١٢٣٢ لحد هـذه السنة كان ابراهيم آغا الكردي متسلمـاً في بلاد بشارة وعنده جانب من الأكراد . وبسبب ان سليمان باشا مرتب له (معاش) خمسة وعشرين بيراق لادارة محلات متسلميته ليعين فيهـــا خيالة لتحصيل المطاليب الميرية وقضاء سائر الخدمات اللازمة ومعـاش الوكلاء الذين يضعهم بباقي المقاطعات . فكان يأكل معاش البيارق ويستخـدم عنده من جنسه الأكراد خدمة بدون اجرة منه ، بل بما يجنوه من القرايا وبما يغرموا بـه الفلاحين . وصاروا مع مداخلتهم بالبلاد وترددهم إليها بالتحويلات والثقلة يلزموا الفلاحين أن يشدوا لهـم بعض فدن فلاحة بالقرايا وهم يقولوا انهم يدبروها هم لكن كانوا يلزموا الفلاحين بإدارتها . والبعض بالكاد يعطـوهم ثمن البقر ويكلفوهم لوضع البذار وساير المصاريف مـــع الحصيدة والدراس والحمولة لمنازلهم ، كي يخلصوا من شرور ثقلتهم . وهـذا الفساد سرى من

الأكراد في ديرة بلاد بشارة واتصل بجماعة متسلمين باقي النواحي . وعدا ذلك امتدت العساكر إلى هذا الأمر واستعملوا الشرور في البلاد وهكذا صاروا يلقوا أثقالهم على الرعايا .

لاحظ ص ٣٠١ من نفس المصدر

الفوضى والتعسف والاستبداد
في عهد سليمان باشا العادل

كان سليمان باشا لا يفتش بالدقيق الكافي عن أحوال الرعية كيف حالها ولا يفحص عن أحوال وأعمال خدمه ودايرته وعماله هل هي عادلة او ظالمة والرعايا هل هي مستريحة معها او تعبانة . وكان من عادته كما قدمنا ان الانسان الذي يحبه وينصبه لا يعود يسأل عنه ولو ضرب الدنيا ولا يسمع عليه شكاية وبأكثر من ذلك حتى ولو نظر ذنب ذاك الشخص بعينه ولكونه مستحق القصاص عدلاً فلا يسأله ولا يتكلم معه ، والرعايا نظراً لما كانوا قد قاسوا من مظالم الجزار المريعة مدة تلك السنين فكانوا يحتملوا مهما أصابهم في ايامه ويروا أنفسهم انهم مستريحين وانما بنفس الأمر ما كانت الراحة كاملة .

ومن جملة ذلك كان عنده عبد اسمه سعيد اشتراه صغيراً ولما كبر وترجل البسه قاووق وجعله ايجوسي (خادم الدار) ورتب له معاشاً وانعام ايجوسي وكان يأكل من المطبخ ويأخذ بدلتين في السنة نظير باقي المماليك فهذا السبب كون اصله خبيث لما كبر وصار آغا مطلوق الحرية وأخذ ورقة عتاقة واستغنى بالمعاش ازداد شقاوة وطرح نفسه في ساير انواع الشقاوات والكباير من سكر وزنى وفسق وما شاكل ذلك في الليل والنهار واتفق مع اثنين ثلاثة نظيره على ارتكاب أعمال تغضب الله والعبيد وعدا ذلك استعمل

التعدي والتصب على المخلوقات وكان يحضر إلى دكان الرجل ويأخذ ما يريده منه ويتوجه وإذا طالبه بعد مدة صاحب المال بالرجاء يشتمه ويضربه وإذا راجعه فيؤذيه . والذي لا يعطيه يأخذ ما يلزمه غصباً عنه نظراً الى احواله هذه ، وإذا تعارضه يضربه اما بيده اما بالعصا امـا بالسيف ويقول له اينما رحت روح . وأخيراً لما الخلق ما عادت احتملت أحواله قدم للوزير الشكاية مقدار خمسة عشر نفر من اصحاب الدكاكين المتسببين وفقراء الحال واعرضوا له الواقع بالتفصيل لساناً وكل منهم تكلم عن مظلمته منه فعوض ان ينفعهم الوزير ويؤدبه ويحصّل لهم حقوقهم نفر فيهم وقال لهم تخيّبـوا يا ارذال . أنا مالي سوى هذا العبد أما تستحوا تشتكوا عليـه وصرفهم منكسرين الخاطر . وذاك لما سمع ازداد شراً وعتاوة وما استراحـوا من شره إلا لما الباري تعالى اماته بالطاعون .

وعدا ذلك كنت ترى في أيامه ليس حاكماً واحداً او اثنين او ثلاثة بل حكاماً كثيرين يفعلون كيفما شاؤوا من دون معارضة .

فأولاً كان هو الوزير المعلوم من كل الناس .

وثانيه على التمام علي باشا كتخدام بل أعظم منه ويخيف الخلق اكثر من مخافة الوزير .

وثالثهم حييم اليهودي كان ماسك زمام الباب جميعه وكيفما يريد يفعل . ومن الذي يقول ان حكم رجل يهودي على الاسلام والنصارى والكبير والصغير والقريب والبعيد بحرية مطلقة امر هيّن ولا يصعب جداً على الطبيعة فكان هذا مجال تصرفه يفعل فصول غريبة عن المعقول .

ورابعهم عبدالله باشا ابن الكتخداه .

وخامسهم حسن آغا الخزينة دار صهر عبدالله باشا المذكور .

... ثالث عشر زكور آغـا المحتسب وناظر الإملاك . فهـذا كان عكا بتمامها .

... خامس عشر عبد الحليم شيخ الخزينة وأولاده وهو ناظر مصالح الفلاحين فكان لا يشبهه احد بساير تصرفاته .

... سابع عشر القاضي الذي كانت احواله غريبة . وما كان احد يستطيع أن يتكلم بحقه شيء لكونه اولاً قاضي ثانياً شيخ علي باشا ثالثاً استاذ عبدالله باشا . فهؤلاء كانوا مقيمين في نفس عكا وكان هذا حالهم .

وأما في خارج عكا وفي صيدا كانت مماليك الجزار مقيمين هناك في بيوتهم ومرتب لهم معاش. وكل واحد منهم كان ناظر روحه اكبر من الوزير وأعظم.

وفي مدينة صور كان واحد منهم متسلماً واسمه بكر آغابوشناق من محسوبين الجزار ، وكانت له منافس والعياذ بالله لا ينحمل ولا يطاق من باب ولا من طاقة ، وكيفما أراد يفعل .

وفي مقاطعة جباع كان علي آغا الصوري من مماليك الجزار وكان نظيرهم بالعجرفة الا انه كان هادي الطبع بنوع ما عن البقية ، انما بشراسة الاخلاق وعدم تمييز الظلم من العدل فالجميع كانوا متفقين على حد سوى . والذي كان يخطر في فكرهم بحسبما تعودوا كما تربوا عليه من مولاهم الجزار كانوا يفعلوه اللهم ما كانوا يقدروا يميتوا احد بأمرهم كما كان يفعل سيدهم .

وكان متسلم الشقيف موسى آغا جركس وهذا كان متصف بأطباع خشنة بنوع خصوصي عن البقية .

وفي بلاد بشارة كان ابراهيم آغا الكردي وهذا كان ماين مصرّف في البلاد ويفعل كما يريد . وكان مستعمل البلاد الموكلة له ولأولاده واخوته وأولادهم واساير الأكراد الموجودة في ايالة صيدا بل كانوا يقصدونه من كل محل ويخدموا عنده بالمنافع التي تحصل لهم من البلاد .

وهذا جميعه سليمان باشا كان ناظره وعارف به وما كان يسأل عنه ولا

يمبأ به . وعدا نفوذ المذكورين ومنافعهم الخاصة التي كانوا يستفيدوها من البلاد لهم ولاتبـــاعهم فمصاريفهم كانت تتوزع بأمر الوزير على البلاد . ويعطيهم أوامر بجمعها ، ولمـــا يجمعوها بموجب الأمر الذي يعطى لهم فلا يقنعوا بها ، بل كانوا يضيفوا عليها اضعافها ويجمعوها ويقسموها بينهم وبين الكتاب والاتباع ، والرعايا لعلمهم الأكيد عدم قبول شكواهم وعدم امكانية عزل ذلك المتسلم او المأمور فيلتزموا ان يحتملوا اضافتهم بدون شكوى .

لاحظ ص ٤٧٦ — ٤٨١ من نفس المصدر
حيث اخترنا باختصار مـــا رأيناه مناسباً
من نصوص الكتاب ومواده

الأوضاع بعد صدور التنظيمات

أما بعد منشور التنظيمات الادارية والمالية والقضائية والتعليمية بين سنة ١٨٣٩ — وسنة ١٨٥٦ وبعد القوانين التي صدرت تنفيذاً لاحكام المنشور ، فقد اصبحت الدولة العثمانية تقسم إلى ولايات والولايات إلى الوية (سناجق) والألوية إلى اقضية ، والاقضية الى نواح .

وكان على رأس الادارة في كل لواء (متصرف) وفي كل قضاء (قائم مقام) وفي كل ناحيـة (مدير ناحيـة) [١] مع مجلس ادارة مؤلف من وجـوه قرى الناحية .

التنظيمات وضعت حدوداً للاقطاعية

وإن قانون الولايات هذا وضع حداً للاقطاعيات القديمة وحدد صلاحيات كل من الولايات والمتصرفين والقائمقامين ، كما الغى النظم البـاقية من عهود (التيمار والزعامت) وعين لكل موظف راتباً يتلقاه من خزينة الدولة .

---

(١) البلاد العربية : لساطع الحصري ص ٢٤٠

وقد أحدث رجال التنظيمات محاكم نظامية تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة بموجب قوانين جديدة كما وضعوا الانظمة اللازمة لاصلاح شؤون المحاكم الشرعية المتعلقة بالمعاملات في مجلة الأحكام العدلية [1].

* * *

ويقول العلامة الأمين (وبعد زوال الحكم العشائري عن البلاد سنة ١٢٨٢ هـ شكل في جبل عامل ثلاثة اقضية وعيّن لها ثلاثة قائمقامين احدها في مرجعيون ومركزه في كفركلا ، ثم نقل منها الى جديدة مرجعيون في عصرنا (وثانيها) في مدينة صيدا (وثالثها) في مدينة صور ؛ ومديريتان (احداهما) في تبنين ، والأخرى النبطية)[2].

بيد ان هذه التنظيمات لم تؤت أكلها ولم تحقق ما كان يرجى منها ولها .. ذلك بانها غالت بالحرص على (المركزية) وبأن تطبيقها أوكل الى من يجهلون قوانينها ويسخرون بقيمها من ابناء الاقطاعيين ومن شاكلهم طبعاً وهدفاً وسلوكاً من ابناء الذوات لهذا ظلت رواسب العادات ، والتقاليد الاقطاعية تحتفظ بسلطانها على النفوس والعقول في الأوساط المتخلفة التي كان يستبد بها الجهل والفقر والقدوة السيئة : وظل فينا من يقول ويعمل بوحي هذه الأمثال الموروثة :

— السيف ما بيقطع باقرابو

— ابن العشيرة لو ضربك حمار لا تركبو

— العين ما بترتفع لفوق الحاجب

— الايد الما فيك تعضها بوسها .

---

(١) لاحظ ص ٢٤٠ من البلاد العربية لساطع الحصري .

(٢) لاحظ ص ١١٣ من خطط جبل عامل ، طبعة سنة ١٩٦١

وظل في ساستنا وقادتنا من يرى مثله الاعلى في السياسة منحا توحي اليه بهذه الكلمات المخدرة :

الرجال عند حاجتها نسوان ،

سيف الدولة طويل .

ويمنون بذلك ان مثلهم لا يقدر على مخاصمة مثلها ، وان دستورهم الوطني المفضل : (هز سيف الغز ولا تضرب فيــه) اي هول ولا تفعل شيئاً ، كما ظل في الحكام والموظفين من ينشد مع المتنبي :

اهــل الفلاحة لا ترجى مودتهم
غــبر الوجوه اذا لم يظلموا ظلموا

* * *

ومن يقول : « « مهما صرلك من الفلاح إلفح ».

* * *

حتى استحالت الامور وانتهت الى ما يقوله مؤلف « تاريخ جبل عامل » المطبـوع سنة ١٩٥٩ ، والمؤلف وهــو ممن شاهد ولابس تطور الاوضاع في تلك الفترة .

مظاهر الظلم بعد المساحة والتمليك

يقول المؤلف : (بعد وضع قانون المساحة والتمليك وضعوا الرسوم على الأراضي ونوعوا الضرائب بين (ويركو) رسم مقطوع على الأرض مطلقاً ، و (اعشار) رسم على نتاج الأرض والشجر بطريق الألتزام ، وضريبــة المسقفات على (الدور والبيوت) وبدلات طرق على كل شخص ذكر بلـغ السادسة عشرة من عمره الى الستين ان يشتغل اربعـة ايام بإصلاح الطرق التي

تلبشيها الدولة او دفع ستة عشر غرشاً اميرياً ، وويركو شخصي (او تمتع رسم على التجار) والباعة . وكانت الحكومة التركية تسير بهذه القوانين على غير هدى وفي ما لا يتفق مع نصوصها مع ما منيت به من فساد واختلال وضمائم وملحقات .

ثم قضت على زراعة التبغ بالحصر ومنحت ، احتكارها للشركات الاجنبية ، وكانت المورد لجبل عامل من زمن مديد . ويطول بنا الشرح اذا بسطنا اضرار تلك الضرائب ، ولا سيما الاعشار وما كان يرافقها من ظلم وفظائع كقطع الأشجار والاقلاع عن زرع الأرض تخلصاً من الظلم والجور . يضاف اليه ما كان يبتزه عمال الدولة من مال الشعب بطريق الرشوة لإرهاقه وإجاعته وافقاره[1].

ولعل في هذه الابيات للشيخ عباس البلاغي – وهو من الشعراء اللامعين في تلك الايام – ما يعزز دعوى المؤلف جابر من شبح الظلم :

طغت شفهاء عامل في البلاد	وفيهـا اظهروا كل الفساد
لقد ظلموا العباد ولم يخافوا	من الرحمان في ظلم العباد
كأنهم بأموال البرايا	رياح عاصفات في رماد
اذا العشار وافى نحو قوم	تراهم هائمين بكل وادي
من التقدير اهل الملك اضحت	تحيي بالسلام على الجراد
وان بكا الارامل واليتامى	له لان الاصم من الجماد
فكم نادت بذل واستجارت	ولكن لا حياة لمن تنادي
لقد عاثوا بعاملة فساداً	كأنهم بقايا قوم عاد (١)

(١) لاحظ ص ٩٢ من خطط جبل عامل طبعة سنة ١٩٦١ م .

التجنيد والنظام العسكري في ذلك العهد

ثم وضعت الحكومة قانون التجنيد الاجباري واسمته القرعة الحمادية (كذا) . وفرضته على الطوائف الاسلامية ، وأعفت منه الطوائف غير المسلمة . وكانت تتقاضى من هؤلاء مالاً ضريبة سنوية تسمى (العسكرية) لا قاعدة ولا اصول لها ، ومدة التجنيد عشرون سنة : ست منها تدعى عسكرية او احتياطاً وثمانين رديف وست مستحفظ . وقلما كانوا يتقيدون بهذا القانون فربما قضى العسكري الجند في الدرجة الأولى مدة تزيد عما نص عليه القانون تتراوح بين عشر سنين وخمس عشرة سنة بالرغم عنه .

ووضعت ايضاً قانوناً بقبول البدل النقدي ممن لا يرغب الانتظام في السلك العسكري . فجعلته لأول مرة مائة ليرة ، ثم ثمانين ، ثم خمسين ليرة ذهبية عثمانية عن سني العسكرية الست فحسب . وكانوا يقبلون بدلاً شخصياً عن الرديف والمستحفظ .

ثم ابدل هذا النظام بنظام ثان جعلوا فيه الخدمة على أربع مراحل بدلاً من ثلاث :

١ — الخدمة الفعلية ، ومدتها ثلاث سنوات ، وتبتدىء في ايام السلم عند بلوغ المكلف الاحدى والعشرين .

٢ — الخدمة الاحتياطية ، ومدتها ست سنوات . يدعى المكلف في خلالها إلى الخدمة عند الحاجة .

٣ — الرديف ، ومدته عشر سنوات ، ولا يدعى عادة إلا عند الحاجة الشديدة وبعد دعوة الاحتياطي .

٤ — المستحفظ ، ومدته خمس سنوات . ولا يدعى رجاله إلا في إبان الحرب وعند الضرورة القصوى . ويستخدمون عادة في الخدمات البسيطة لكبر سنهم . وما كانت الحكومة التركية تجندهم الا في نهاية الحرب وعند خلو البلاد من الجند . فتعهد اليهم بحفظ الأمن ومعظمهم من الشيوخ الضعفاء الذين لا يصلحون للخدمة العسكرية الشاقة . (انتهى) .

وكانت الانظمة والقوانين التي تصدرها الدولة حبراً على ورق ، يفسرها عمالها كما يشاؤون . وفتحت ابواب السلب والرشوة على مصراعيها . وقلما كنت تسمع بموظف نزيه عفيف إلا ما شذ وندر . وكان كبار الموظفين يضغطون على صغارهم فيدفعونهم دفعاً لنهب الاهلين وسلب اموالهم ، وكانوا في الغالب لا يسمعون لمظلوم شكوى في حق احد الموظفين . ولا يفكر حاكم بإصلاح ، وكاد الشعب في اواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني أن يلفظ أنفاسه الاخيرة .

اما المعارف وحال العلم والتعليم على الاصول الجديدة فلم تكن تعرف قبل عهد مدحت باشا والي سوريا ، فهو أول من أسس المدارس الأميرية . ولم تشمل هذه التنظيمات جبل عامل لاقتصارها على مراكز الحكومة في الساحل ، ولم تتأسس المدارس الابتدائية المجانية إلا في اوائل عهد الدستور التركي الثاني ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٨ م.

وكان سير العلم والتعليم في جبل عامل مقصوراً على كتاتيب المشايخ لتعليم القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة والحساب . وكان الناس يعتمدون في تثقيف ناشئتهم على المدارس الأهلية الدينية . وقد تخرج منها فقهاء وادباء وشعراء كثيرون ، غير انه في سنة ١٣٠٢ هـ ١٨٨٤ م أنشئت في النبطية اول مدرسة أهلية على الأصول الجديدة يدرس فيها النحو والصرف

والتاريخ والجغرافيا ، واللغـة التركية لغة الدولة الرسميـة ، ومؤسس هذه المدرسة هو المغفـــور له الزعيم الوطني الكبير رضا بك الصلح الذي تولى حكومة النبطية في ذلك العهد . وقد أفادت هـذه المدرسة ناشئة النبطيـة فائدة عظيمة (وكان المؤلف من اساتذتها) .

لاحظ ص ١٦٦ — ١٦٩
من (تاريخ جبل عامل)
للاستاذ جابر
طبع بيروت سنة ١٩٥٩

الملحق رقم ١
الاجتهاد لا يزكو مع الفوضى

كان من التقاليد السائدة في جبل عامل أن يعتبروا كل من عاد اليهم من النجف — بلحية طويلة وعمامة كبيرة عالماً دينياً له ما للعلماء والنابهين من الامتياز والتقدير والحق حتى بأن يدعي الاجتهاد في العلوم الدينية . ولو ان هذا المعمم كان محدوداً في فهمه وعلمه متصنعاً في اقواله وافعاله مضطرباً في افكاره ونزعاته : مما يسبب الفوضى ويكثر الدخلاء بين المعممين. كما يضاعف الشك بهم او يقلل من الاحترام لمظاهرهم والتقدير لشعاراتهم .

ذلك ما حملني على انتقاد مثل هذه الاوضاع ومثل هذه التقاليد في مقالي. — الاجتهاد لا يزكو مع الفوضى — .

مما كتبته سنة ١٩٣٢ :

... ولقد اتفق لي منذ سنين ان ضمني مجلس في احدى القرى مع بعض العلماء المجتهدين ، وكان فيمن حضر هذا المجلس ضابط فلسطيني من اخواننا اهل السنة وما ان استقر المقام بالجميع حتى تنحنح فضيلة العالم وانطلق يتحدى في كلامه مواضع الخلاف بين اهل السنة والشيعة بكل ما في نبراته

من اعتداد بأحقية الشيعة ، وبكل ما في قلبه من حرص على توجيه الإنظار نحوه وبكل ما في لهجته من عنجهية وترفع عما تقتضيه اللياقة من الاحتفاء بالضيف الفلسطيني ومراعاة شعوره كمسلم سني او كرجل عسكري لا رجل دين يحسن الجدل ويستسيغه في مثل هذا الموضوع .

بيت القصيد ؟

وكان بيت القصيد في حديث مولانا .. « الاجتهاد وخطره » من حيث الاباحة والحظر ، واثر ذلك ايجاباً وسلباً في الدين والعلم والعقل ايضـاً ، ثم كيف ان الشيعة — دون غيرهم من الفرق الاسلامية — استقلوا بهذا الفضل وفاقاً للاحاديث النبوية ، وطبقاً للمأثور من اقوال العلماء والحكماء والمؤرخين، وما الى ذلك من شواهد على فضل الاجتهاد وحسناته وفوائده ، كل ذلـك جرى والضابط الفلسطيني واجم تحاشياً لهذا المجتمع الشيعي او تهيباً من هذا العالم الذي لم يترك مجالاً لغيره في الكلام ، او جهلاً بالموضوع ، او استخفافاً بالتحدث عنه لغير مناسبة ، لا ادري غير ان هذا الحديث اثار حفيظتي من العالم لا لشيء سوى أنه يتملق العامة بالانتصار لمذهبهم امام رجل من اهـل السنة ، كما استفز عواطفي هذا الوجوم من رجل غريب — بروحه وميوله — عن المجلس قد فوجيء بما لم يكن يترقبه ويألفه من آراء وابحاث .

الملاحظات الحرة

فاندفعت للاعتراض بما اوحته لي هذه الحال من خواطر وأفكار يمكن ان يفترضها ويقدرها الشيعي وغير الشيعي من المسلمين حين يضطره الأمر الى ان يتجرد من عصبيته ، ويهيب بـه المقام للتمسك بكل ما يمكن أن يقـال في تحرير مواضع النزاع ، ولكن مكان مثل هذا العالم في مثل هذا المجلس من العامة ، لم يدع لي سبيلاً الى اتمام كلامي وتوضيح مرادي ، بل اضطرني

كما اضطر غيري الى السكوت والاصغاء لو كان في الامكان أن يسكت الفكر العنيد ، او يرتاح الضمير الحر بدون ان يفضي بمكنونه او يفرغ سورته ، فرحت — بعد الانصراف عن هذا المجلس — ارفه عن نفسي بتسجيل تلك الخواطر وكتابة هذا المقال : بيد انه لم يكن لي من الشجاعة الادبية او من الاعتداد بما كنت اكتبه آنئذ ما يجرئني على النشر ، فطويت المقال فيما طويت من الابحاث وجعلت مع الايام أترقب المناسبات والفرص التي تهيء لي نشره .

ما يجب ان يقال

واذا كنت قد خالفت — في لهجتي ومنحاي — جل الباحثين المتحفظين في آرائهم وأحكامهم فذلك لاعتقادي بأن المجاملة والمداورة والتحفظ لا تسمن ولا تغني في مثل هذا المقام بل هي الى التلبيس والابهام اقرب منها الى الصراحة والجهر بالحق الذي يجب أن يقال في محاربة العرف الزائف ومعالجة الاهواء المريضة وتقويم الافكار المغرضة .

لا جرم انه كان في اقفال باب الاجتهاد بعض التقييد للحرية والاستقلال في الرأي ، وبعض الحجر على العقل والفكر والمنطق أن تجري مجراها الطبيعي الذي أعدته الشريعة السمحاء وهيأته طبيعة الحياة الحرة ، ولا جرم انه كان في فتحه على مصراعيه تعزيز للعلم وتحرير للفكر والمنطق ، وتنزيه للاسلام — دين الفطرة — عن الجمود والضيق لو قد انتهى بنا الأمر الى ما كان يجب من الانطلاق مع نتائج التحرير العلمي والفكري وجعل الدين بذلك مآلا للمحبة وغاية للاتحاد وتفسيراً للحياة من سائر الوجوه والنواحي تفسيراً يقره منطق الحياة الحكيم وتكبره الفطرة الانسانية الحرة .

اما والنتيجة ليست — بجميع فروعها وذيولها — كما يظن ويفترض ، فلا

أحسب انه كان في فتح باب الاجتهاد على هذا النحو من الاضطراب والفوضى التي نجدها عند علمائنا اليوم — خدمة للعقل والدين اكثر مما كان في سده واقفاله عند غيرهم .

هل تطور الشيعة مع الحياة باجتهاد علمائهم ؟؟

.. ها نحن اولاء معشر الشيعة الامامية ممن استمروا على القول (بالاجتهاد) وخطوا على ضوئه خطوات واسعة في العلوم الدينية والاسلامية وتأنقوا ما شاء لهم التأنق في علوم الحديث ، والتفسير ، والفقه ، والاصول ، وانهم لتأنقهم وتوسعهم في هذا الاخير قد احالوه الى مزيج من الفلسفة والنظريات الغريبة واوشكوا ان يخرجوا ببعض مباحثه عن حدود المعتقدات الشيعية كما هو الشأن في بحث (اتحاد الطلب والارادة) على ما قرره صاحب الكفاية .

ها نحن اولاء قد استحال عندنا الاجتهاد او كاد يستحيل — بتشعب افكار الباحثين وتعسف بعضهم في التفكير والتخييل وتسامحهم في النتائج — الى نوع من الافتراضات والوساوس والشكوك يستطيع معها ضعاف الوجدان والعقيدة (من ذوي الاهواء والمآرب الشخصية) ان يستنبطوا لكل مأرب حكماً ، وان يخلقوا لكل عسف عذراً ، وان يمهدوا لكل شذوذ — في القول والفعل — قياساً وشكلاً ، يدرأ عنهم التهم او يحتفظ لهم بثقة الجمهور ، ويشحذ لهم من منطق الدين شركاً للصيد او سلاحاً للنقمة ، من حيث لا يستطيع — مع هذه الوساوس والشكوك — من يحتاط لدينه ووجدانه ان يجزم بحكم من الأحكام الفرعية ، الا فيما شذ وندر من الاحكام التي لا تتسع للتأويل والافتراض والجدل .

ذلك حين يكون الذين يتخصصون بتعلم العلوم الدينية من ذوي الكفاءات والمواهب السامية فكيف بنا اذا كانوا من البله او الحمقى الذين من شأنهم ان

يكونوا عرضة للتلبيس ومظنة للاوهام وارجوحة للاهواء السياسية والمتبهات العصبية ، او كانوا من الذين لا يتعلمون هذه العلوم — في غالب الاحيان — إلا احتفاظاً بتقاليد آبائهم وإلا ذريعة للرزق والاكتساب .

أفترى ان الامة او ان الدين يمكن أن ينتهي — بمثل ذلك — الى غاية او يستقر على رأي ؟ ام هل يمكن مع هذه الحال ان تكون النتيجة الى غير ما نحن عليه اليوم من فوضى الاجتهاد ، واطلاق العنان لكل طامح ولكل معتوه يسوّل له غروره وجشعه ان يستغل هذا الاسم ويدنس روحانيته بما يوسوسه الهوى وحب الذات من فتاوى وأحكام وبدع يرسلها ارسال المسلمات ، ويصرفها تصريف المطمئن الى صوابه وكفايته واخلاصه ؟ ام هل يمكن ان تؤول بنا الحال الى غير ما منينا به من تنابذ العلماء وتجريح بعضهم بعضاً ، ومحاولة كل منهم ان يذهب الى خلاف ما ذهب اليه الآخر في تحريمه وتحليله وتقريبه وتبعيده حتى ساغ للمطلعين على احوالهم ان يقولوا مع القائل :

(كيف الصلاح لإمة صلحاؤها كل يحاذر من صلاح الثاني ؟؟)

أجل وهل لنا مع كل هذا — ومع تيقننا من ان الدين الاسلامي انما وجد لخير الانسان وصالحه ولتوجيه افكاره وعواطفه نحو المثل العليا التي توحد بين افراده وشعوبه وتجعلهم اخواناً في السراء والضراء — أن نقول ان فتح باب الاجتهاد عندنا كان اجدى على الدين وعلى المجتمع من سده واقفاله عند اخواننا من أهل السنة ؟ هيهات ، ولو ان الذين اوصدوا باب الاجتهاد لم يتأثروا بعوامل زمنية واعتبارات سياسية ، بأن انقطعوا — فيما وقفوا عنده واختاروه من المذاهب — لما كان اكثر انطباقاً على جوهر الكتاب والسنة ، واقرب ملاءمة لمنطق الحياة الاجتماعية والعقلية ، وأشد اتساقاً مع دواعي الاحتياط والحزم ، واختلاف الايام

والظروف وتطور الحاجات .. إمكان اقفـاله على ذلك النحو من الأحكـام والاعتدال — في تلك الأيام العصيبة والظروف الحرجة — أجدى على الاسلام من فتحه على هذا الشكل من الفوضى والتسامح والاسترسال مـع كل شذوذ او تعسف او ادعاء شخصي ، وأضمن لمنعته واتحاد كلمته واتساق سلطانه .

لماذا تخلف الشيعة مع قولهم بالاجتهاد ؟؟

هذا وان الامر الذي ما انفك يريب خاطر كل مفكر ويقلـق بال كل أريب — وللاجتهاد حكمته البالغة ومزيته العظمى في ترويض الأصول العلمية وتصريف الاحكام على ما توجبه ضرورات الحياة ويقتضيه تطور احوالهـا واختلاف دواعيها وجعل الدين بذلك يتسع لابعد مدى في تطورها وتقدمها — خمولنا نحن الشيعة حملة لواء الاجتهاد وتخلفنا في ميادين الحياة على اختـلاف انواعها وفروعها دون بقية الفرق الاسلامية التي حلئت عن نعمـة الاجتهاد ولم ترزق مرونة منطقه ورحابة صدره ، تخلفاً لم ينفع معه استقلال ايران الشيعية في السلطان ونزولها على آراء المجتهدين وامتثالها لارادتهم في كل شأن من شؤونها وفي كل طور من اطوارها ، طوال هذه الحقبة الغابرة من الدهر .

ثم جمود اكثر اولئك المجتهدين منا وتحرجهم تحرجاً يغري النـاس بالجمود والتقليد ، ويميت فيهم حياة العزة والطموح ، كأنما اوتوا منطق الاجتهـاد ليحاربوا كل جديد في الحياة ويطاردوا كل مصلح في الإسلام ، ويفرضـوا على الناس حياة الاتكال الرتيبـة وعيش الاعتزال المبتور ، او ليختصروا هذه الشريعة الكونية ويضيقوا هذه السهلة السمحاء ولا يوجهوا كبير عنايتهم وجهودهم لغير هذه الفوارق والتقاليد المذهبيـة التي اوشكت ان تكون — بحكم ذلك الخلاف والتعصب الاسلامي العـــام — بمنزلة الإصل للكتاب والسنة ، يؤول ما التبس منهما او اختلف على حسب المألوف والمعتـبر من ذلك لدى كل فرقة من فرق الاسلام .

هل للمجتهد أن يتجاوز النص في احكامه ؟

ثم ما الاجتهاد ؟ ان لم يكن في جملته ومآله عبارة عن استقلال الفقيه في تفسير الكتاب والسنة ، واستنباط الاحكام الشرعية من ذلك لكل واقعة من وقائع الحياة قديمها وحديثها على حسب المنطوق والمفهوم ، وعلى مقتضى العموم والخصوص ، والاطلاق ، والتقييد وما الى ذلك مما توضحه القرائن ويقره الذوق والمنطق[1].

وهو بهذا المعنى محدود النطاق ليس لعقل المجتهد باصطلاحنا ولا لخياله ان يتجاوز به ما وراء الجمل والالفاظ في الكتاب والسنة ، فانه على فرض ان تنص القرائن الحالية والمقالية — وفرض المحال ليس بمحال — على معنى من معاني الكتاب والسنة لا يساعد على استخراج الحكم الذي يقتنع به العقل ويستسيغه الذوق ، ويتفق مع ماجريات الحياة ، لا يستطيع المجتهد ان يتجاوز النص في حكمه ويراعي مقتضى العقل المجرد ، والذوق السليم ، لنتحلل من اطلاق القول « انه كان في سد باب الاجتهاد حجر على العقل » .

اسدوا باب الاجتهاد كبتاً للعقل ام صوناً للوحدة ؟

ثم ما يدرينا في ان يكون هم من اوصدوا هذا الباب آن ذلك بعد ان

---

(١) وهنا استميح العذر من سادتي الأصوليين اذا تجوزت في تعريف الاجتهاد ولم التزم بنص عباراتهم او اراعي المعنى اللغوي ؛ اعتقاداً مني بأن (بذل الوسع في تحصيل الحكم) اذا لم يخرج بصاحبه عن طور التقليد ويكون له رأياً خاصاً بالمسألة لا يحقق له صفة الاجتهاد بالمعنى المراد .

ثم اعتقاداً بأن بقية الادلة التفصيلية هي فرع من الكتاب والسنة ؛ خلقتها الحاجة الى النص القطعي في بعض الفروع والاعتبارات ؛ او الى تحديد مفاد النص ومداه سعة وضيقاً ؛ ولذلك كانت مهملة مع وجوده ووضوحه لا شأن لها ولا اثر .

اتضحت عندهم اكثر احكام الفقه وقضاياه واطمأنوا الى تحرير نصوصه وأدلته .

اولا — الاحتياط من ان تتعدد المذاهب الاسلامية الى غير نهاية وان يكثر الخلاف ويستحكم حتى تتفرق الكلمة ويتمكن الدخلاء والدساسون من الكيد للاسلام ، فتنحل قواه ، وتلتبس حكمته ، ويضطرب قصده ، وتنعكس الآية « انما المؤمنون اخوة » .

ثانياً — تحرير الفكر وتوجيهه الى باقي النواحي العلمية والفكرية التي استقبلها الاسلام في اوج نهضته وازدهار مدنيته وحضارته باعتقاد ان مجاهل الحياة المتشعبة وحاجات الانسان المتنوعة ابعد مدى واوسع نطاقاً من ان تنحصر او تتضح او تحد بما ينطوي عليه الفقه والاصول من احكام وقواعد ليقتصر البحث عليها كما كانت الحال اذ ذاك يوم كانوا يضعفون المحدث اذا مال الى الاخبار (اي الى التاريخ) وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، ان يتوفر على طلب الاخبار (اي طلب التاريخ) [1] يروى عن ابن خلكان « ان أبا يوسف كان يحفظ المغازي وايام العرب وانه مضى ليستمع المغازي ممن اختصوا بتاريخها واخل بمجلس ابي حنيفة فلما أتاه قال له ابو حنيفة — مستنكراً — يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت ؟ ؟ فقال له ابو يوسف انك امام وان لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ ايما كان اولاً وقعة بدر او أحد ؟ فانك لا تدري أيهما كان قبل الآخر فأمسك عنه [2] . وهكذا كان موقفهم من بقية العلوم والفنون .

---

(١) لاحظ ص ٥٧ — ٥٨ من علم التاريخ للعبادي .

(٢) لاحظ ص ٢٤٢ م ٢ من وفيات الاعيان طبع بولاق .

أمنيتي لرفع مستوى الاجتهاد

هذا واذا كان الاجتهاد في الفقه لا يعدو في جملته ومـآله ان يكون من قبيل الاجتهاد فيتفسير الجمل والمفردات اللغوية والتمييز بين الحقيقي والمجاز، والمنقول والمشترك منها ، بعد البحث عن تاريخ نشأتها ، وعما كان يلابسها آن ذلك من قرائن حالية ومقالية ، وما كان يتصل بها ويكتنفها من عوامل الاجتماع والسياسة ومن خصائص الزمـان والمكان ، ثم عما رافق تطورهـا وتنقلها في الأيام والجماعات والاشخاص من تحوير وتغيير ، وكما انهم هنا قـد اختلفوا بين القول باباحة التفسير بالرأي وبين القول بعدمه ، وترددوا بـين القول بجواز الاشتقاق والتصريف والوضع للمستحدثات من المعاني وبين القول بعدمه ، ثم انتهى بهم الخلاف والتردد الى عدم الاطمئنان للفرد مهما كان شأنه ، وإلى الاتفاق على تأليف مجمع من العلماء الاختصاصيين يوكل الى مجموعه التصرف فيما يتفقون عليه من رأي .

فلماذا لا يكون واقع الأمر هنـاك ـ في الفقه الاسلامي ـ كذلـك ؟؟ ولماذا لا ننتهي بعد هذا النزاع الطويل العريض الذي احكمه ووسعه استئثار الفرد وتمادي الفوضى الى ما قد انتهى اليه علماء اللغة من تأليف هيئة منظمة ولجان متخصصة من علماء الطائفة الواحدة يلقى على مسؤوليتها تحرير العلوم الدينية ، وضبط الشؤون الداخلية ورفع مستوى الاجتهاد عنمتناول اولئك المتطفلين من مرضى العقول والافهام والقلوب ، وانقاذ العلم والدين والاخلاق من مدمرات الفوضى وفضول الادعياء وتحكمهم بأفكارهم وعواطفهم على ما يقتضيه الفهم القاصر والغرض الملح والهوى المتبع ؟ .

التأليف بين منطق الدين وتطور الحياة اكبر من طاقة الفرد

انه لم يبق في امكان الفرد ان يقوم بمثل هذه المهام ـ مهام الاجتهـاد ـ كما ينبغي ويجب لأن الدين بالنظر لتوسع ابحـاثه وتشعب فروعه ، ولان

الحياة بالنظر لتعقدها وتطورها المستمر ، قد اصبحـا اكبر من ان يستقصي حقائقهما ويستكنه اسرارهما ويطابق بين داعيهما فرد مهما كان شأنه ليوكل اليه وحده بمثل هذه المهام الشاقة ، ولان الفرد مهما كانت عبقريته ومهما كانت مجهودة لا يمكنه ان يكون منزهاً عن الخطأ معصوماً من الزيغ حرياً بأن يستقل بجهود أمة وتراث اجيـال ويتصرف بمقدرات الافكار والعواطف الدينية .

لا بد من مجامع علمية لنلتقي على وضح الحق ؟

ثم لا بد من وثبة ثانية لتأليف مجمع عام من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، ومن انشاء مجلة لتحرير البحث في مواضع النزاع بينهم ، وتعميم ما يقرره منطق العلم ومنطق الدين والحياة ، ومـا يفرضه التجرد لمحض الحق والخير ، ليتسنى للجميع ويروق لهم ـ على هدى الاجتهاد وبركة الائتلاف ـ ان يتنازلوا عن بعض التقاليد والمتعنتات وينظروا للدين وللحياة نظرة ترتفع بالدين وبالحياة عن كل هذه الحواشي العفنة ، والمعارك الجانبية ، وتسمو بالانسانية عن كل هذه الفصول التي تثير الشك وتشعب الظنون وتوسع الخرق بين الاخوان ، نظرة حكيمة ملؤها الاخلاص والسمو تخطو بالاسلام وبالعالم خطوتها الأبدية الكبرى الى الاتحاد الى النقطة الفكرية ، والعمل الجاد لانقاذ الأمة وتقرير مصيرها .

الاتكال على المصادفات عجز وقنوط ..

.. وعلى فرض ان تصطدم هذه الوسائل ـ في أول الأمر ـ بما قد فطر عليه الجمهور من جمود في الطبع واحترام للشائع من اوضاع وتقاليد ، والتمسك بالمألوف من عرف وروايات ، او ان تحدث هذه الابحـاث ردود فعل في الاوساط الاسلامية كما هو الشأن في كل فكرة جديدة ـ علمية كانت او

دينية ـ لا تنسجم مع الشائع والمألوف من عادة وقول ، انه على فرض ان يكون ذلك كله في اول الأمر ، فلا بد لهذه الوسائل في النهاية من ان تقوى وتسلس لنتائجها الافكار والعقول ، وتراض على مقرراتها الاذواق والنفوس من عامة المسلمين وخاصتهم ولا سيا اذا استمرت معها عواطف المصلحين وحججهم الدامغة ، وتضافرت على تأييدها وتقريرها في المجتمع الاسلامي . الحياة في تطورها ، والثقافة في تقدمها ، والا فالاتكال على المصادفات او ما يشبه الاتكال عليها ـ في الاصلاح والتأليف عجز وقنوط لا يقتنع به المصلح المعتد بصواب مبادئه ، وسداد خططه وسمو غايته ، ولا يليق بالامم المتفائلة الطامحة .

أجل ؟ ماذا يمنع حماة الدين وقادة الفكر في العالم الإسلامي ، ان يؤلفوا لجنة دائمة او لجاناً من العلماء الاختصاصيين الذين عرفوا بمرونة الطبع وسمو الرأي وسلامة الفطرة ، وهيأت لهم الظروف ان يضيفوا الى ثقافتهم الدينية ثقافة اجتماعية عالية تشعرهم بواجبات الحياة وواجبات الدين ، وتمكنهم من التوفيق بين ما التبس او تفاوت من نواميسهما — يوكل الى هذه اللجنة تسوية الخلاف القائم بين المذاهب الاسلاميــــة ، وتحرير النصوص والأدلة على ضوء العلم وسداد المنطق النزيه ، وتعديل الاحكام والنواميس وتقريرها على وجه تذوب فيه النعرات والفوارق ، ويستقيم القصـد والغاية ، ويستمر العمـل والسير على المنهج القويم اللاحب .

وهل ذلك بعزيز على همم المخلصين من القادة اذا هم احترسوا في أخـذ النصوص والادلة والأحكام ، مما جره عليها عادي الزمن وتصادم العصبيات وتزاحم المذاهب السياسية والدينية ، وتنازع الاهواء الشخصية والحزبية من تلبيس واختلاق وتصحيف وادغام ، ثم راعوا في تفسيرهـا وتوجيهها تجدد الحياة واتساع افقها وتطور مقتضياتها ، وتشعب ضرورياتهـا وكمالياتها عما كانت عليه في صدر الإسلام وعهد أئمته الاول .

الملحق رقم ٢
أوضاع المدارس الدينية في النجف

وكان من تقاليد الثقافة والتعليم المرعية لدى العامليين في العهود الغابرة ان يحتذوا حذو الاوساط العلمية في النجف وان يلتزموا بكل ما التزموا به من طرق وأساليب او كتب مخصصة للتدريس مهما يكن شأنها من الضعف والاضطراب ، أضف الى هذا كله مجاراتهم في الحذر من أي تنظيم او تطوّر وتجديد لما تلقوه بالوراثة من أساليب وأفكار وكتب ولو انه قد مر عليها الزمن وتعداها الركب الحضاري :

لهذا وامثاله عمدت بعد ايابي من النجف الى الكتابة عن اوضاع المدارس الدينية عند الشيعة والى انتقاد ما يستحق النقد من عاداتها وتقاليدها انتقاداً يدعو الى نبذ كل ما يحول دون التنظيم والتجديد والتطور الملائم لروح العصر ولمستواه الفكري والحضاري .

المؤلف

قل فيمن تعرضوا لتدريس العلوم الدينية عند الشيعة من اشار الى مكان الضعف والخلل في مدارسهم وفي كتبهم المدرسية ، وفي انظمتهم وأساليبهم

المتبعة لدى الاساتذة والتلامذة والمراجع العليا وخاصة في النجف ومدارسها الكبرى ، وقل فيمن تعرضـــوا لشيء من ذلك في ابحاثهم من تعرضوا له بصراحة ووضوح او تعرضوا لما يستوجبه من علاج ولما يفتقر اليه من خطط ومناهج قوية ، لذلك جئت اعيد على سمع القراء حديث ما قد شعرت بـه وما كنت خبرته واقترحته مع زملائي (في النجف) عل في تكرار الحديث ما ينبه افكار القادة والمراجع المسؤولة الى ما يحفظ مستقبل النجف ويصون حوزتها العلمية ويبعث فيها الحياة قوية متسقة نامية .

اثر الفوضى والاهمال

فالنجف لم تكن — حتى في عصور التحفظ والانطواء — فقيرة في علومها وعلمائها الأفذاذ ، فلقد كانت في كل ما مضى من عهودها خصبة التربـة ثرة الينبوع بما تفيضه على طلاب العلوم الدينية من كتب ومؤلفات مختلفة ، وبما تمج به من علماء وادباء أعلام ، وهي كذلك اليوم لما تزل خصبة التربة ثرة الينبوع ، وانما الشيء الوحيد الذي أمست تفتقر اليه .. هو استئصال هـذه الفوضى الجامحة الهدامة التي ما برحت تضيع في غمراتها الكفاءات والجهـود المضنية ، وما زالت تبالغ في ضد كل مصلح يشعر بما يجره الاسترسال معها من سوء المغبة وفساد النتيجة وانتكاس الاغراض ، بل ما انفكت تعمـل عملها في كبت كل مخلص يقدر ما يفرضه عليه ذلك الشعور من واجب وما يلزمه من احتياط ، حتى اوشكت ان تقضي بعواملهـــا الرجعية وآفاتها الاجتماعية على كل مستقبل للجامعة العلمية فيهـــا ، بما يعتري مدارسها ، وتلامذتها ، وأساتذتها ، وكتبها ، من اهمال واضطراب وتفكك واسترسال مع الاساليب العقيمة والأوضاع المزيفة .

محنة الطلاب وحيرتهم

فالمدارس الدينية هناك تكاد ان تكون (في انظمتها) كالخانات القديمة ليس فيها ما يميزها عنها سوى ان يسجل الطالب اسمه الكريم في دفاتر وكلاتها وان يحتفظ بشماره الخاص من جبة وعمامة وهندام، ثم يحصر وجوده في بعض ليالي الاسبوع وبعض الايام ، بعد ان يختص منها بغرفة للراحة والمنام والمطالعة ، او للاكل والشرب والاستقبال .

والطلاب – بالنظر لبعدهم عن اولياء امورهم وعدم مراقبة المدرسة لسيرهم وسلوكهم ، وتمييزها لدرجاتهم الفكرية وتحصيلهم العلمي بالفحص والامتحان ، او لعدم مساعدتهم وارشادهم بوضع برامج عامة للدروس والآداب المفروضة يسأل الطلاب عن تطبيقها ، ثم لعدم تحديد الأوقات والكتب الصالحة لكل قسم بحسب درجته الثقافية ، وللاغضاء عن تعيين الاساتذة الاكفاء المخلصين – لا بد للطالب منهم مع كل هذا الاهمال أن يصرف كثيراً من جهوده في البحث عن الكتب الصالحة والاساتذة الأكفاء المخلصين ، وان يجازف بكثير من اوقاته ومحاولاته في الاختبار ، وقد يعييه البحث والاختبار دون ان يصل الى نتيجة مرضية توفر عليه الكثير من اوقاته ونفقاته وتوسع رغبته في طلب العلوم المتنوعة والثقافة العامة ، فيستسلم لحكم القضاء والقدر ، او يميل وينصرف عن درس العلوم الاسلامية الى غيرها من شؤون الحياة وفنونها ، واضعاً في عنق المسؤولين – من اولي الأمر والشأن – تبعة اخفاقه وعجزه عن بلوغ الغاية والقصد .

هل كل عالم صالح بفطرته للتدريس ؟

والاساتذة – بالنظر لعدم المراقبة والتصنيف (وعدم البروغرام) وعدم الراتب الذي يقيدهم ويفرض عليهم الامتثال للواجب التعليمي – قليل منهم

من يخلص لوجدانه ويعمل بوحي الواجب ، ولذلك ترى الاكفـاء منهم لا يدرسون غير الدروس التي تتناسب مع مقامهم الاجتماعي وتليق بما يطمحون اليه من شهرة علمية ، وقلما يهمهم بعد ان يكون الطالب صالحاً — بمواهبه الفطرية ودرجته الثقافية — او غير صالح لتلقي تلك الدروس وتلك المسائل التي يتوسعون بشرحها وتأويلها ، وربما سرص المراؤون منهم على ان يظهروا (في تدريسها) جميع مقدراتهم العلمية بما يتكلفون من تلميح واستطراد — في عبائرهم وكتاباتهم — لكل ما يلمون به من مسائل العلوم النقليـة والنظرية ، ولو كانت خارجة عن موضع الدرس وما عليهم بعد ضل الطالب او اهتدى ، وقرب من الحقيقة ام بعد ؟!

وأما غير الاكفاء — وهم بفضل تلك الفوضى اكثرية تتولى وتباشر التدريس — فغايتهم منه في الغـالب أن يتقووا على تفهم العلم او الكتاب الذي يدرسونه ، وربما اسرف بعضهم وأقدم على تدريس ما لم يقرأه ويعرفه من الكتب رجاء ان يلتزم بمراجعته ويطلع عليه بواسطـة تدريسه . . ثم لا تسل بعد عما قد يتخلل الدروس من مكابرة بعض الاساتذة لجهلهم ؟ او من تضييع الوقت المحدود بسرد الحـواشي والاشكالات والافتراضات البعيدة عما يفتقر اليه الطالب من علم ومعرفة .

وبعد فاذا علمنا بانه ليس كل عالم صالح بفطرته للتدريس ، اذا لم يؤت الفصاحة في لسانه والمرونة في منطقه ، والدقة في ملاحظاته وفهمه لنفسية الطلاب ، ثم الاعتدال في ذوقه وتقديره لمـا يلائم استعدادهم من اسلوب ومنطق ولا كل مدرس مفيد اذا لم يخلص لوجدانه ويقـدر واجبه وينصف تلامذته ، اذا علمنا كل هذا نعرف وتعرفون حين ذلـك كيف يكون أثر الفوضى في اهمال شأن المدرسين وترك التلميذ وشأنه في اختيارهم ؟

كتب التدريس وخطرها على الفهم والذوق

وأما الكتب الدراسية فانه لا يفرق فيها بين الغث والسمين ، وبين الواضح والغامض ، والمرتب والمشوش ، والمناسب منها لاستعداد التلميذ وغير المناسب ، بل هناك (عصبة) من المدرسين ، والتلامذة ايضاً ، لا يختارون – ويا للاسف – من الكتب الدراسية الا ما كان غامض المعنى مغلق العبارة كثير الاحتمالات والتشكيكات الخيالية النابية عن الذوق السليم والعرف العربي الأصيل ، أضف الى ذلك ان جل كتب المقدمات المعدة للتدريس انما تصلح للمتخصصين بالعلم الذي تبحث عنه ، لا للمبتدئين الذين يدرسونها كمقدمة للتخصص في غيرها من العلوم ، فان استعدادهم الثقافي واوقاتهم المحدودة وغاياتهم البعيدة لا تساعدهم على هضمها ولا تيسر لهم ان يستفيدوا منها الاستفادة المطلوبة .

فهذا وامثاله – مما يدعو للتشاؤم ويحمل كل نفس تغار للعلم والدين والآداب الاسلامية على أن تذهب كل مذهب في عالم الأحلام – هو الذي كان يهيب بالطامحين من الشباب والمتحمسين من الطلاب الى كثير من الافتراضات والتمنيات ، فكم انشأوا – اثناء دراستهم – من مقال في نقد تلك الاوضاع ، وفي الاستفادة منها ، وكم وضعوا من تقرير لانعاش الحركة العلميـة وتلافي الجامعة من خطر الفوضى والجمود المتغلغل في جميع شؤونها ، وانني لا ازال احتفظ من تلك التقارير والتمنيات بهذا التقرير المشتمل على كثير من البنود الاصلاحية مع شيء من مبرراتها ومرجحاتها على النحو التالي :

من تمني الطامحين وافتراضاتهم

١ – وضع مناهج ثقافية للكتب ، والدروس ، والمطالعات ، والامتحانات على حسب الدرجة والكفاءة والتخصص لا تختلف بأساليبها

وطرقها عن مناهج بقية المدارس والكليات الاسلامية الحديثة في مصر والشام وباكستان .

٢ – اختيار الأساتذة الاكفاء المخلصين ، وتعيين كلّ منهم لتدريس العلم الذي يمتاز به ، والكتاب – من الكتب المقررة للدرس – الذي يقوى على شرح غوامضه ويحسن تقريب مسائله الى اذهان الطلاب .

٣ – اعداد لجان فاحصة لامتحان الطلاب عند كل مناسبة وفي رأس كل سنة ، إذ لا يخفى ما في ذلك من عظيم الأثر في شحذ الهمم وتنبيه الافكار للمحافظة على الوقت والانقطاع للدرس والمسابقة الى الامام .

٤ – تبديل الكتب الدراسية او تعديلها ، بتصحيح الاخطاء وحذف الزوائد منها ، واتمام النواقص ، وتوضيح المغلق ، وتقويم المعوج ، وترتيب المشوش ، ثم تصنيفها وتوزيعها على حسب عقلية التلامذة وميولهم ، وعلى حسب مراتبهم العلمية ، لتتضح بذلك السبل امام الطالب وتقرب النتائج ويتوفر عليه من الوقت والنفقة ما يزيد في نشاطه وطموحه الى ان يتثقف ثقافة عالية تيسر له (بعد الاختصاص بما يختص به من علوم الدين) ان يتذوق الدين ويتذوق الحياة بدون اجهاد او مشقة ، وان يتفهمهما ويؤدي فرائضهما على الوجه الاصح الأكمل .

٥ – ثم الاهتمام البالغ في اعداد الطلاب المتميزين بحسن سلوكهم ، وفهمهم لواجبهم العلمي والثقافي والديني من درس وتمحيص واستنباط ، ومن حزم ونزاهة وتجرد – ليكونوا مثلاً يحتذى وعنواناً صالحاً للتطور في التدريس يجعل للمدرسة سيرتها الحسنة بين الناس واثرها الطيب .

٦ – تحديد ايام العطلة وتصفيتها مما ليس له هذه العلاقة بضروريات الدين والتقاليد القومية الأصيلة ، توفيراً للوقت وصوناً للرغبة والاتجاه القويم من ان يشاب – لتوسيع مدى والعطلة البطالة – ببعض الميول والوساوس المثبطة .

لجنة لضبط الواردات والصادرات

– ان تؤلف لجنة خاصة – من امين صندوق ومحاسب وكاتب – في دائرة كل معهد ديني وفي حوزة كل مرجع كبير من المجتهدين لضبط الواردات من الحقوق والأموال المكتسبة ، ووضع بيان ضاف في رأس كل سنة مدرسية لما يدخل على كل صندوق من الواردات والأموال والحقوق مع تفصيل مصادرها وطرق استيرادها بوضوح لئلا يشك الناس بأن تكون مصادر تلك الاموال مصادر سياسية مشبوهة يحرص الباذلون على انفاقها في شراء الذمم وتسميم الافكار ، وصرف القادة الى السكوت عما يجب الانتباه اليه من خطر الاستعمار وأساليب عملائه الملتوية في الدس والتخطيط ومزج السم بالعسل .

ثم بيان ثان للخارج من النفقات ، ولطرق انفاقها والتصرف بها – وذلك دفعاً لاحتمال الريب والتساؤل ، وتعزيزاً للثقة العامة بنزاهة المعاهد الدينية واخلاص المسؤولين عنها للمثل العليا في الاصلاح ، ثم توجيهاً للرأي العام نحوها بالعطف والتقدير والبذل في سبيلها ، فان الفوضى في استيراد الاموال والحقوق الشرعية والاستئثار بها او صرفها بطريق غامض او على وجه مريب في ظاهره .. هو الذي اوشك ان يقطع الواردات عن النجف والحقوق عن ذويها ، وهو الذي أكثر التأول على العلماء والشك بالرؤساء ورجال الدين ، وخاصة حين يرتاب الناس بمصادر الأموال التي تتسرب الى رجال الدين ويشكون بطرق انفاقها واستغلالها .

ادارة خاصة للاوقاف والنذور

– أن تنشأ ادارة خاصة للاوقاف الخيرية العامة في العراق وغيره من الاقطار الشيعية ، يحتكر ريعها للانفاق على الكليات وفروعها الدينية في كل بلد ، وان يجعل في كل مكان من الأماكن المقدسة كالنجف وكربلاء

والكاظمية ، صندوق خاص للنذور ، توضع مفاتيحه بيد امناء نزيهين من رجال العلم والدين، ولا يفتح إلا بحضور لجنة مختارة تشرف على فتحه وتدوّن محضراً رسمياً لفتحه وتقويم محتوياته وريعه ، ليفرز منها قسم لخدمة الأماكن المقدسة لقاء اتعابهم وتفرغهم لخدمتها ، وقسم لتصليح ما يحتاج الى التصليح من تلك الاماكن ، والباقي منها يحول لادارة المعاهد الدينية وما يضاف اليها من مشاريع ثقافية وخيرية ، والا فمن التسويف والاستهتار ان تترك هذه النذور الطائلة ليستأثر بها افراد قليلون ممن لا فائدة لهم تذكر في خدمة الدين وخدمة العلم وخدمة الاماكن المقدسة والمشاريع الخيرية العامة ، ومن الاسراف ان تستباح هذه الكنوز المجهولة ويذهب ريعها سدى جرياً مع التقاليد الموروثة والاوضاع المزيفة واستسلاماً لحكم الفوضى ؟ ؟

فتح ناد للمطـــالعة

فتح ناد للمطالعة واختيار الكتب من كل علم وفن ، ثم تصنيفها وترتيبها للدرس والمطالعة على حسب درجات الطلاب ، لان الطالب مهما يكن حاذقاً وفطناً لا يحسن اختيار ما يجهله ويجهل مؤلفه او يجهل موضوعه واسلوبه او غايته وقيمته العلمية والفنية من الكتب والابحاث المختلفة ، وقد تسوقه اللجاجة وحب الاطلاع الى ما يجهد ملكاته ولا يقوى على هضم مسائله ونظرياته لكونها فوق مستواه الفكري والثقافي ، اذا لم يكن تثقف لها بعد بالثقافة التي تساعده على استساغتها وكشف غوامضها ، او لانه ليس من صالح التلميذ ان يضيع وقته او تنفتح عيناه على المسائل المشككة التي تتخلل بعض الكتب والابحاث قبل ان يتجاوز عهد الدراسة الاول والثاني : اذ ليس لديه آن ذلك من الثروة العلمية والمناعة الفكرية ما يساعده على دفع غوائل التلبيس واتقاء سموم التشكيك التي توهن العزم وتضعف الهمم وتصرف المخلص عن جده والمفكر عن وجهته .

* * *

تأسيس ندوة للخطابة والمحاضرات العلمية والادبية في كل اسبوع او في كل شهر او كل مناسبة يتبارى بها اللامعون في المدرسة من الاساتذة والطلاب او يدعى لها قادة الفكر من العلماء والادباء والفلاسفة الكبـار على اختلاف اهدافهم ووجهات نظرهم في الحياة، لما في ذلك من التنوير للافكار والاشراف بها على مختلف المناحي العلمية والادبية ، ولما فيه من شحذ الهمم لممارسة كل طريف من العلوم والفنون ، ومن ترويض النفس على المناظرة المهذبة والجدل البريء وتمرين اللسان على تحري اللغة الفصحى والبيان العذب .

* * *

انشاء مجلة لتحرير الافكار العلمية والدينية ، وبحث النظريات الاصلاحية وشرح المسائل ، والاستفتاءات ، وتعميم ما يقره منطق العلم والدين وضروزة الحياة وما يفرضه الاخلاص والتجرد لمحض الحق والخير والمثـل الانسانية ، على ان يكون رؤساء التحرير ممن امتازوا بالكفاءة والمرونـة ، واشتهروا بالبعد عن كل تحيز او تعصب او تأثر بالعواطف الاقليمية الضيقة .. لئـلا تنعكس بذلك الغاية من جمع الكلمة على الاذعـان للحق المجرد والتقدير للخير العام عن طريق البيان الحر والعبارة اللبقة والمنطق الرصين المؤثر بفرط نزاهته ودقته ونصاعته .

* * *

ان تتبادل الزيارات والبعثات العلمية بين مدرستي النجف والازهر تمهيداً لتوحيد مناهج التعليم وأساليب التدريس في كلتا المدرستين ، وتأليفـاً بين الاذواق والافكار والاتجاهات من كلتا الطائفتين ، فان النجف ـ والحق يقال اذا لم يهب بها داعي النهضة لان تحذو حذو الازهر في تعديـل الانظمة المدرسية ومنـاهج البحث والدرس والتأليف ـ لا يمكنها بحـال ان تحتفظ بمركزها العلمي والديني. لان الجمود على الاوضاع الحالية تأخر بها عن مصاف الجامعات العلمية والدينية او تقهقر الى الوراء وخيم العاقبة ، وكذلك الأزهر

الوضاء .. فانه اذا لم تحد به دواعي الاخلاص للعلم والدين والحرية الفكرية لان يجري مجرى النجف في فتح باب الاجتهاد على مصراعيه والتعمق في درس أصول الفقه وفلسفته ، لا يرجى له المستقبل المرموق في اداء رسالته او الاثر البليغ في تعزيز الجامعة الاسلامية .

***

ـ تعديل مناهج التعليم القديم بادخال بعض الدروس والعلوم التي يضطر الطالب للالمام بها وبقواعدها العامة الى جانب فروع الفقه وقضايا الدين ، كعلم النفس، وعلم الاجتماع ، وعلم الاخلاق باصوله الحديثة، وعلم الحساب، وعلم الجغرافيا ، وعلم التاريخ بما فيه تاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ العرب والاسلام ، وتاريخ الأحداث والظروف التي نزلت بها آيات القرآن وتاريخ أدب اللغة العربية ، والتشريع الاسلامي ، على نحو يتفق مع الطرق الحديثة في بحث التاريخ ، ذلك لأن الوقت يتطلب ممن يريد حماية العقائد الصحيحة وبعثها ، وممن يحاول اقناع المشككين بصحتها وانسجامها مع كل عصر وكل جيل ان يكون مضطلعاً بثقافة عامة شاملة تتناسب وثقافة ابناء عصره وبيئته على اختلاف مناحي تربيتهم وتعليمهم، لكي يتسنى له الاعتصام بادق النظريات وأصدق الشواهد المقنعة والتفاهم معهم باطرف الأساليب وأقوى الحجج التي تلائم اذواقهم وتروض افكارهم وتحملهم على الاخذ بنصيبهم الاوفى من تعاليم الدين الحكيمة ونواميسه القوية ، والا تعطلت الرسالة التي يهم بتأديتها .

العناية بتدريس الادب العربي

ثم اذا جاز للطالب أن يتسامح بشيء من درس هذه العلوم ، فلا احسب أن هناك ما يبرر تسامحه بدرس أدب اللغة العربية ، وفي التسامح بدراسته .. انتقاض على ما كان عليه السلف الصالح يوم كان المسلمون ـ من عرب وعجم ـ

يوسعون علوم اللغة وفنون الأدب العربي درساً وتمحيصاً ليصونوا لغة الكتاب والسنة ، ويوضحوا مقاصدهما ومعانيهما ، على ان في درس الأدب العربي ما يرهف شعور الفقيه ويصقل منطقه ويروض ملكاته على تذوق بلاغة الكتاب والسنة وعلى التعمق في استكناه اسرارهما وتحديد مقاصدهما – وهما من الادب العربي في الصميم ومن بلاغته في الذروة – اكثر مما في درس اي علم من علوم الوسائل والمقدمات ، ذلك لمن يريد أن يتعمق في تفهم اغراض الكتاب والسنة ؟ فكيف بمن يريد ان يؤلف ويكتب ويوضح وجهة نظره للجماهير ويؤثر بمنطقه وبيانه على اذهانهم ونفوسهم ؟ ؟

درس الخطط العسكرية والتمرين على السلاح

ثم اذا كان الجهاد ركناً من اركان الدين الاسلامي ، وكان الجهاد بالسلاح والتخطيط العسكري أصدق مفهوم للجهاد في حفظ الثغور ، والدفاع عن وجود المسلمين ومصيرهم وقيمهم الروحية ، اصبح من اللازم – وقد تغيرت في عصرنا الحاضر الاسلحة الحربية ، والانظمة العسكرية عن عهود السلف الصالح من المسلمين اذ بات لكل نوع من الاسلحة فنه الخاص به ولكل نظام عسكري وسياسي علمه المستقل عن بقية العلوم – أصبح من اللازم لهذا كله ان يخصص وقت للشباب من طلبة العلوم الدينية للتمرين على استعمال الاسلحة الحديثة ، وعلى درس الانظمة والخطط العسكرية، وتحديد الظروف والعوامل التي تستوجب حمل السلاح للهجوم والدفاع لئلا تفاجئهم الحوادث ويداهمهم الخطر وهم عزل او كالعزل من السلاح ، لجهلهم بأساليب استعماله وحمله وبالظروف والعوامل التي تستوجب ذلك او بالتخطيط العسكري الذي يصونهم من كيد الأعداء .

هذا حين تضطرهم المفاجآت الى الحرب والدفاع عن وجودهم – بدون

أي مراجعة أو فتوى - كما هي حالنا اليوم ازاء الخطر الصهيوني والامبريالي - فكيف بهم اذا كان الجهاد لا يصح إلا بفتوى منهم او بقيادتهم واشرافهم ؟؟

وعليه فكيف تصح فتواهم بوجوب الجهاد والحرب او تصلح قيـادتهم وتجدي مشاركتهم بها وهم يجهلون فنون الحرب واستعمال اسلحتهـا الحديثة او يجهلون خططها وظروفها السياسية والعسكرية ثم مـا لذلك كله من قيمة في تقدير قوة عدوهم وقوتهم على ردعه ؟؟

صيحة في واد ؟

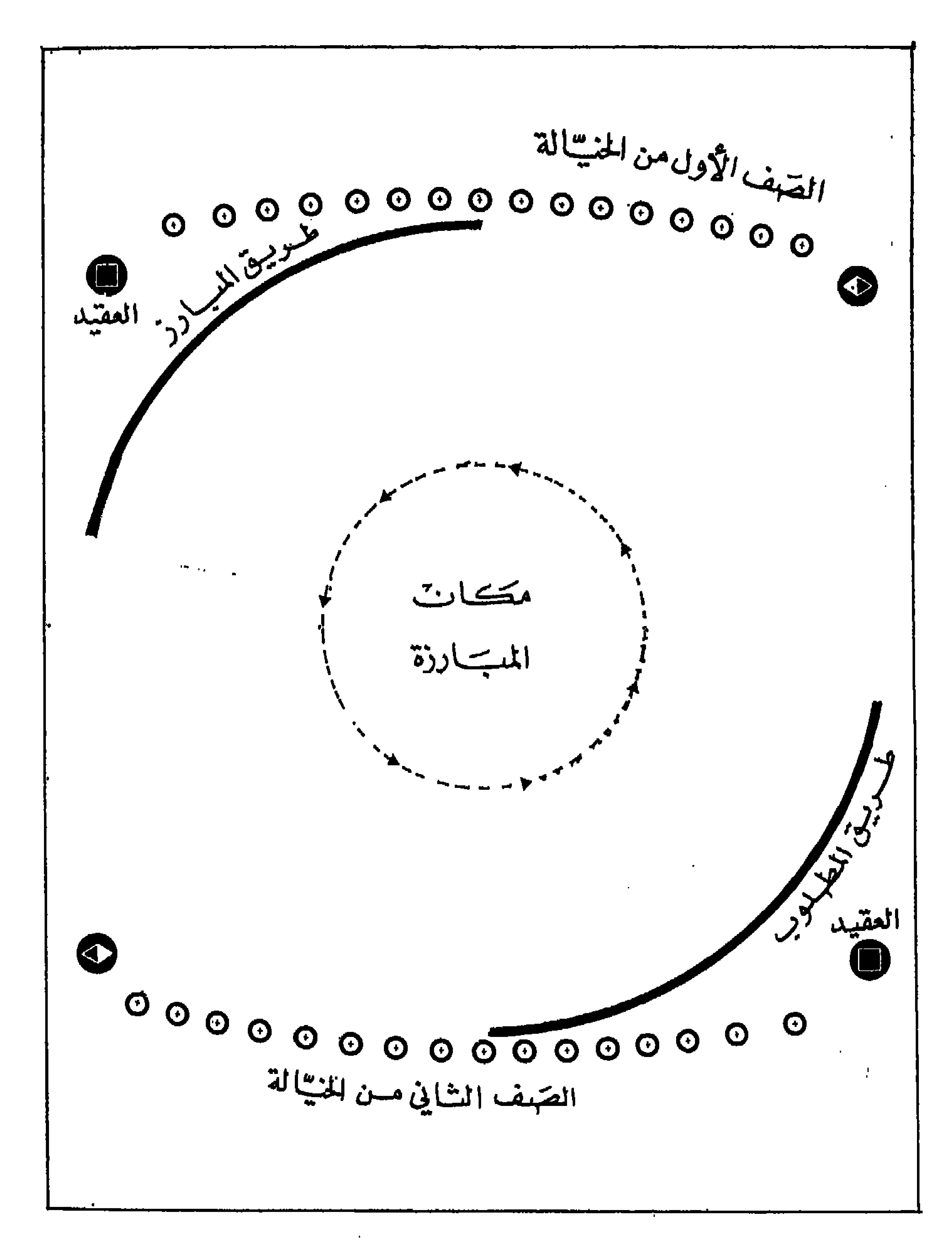
ولكن هذه التمنيات والافتراضات لم يكن لهـا يومئذ - ازاء القوى الرجعية وازاء النزعات الاستغلالية التي كانت تهيمن على النجف - اي أثر في عالم الجد والعمـل اذ من كان يستطيع أن يقف في وجه التيـار العنيف المسير لوساوس الانتهازيين قبل ان تروض الأيام جماحهم وتعـدل الظروف ميولهم وتلجئهم الضرورات - من حيث يريدون ولا يريدون - لتلبية نداء المخلصين والاذعان لخطط المصلحين وقبول ما يفرضه ناموس بقاء الاصلح .

وخلاصة القول ان الفوضى كانت ولما تزل آفة الجامعة النجفية بما يتخللها من ارتفاع المسؤولية عن الطلاب والاساتذة والرؤساء ، وبما فيها من الجمود على أساليب التدريس القديمة والكتب الدراسية العقيمة او شبه العقيمـة ، ومن الوقوف في وجه كل تطور وكل اصلاح توجبه ضرورات الحياة وضرورات الدين لدى من يتورعون في فهم الدين وفي فهم الحياة ، بل هي الفوضى أساس كل علة في تأخرها عن مسايرة ركب الحياة والاحتفاظ بمكانتها بين الجامعات العلمية والدينية والاحتياط لمستقبل الجامعة العلمي والديني .

أضف الى هذه الفوضى في النجف ومدارسها .. فوضى هؤلاء المتخرجين منها الذين ليس لهم في مواطنهم من موارد العيش ما يضمن لهم راحة الفكر

وحرية الرأي والقول وما يصونهم من ذل الفاقة ومحرجـات السياسة ، ولا عندهم من التنظيم الخاص والخطط المرسومة ما يوفر لهم في كل محل اسباب الاحترام وسبل التقدم ، او مــــا يعصمهم من جمود الفكر وجنون العظمة وحب المال ، ولا من المناهج العلمية المحترمة ما يحدد صلاحية كل فرد منهم ويهيىء للاكفاء المخلصين الجو الصالح لاداء رسالتهم وادعين مطمئنين .

وبعد فاذا كان لنا اليوم من أمل في نهضة معاهد النجف العلمية والادبية والدينية ، فانما يتجسد أملنا في تلك التجربة الصادقة التي تقوم بهـــا كلية (منتدى النشر) وأساتذتها الأعلام .



صورة رمزية لوضع الميدان وخطوطه (راجع الصفحة ٩٤)

فهرس العادات والتقاليد

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مطبوعات للمؤلف

١ – من امالي الوحدة

٢ – اوراق أديب

٣ – مع التاريخ العاملي

٤ – مع الادب العاملي

٥ – للبحث عن تاريخنا

المعد للطبع

- فصول من تاريخنا في لبنان
- المختار من اوراقي وقصائدي
- اوراق شيعية
- من تاريخ البكوات في جبل عامل



هذا الكتاب

... كنت جمعت ما انطوى عليه هذا الكتاب من نصوص وملاحظات وصور لأتبسط في شرحها وتمحيصها وامعن في تنسيقهـــا فصولاً وصوراً وافكاراً ، أملاً بتحقيق ما يصبو اليه القراء المترفون من دقـــة علمية وطرافة أدبية ودرس مفيد .

أجل ولكن ما توالى على مسمعي وبصري وقواي الجسدية من طوارىء صحية وحوادث مزعجة انهكت قواي واضعفت نظري واقعدتني عن بلوغ الأمل المنشود ، فاضطررت – بعـــامل القنوط واليأس من المساعدة على القراءة والكتابة – الى الاكتفاء بمـــا تيسّر لي في هذه الأوراق المشوشة ، ثم الى تقديمها على علاّتها صوراً معبرة عن عاداتنا وتقاليدنا او مجسدة لجانب من اوضاع بلادنا وانظمة حكامنا في العهود الاقطاعية والعصور المظلمة راجياً ان يتاح لها من يتمم فصولها ونواقصها ويضفي عليها بردة قشيبة من البيان العذب والملاحظات الطريفة والمنطق السديد .

